

شيوعيون

واصريون

د. فتحى عبدالفتاح

0016252



Bibliotheca Alexandrina

شيوخ عيون و ناصر يون

د. فتحى عبد الفتاح

كتب صدرت للمؤلف

- وجه أمريكا القبيح (مع آخرين)
دار الكاتب العربي ١٩٦٧
- الثقافة والقرية
دار للكاتب العربي ١٩٦٨
- قصص ريفية
القاهرة ١٩٧٠
- القرية المصرية
دراسة في الملكية وعلاقات الانتاج
دار للثقافة الجديدة ١٩٧٣
- القرية المعاصرة
من الاصلاح والثورة
دار للثقافة الجديدة ١٩٧٤
- التعاونيات الزراعية في مصر
دراسة قدمت في ندوة عالمية حول
مشاكل التطور الزراعي في الدول النامية
موسكو ١٩٧٢
- تجربة الثورة في اليمن الديمقراطي
بيروت - دار ابن خلدون ١٩٧٥
- شيوعيون وفاصريون
روز لليوسف ١٩٧٥

الإشراف الفني محمد سليم

مقدمة الطبعة الخامسة

لست أدري بالضبط أى طبعة هذه ، هل هى الرابعة ام الخامسة .

الذى أعرفه أنه ومنذ صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عن مؤسسة روز اليوسف فى نوفمبر سنة ١٩٧٥ ، صدرت له طبعتان ملاحظتان فى بضعة شهور فى أوائل سنة ١٩٧٦ ، نفدت كلها فى أقل من شهر .

ثم عرفت بعد ذلك أن دار نشر مجهولة فى بيروت أعادت نشره عن طريق التصوير ، وبلى وقرأت بالصدفة أن إحدى دور النشر العربية فى القدس المحتلة ، لعلها دار نشر صلاح الدين ، قد أصدرت طبعة خاصة من الكتاب منذ سنوات لقد أبهجنى وأسعدنى للغاية بالطبع هذا الاحتفاء الواسع من جانب القارئ المصرى والعربى بهذا الكتاب ، هذا الاحتفاء الذى أخذ أشكالا وصورا فاقت كل تصوراتى :

● فى الاستفتاءات التى أجريت لسنوات ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ اختير كاحسن كتاب ، وشارك فى الاحتياز نخبة ممتازة من الكتاب والصحفيين والفنانين ورجال الفكر تنوعت وتباينت منابعهم الفكرية ، كما تناوله غالبية الكتاب بالنقد والتحليل .

● كان الكتاب موضوعا لرسالة ماجستير فى الأدب السياسى فى جامعة ليبزج الشهيرة ، كما اعتمدت عليه عدة دراسات أدبية وسياسية كمرجع أساسى لها وهى تؤرخ للمرحلة الناصرية .

● على أن الأهم من ذلك كله هي عشرات الآلاف من الرسائل التي تلقيتها من مواطنين في مصر والعالم العربي ، ومن نوعيات وشخصيات مختلفة ، ليس فقط في أفكارها بل وفي أوضاعها الاجتماعية والطبقية •

ولن أنسى تلك الرسالة التي تلقيتها من المرحوم الدكتور حسن فهمي الأستاذ في كلية الهندسة ومؤسس فرقة رضا للفنون الشعبية والتي جاء فيها :

« أخذت أبحث عنك في كل مكان بعد قراعتي لكتابك فهو ليس مجرد كتاب ممتاز ، بل واحد من تلك الكتب التي يمكن أن يطلق عليها وبثقة « كتاب فريد وعبقري » ..

كنت ابتعد عن السياسة ، واعتبرها حرفة مختلفة تماما عن حرفتي ، ولكني احسست باننى ولحد من هؤلاء « السذج الغافلين » الذين قدمتهم في كتابك ، والذين غرقوا في دراساتهم وفي حياتهم الخاصة دون أن يلتفتوا حولهم ليروا كيف تمضي الأمور في مجتمعهم ويرتبطون بمشاكله وهمومه ..

اعاهدك يابنى اننى ساحاول أن اغير من هذا في سنوات العمر الباقية لى ، لعلنى استطيع أن افعل شيئا على الأقل في الهدف الذى كرسبت حياتك للدفاع عنه وهو أن تكون مصر للمصريين جميعا ، دون تمييز أو اضطهاد ، للنساء والرجال ، للعمال والمتقنين والمنتجين الحقيقيين بعيدا عن أى تعصب أو ارهاب ، وبعيدا عن أى امتحان جسدى أو نفسى ..



كان ذلك فى الواقع اعلى ثمن يمكن ان يحصل عليه كاتب .. علما بان كل ما حصلت عليه من حقوق التأليف لم يتجاوز

٣٠٠ جنبه ٠٠ وعلمنا بأننى كان قد سبق لى وأصدرت قبل هذا الكتاب ست كتب أخرى من دراسات سياسية واجتماعية وأدبية بما فى ذلك مجموعة قصصية قصيرة ، وقد حظى بعضها وخاصة الدراسات المتعمقة بالقراءة المصرية باهتمام واسع ٠٠

ولكن احدا منها لم يكن له هذا الدوى الواسع ، ولم يتبوا مثل هذه المكانة المتفردة ٠٠

ولقد دفعنى ذلك لأن اتوقف كثيرا عند التعليقات والنقد الذى نشر عن الكتاب ٠٠

البعض اعتبره نموذجا جيدا للرواية الواقعية ٠٠ والبعض نظر اليه على أنه وثيقة تاريخية هامة ، تسجل وقائع واحداث مرحلة خطيرة فى تاريخ مصر والعالم العربى ٠٠

والبعض الآخر ناقشه على أنه « سيرة ذاتية » تضمنت تجربة منهيزه ٠٠

اشاد البعض بالأسلوب ، وأبرز البعض الآخر النهج الموضوعى فى سرد الأحداث وتناولها ٠٠

على اننى حين سئلت قلت ، وما زلت اجد هذا القول مقنعا ٠٠ ان القضية ليست فى الأسلوب ٠٠

وليست فى القدرة على التناول وعرض الأحداث ٠٠ ولكنها قبل كل شىء تكمن فى خطورة التجربة نفسها ٠٠

واذا كان يقال ان الأسلوب هو الرجل ، فان الكاتب هو التجربة ٠٠ وكلما كانت هذه التجربة « عامة وحقيقية » اى تتميز بصدقها وبالتجربة الانسانية فى مجملها ، كلما وجدت

فربقها بسهولة الى قلوب وعقول اوسع قطاعات ممكنة من
القراء ..

فلقد كتبت ما كتبت وانا على قناعة تامة باننى لست بصدد
عرض لمعانة فرد او مجموعة افراد ..

ولم استهدف الدفاع عن فكرة معينة او مجموعة من الأفكار ،
بل كنت متمثلا لقضية اوسع واعرض بكثير ، قضية لا تتعلق
بسرر احداث التجربة فى الماضى ، بل تضع عينها فى الأساس على
الحاضر والمستقبل ، قضية تطمح فى سد الطريق امام اى شكل
من اشكال القهر البدنى او النفسى لآى مصرى او مصرية لانه
او لانها تحمل آراء قد تتفق او تختلف مع الآخرين *

والفكرة النابعة من احتياج انسانى حقيقى ، لا تنتوه او تضيع
بمرور الأيام ، بالعكس تنتعق وتتاصل ، ولعل هذا هو الحد
الفاصل بين اى ابداع فكرى او فنى حقيقى ، وبين الكثير من
اللغو المكتوب الذى تكنسه رياح الزمن وتلقى به الى صحارى
المدم ..

وبعد عشر سنين من صدور الطبعة الأولى للكتاب ،
وعشرين سنة من احداث التجربة نفسها ، اجد نفسى اقف على
نفس الشاطئ الممتد ، وأرى كل أبناء وبنات مصر يطعمون مثلما
اطمح فى اصدار قرار جماعى حضارى مصرى ، متمثلا للتاريخ
والتراث ، ومنطلقا لآفاق المستقبل ، وبان تكون مصر لكل
المصريين قولاً وعملاً ..



حين يلتقى الانسان بنظرة عريضة على الواقع العربى اليوم ،
والواقع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى ، فلن
يختلف احد فى ان هناك ثمة واقع جديد مختلف ..

واقع تتبدل فيه القديم والمفاهيم ، وتدخل عوامل جوهريّة في تغير البيئة الفوقية والتحتية للمجتمعات ، ابتداءً من المفاهيم والأسس الاقتصادية الى التصورات الثقافية والفكرية . .
تغيرات خلقت ثروات هائلة على السطح ، وفقر مدقع في الأعماق . . فمُنذ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وحتى الآن ارتفع المصريون قناة السويس وخط بارليف ، وحتى الآن ارتفع سعر البترول لأكثر من عشرة أضعاف ، وتدفقت عائداته الهائلة الى شركات البترول في المحل الأول ثم الى الدول المنتجة حتى ارتفع التراكم الرأسمالي في بعض الدول العربية الى آفاق غير مسبوقة في التاريخ . .

وبغض النظر عن التحفظ ازاء التعبير الخاص بالتراكم الرأسمالي اذ ان البعض لا يرى في ارصدة الدول البترولية سوى مجرد فائض مالي أو نقدي ، الا ان هذه الثروة الهائلة من « البترودولار » كان ولا بد وان تعكس نفسها في المنطقة بأكملها وليس فقط في الدول البترولية . .

وأخطر ما في هذه « الثروة الطارئة » انها جاءت في غالبيتها بعيدة تماماً أو تكاد عن وسائل وعلاقات وقوى الانتاج التي كانت وما زالت في جوهرها سائدة في هذه المجتمعات . .

ونجد انفسنا امام تناقض غريب . .

راس مال مالي متراكم يحسب بالآلاف المليارات من الدولارات ، وعلاقات انتاجية واجتماعية متخلفة ، تنتمي غالبيتها الى المجتمعات القبلية والعائلية والعرقية وجميع الاشكال السابقة حتى على مرحلة التطور الرأسمالي . .

هذا التناقض الغريب أفرز لنا اشكالا وأنماطا حياتية

غريبة وغير متنسقة ، ولكنها كلها تعنى فى النهاية انتصار قيم
« الثروة » على قيم « الثورة » ..

وفقدت كثير من التعبيرات والمسميات معانيها الحقيقية ..
فمن يدعون الى السلفية والتراث اليوم لا يستطيع الانسان ان
يحدد تماما ماذا يستهدفون لانهم هم انفسهم غارقون حتى
الخنخاع فى مظاهر الثروة ومباهجها ..

وعلى الطرف الآخر نجد البعض من ينادون بالثورة
لا يدركون تماما ماذا تستهدف او ماذا تعنى ، بل احيانا ما
تكتشف انهم هم الآخرون وجه آخر لعملة « البترودولار » .

خلط غريب وجديد فى كثير من الأوراق والمسلمات السابقة
.. وعلينا ان نعترف « بان ذلك الواقع الطارىء » سيستمر
ولفترة يفرزلنا كما واشكالا جديدة من الأفكار والتناقضات ،
ولكنه بالتأكيد وضع طارىء لا يمكن ان يستمر للأبد ..

فى هذه الفترة بالذات ، يحتاج الانسان العربى الى التمسك
بالقيمة الأساسية التى لم تندثر بعد ، الخشبة التى يمكن فيما
بعد ان نجعل منها سفينة النجاة وسط عواصف واعاصير
لابترودولار ، وهى احترام حقوق الانسان العربى ، حقه فى ان
يعبر عن رايه بالقول والكلمة بعيدا عن اى مخاوف لظلم او
اضطهاد انها القضية الملحة التى يجب ان نكسبها وان نفرضها
فى عالمنا العربى .

ففى مرحلة الترانزيت التى نعيشها تصبح حرية الراى
واحترام انسانية الانسان هى الجوهر والمنقذ الوحيد الذى
يمكن به للانسان العربى ان يعيد اكتشاف ذاته ومجتمعه ..
ومن هنا تصبح التجربة التى اقدمها جهدا على الطريق
الشاق الذى يحاول ان يخرج بالانسان العربى الى آفاق التنوير
الانسانى حتى لا تغرق فى الهوة السحيقة التى تعدلنا ..
ودعنا نأمل ..

القاهرة - سبتمبر سنة ١٩٨٥

فتحى عبد الفتاح

- ١ -

حولك أشباح الأكاذيب وانت
تقيمين لها سوق الاوهام تعال
بعيدا عن هنا .. يا طفلتى ..
(طائغور - مسرحية الناسك)

اول يناير سنة ١٩٥٩ :

وصلت الى الجريدة فى الساعة السادسة صباحا ، دعك
عامل المصعد الصغير عينيه وكنتم مشروع تناؤب ، فلم يكن قد
حضر بعد سوى عدد قليل من عمال النظافة ، وحتى « عم
محرم » ساعى مكتب القسم الخارجى لم يكن قد حضر .

لم أكن أعرف بالضبط ما الذى دفعنى للحضور للجريدة
فى هذا الوقت المبكر . حقيقة ان العاملين فى القسم الخارجى
كانوا مطالبين بالحضور المبكر ، ولكن ليس الى هذه الدرجة
فلقد كان هناك أكثر من ساعة كاملة على ان اقضيها وحدى
قبل حضور أحد من الزملاء والزميلات ، فمابالك واليوم هو
اول السنة الجديدة بما حفلت به الليلة السابقة من حفلات
وسهر حتى الصباح .

كذلك فان وجود بيتى قريبا من الجريدة كان يتيح لى فرصة
التحكم فى الوصول فى موعد العمل دون حاجة الى اتوبيس أو
تاكسى أو حتى عربة الجريدة . فما كان على الا ان اقطع بعض
الجوارى فى بلاق لاصل الى شارع الصحافة حيث مبنى الجريدة
.. وطوال العاملين الماضيين أى منذ التحقت بالعمل فى
« النساء » وأنا استيقظ فى حوالى الساعة وفى الساعة
والربع أجلس على مكتبى .. ميزة كنت أتمتع بها ويحسدنى
عليها الزملاء ، وخاصة الزميلات اللاتى يقيم بعضهن فى مصر
الجديدة ويضطرون الى ان يكررون بساعة على الاقل قبل الموعد
تحسبا للمواصلات .

وجاء « عم محرم » وقرأت دهشة في عينيه الفائرتين كميون الفار ، وقبل ان ينطق بكلمة كنت قد طلبت القهوة والشغل . . ولا بد ان الرجل قد استشعر ان الامر خطير ، فأخذ يهرول بسرعة الخيل الى غرفة « التكرز » ويجمعها بدون ترتيب ليضعها امامي ومعها جرائد الصباح ، والحقيقة انه لم يكن لدى أى حماس للعمل ، وكنت قد قرأت جرائد الصباح في بوفيه « المحطة » ، ولذلك ازحت اكوام التكرز وعدت الى حالتى التى كنت عليها طوال الليل ، استكمال لما كان يشغلنى طوال ليلة أمس والتى لم اتم فيها ربما ليس عن قلق فقط بل عن رغبة أيضا .

والحقيقة اننى حتى لو كنت اريد النوم فلم اكن لاستطيع فلقد كنت اعيش اياما غاية في الصعوبة والتعقيد ، ولقد جربت من قبل وطوال حياتى الجامعية اياما سوداء ولكنها لم ترق ابدا الى مستوى هذه الايام ، ففي السنوات الخمس الماضية فقدت « الام » ، وكنت فى أول عام فى الجامعة ، وبعد ذلك ومنذ عامين فقط ، فقدت أخى الأكبر « انيس » ، وقد كان صديقا ورفيقا فوق كونه أخى ، عشنا سويا فى القاهرة ، هو فى الحقوق ، وأنا فى الاداب ، تجمعننا غرفة ، وأحيانا شقة ، ثم مات فجأة بعد مرض قصير .

وفى هذا العام كنت قد فقدت أيضا ماتصورتته فى ذلك الوقت اكبر تجربة عاطفية مرت بى . . زميلة تعلقت بها وتعلقت بى ، تزاملنا فى الكلية ثم عملنا فى الصحافة بعد التخرج . . ثم اكتشفت بعد ذلك اننى عشت واحما أو متوهما . . وإن وظيفة محرر فى جريدة مسائية ومرتب لايزيد على العشرين جنيها لايمكن ان تكون اغراء كافية لزميلتى ، وخاصة اذا دخل المنافسة بعض الكهول من العاملين فى الصحافة ممن لهم اسماء لامعة ومرتببات دسمة .

وفى كل هذه المناسبات كان الالم يعترضنى فاجأ الى الهروب والنسيان . . حين ماتت أمى لم ادخل الدور الاول فى الامتحان ، فلقد كان من الصعب على أن اجلس الى مكتب أو كتاب . . ونجحت فى الدور الثانى وانكسرت حدة الازمة ،

وحين مات أخى كنت قد حصلت على الليسانس وعملت فى
الجريدة اغرقت نفسى فى العمل ووجدت فيه بعض السلى .

وحين صدمت فى حبى ، أخذت اجازة من الجريدة وذهبت
الى الاسكندرية لمدة اسبوعين ، وحينما عدت الى الجريدة
اكتشفت ان البحر استطاع ان يفسل الآمى وحبى ، وكنت
اول من هنا زميلتى بخطيبها الجديد .

ولكن هذه المرة كانت المسائل إعنف وأقوى وأعمق . فلم
تكن ازمى وحدى ، او ازمة الجريدة التى اعمل بها ، بل كانت
ازمة تعيشها البلد كلها .

كان ذلك فى اول ساعات عام ١٩٥٩ ، وكانت الامور
نمضى فى وتيرة سريعة وغريبة وغير مفهومة وكانما تدفعها قوى
خفية لايعرف احد مصدرها . . وكانت التطورات اليومية
تمضى فى خط معاكس تماما لكل المقدمات التى توحى بها
السنوات الماضية (الثلاث) .

فمنذ اقل من عدة شهور كنت اتصور ومعى الكثيرون ان
حركة التحرر العربى بقيادة الثورة المصرية ، وجمال
عبد الناصر على وجه التحديد ، قد كسبت المعركة نهائيا ضد
قوى الاستعمار والتخلف فى المنطقة ، وكانت جريدتنا تعكس
ذلك فى ثقة ووضوح . ولقد ولدت جريدة المساء فى اكتوبر
سنة ١٩٥٦ ، وعاصرت امجاد وانتصارات الشعب المصرى فى
مواجهة العدوان الثلاثى بعد شهر من الصدور . ومنذ ذلك
التاريخ والثورة المصرية تحقق المزيد من الانتصارات ، وبرز
جمال عبد الناصر كقائد وطنى شجاع وكنموذج للقيادات
الوطنية المخلصة ، ليس على النطاق المصرى والعربى فقط ،
بل وعلى النطاق العالمى . . فبعد الانتصار على العدوان الثلاثى
على مصر والذى اشتركت فيه انجلترا وفرنسا واسرائيل ، ثم
قوانين التصير التى ضربت المصالح والشركات الاجنبية التى
كانت تنهب الاقتصاد المصرى ، ثم الوحدة المصرية السورية
سنة ١٩٥٨ ، واعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة ، ثم
سقوط النظام الملكى الاستعمارى فى العراق فى يوليو سنة
١٩٥٨ ، وانهيار حلف بغداد .

كل تلك المكتسبات الرائعة فى خلال فترة زمنية قصيرة كانت توحى بأن احلام الشعب المصرى ، بل والشعوب العربية كلها فى التحرر من الاستعمار والاستغلال والصهيونية قد اصبحت وشيكة .

ولهذا كله فلقد كان ما يحدث فى الشهور الاخيرة لعام ١٩٥٨ ، أى بعد اقل من ستة أشهر أمر لم يكن لاحد ان يتنبأ به ، حتى أكثر الناس تشاؤما من قوى الثورة العربية . ولم يكن لاحد ان يحلم به حتى أكثر الناس اخلاصا للمصالح الاستعمارية والرجعية . كانت الصورة قد تبدلت تماما أو هكذا كانت تبدو على السطح . الحكم الوطنى فى العراق ، والذي جاء متمثلا بكل شعارات ثورة يوليو يدخل بعد اقل من شهرين من قيام الثورة فى تناقض مع القيادة الوطنية فى الجمهورية العربية المتحدة وتبدأ تبادل الاتهامات والتراشق بالالفاظ خفيما ومستترا فى البداية ، ثم ينفجر فى معركة عنيفة ، سوداء ، فتهاجم القيادة العراقية الجمهورية العربية المتحدة بشراسة وعنف كما لو كانت هى نفسها الولايات المتحدة الامريكية . وترد الجمهورية العربية المتحدة لتهاجم العراق كما لو كانت هى نفسها بريطانيا العظمى .

وتفشل كل المحاولات التى بذلتها القوى الوطنية العربية لرأب الصداع ، بل وتدخل هذه القوى فى صراع مدمر بينها وبين نفسها . ليس ضد اسرائيل ، أو ضد القواعد والمصالح الاستعمارية فى المنطقة .

واصبحت القضية هى معركة بين الناصريين والبعثيين والماركسيين ، ووقفت القوى الرجعية والعميلة فى المنطقة وقد تنفست الصعداء بعد ان وجهت لها ضربات قاسية طوال السنوات الثلاث الماضية ، بل وتبدأ هذه القوى فى اللقاء المزد من الزيت على الصراعات العنيفة التى بدأت تدور بين هذه القوى ، التى كانت حتى أمس القريب تجمعها وحدة فى الشعارات والعمل .

وأصبحت كلمة ناصري أو بعثي أو ماركسي مرتبطة بكثير من النعوت والصفات الغريبة داخل كل بلد عربي ، فالبعض في العراق يرى في « الناصري » ناصرا للاستعمار ، والبعض نموذجاً للانتهازية والعمالة والبعض في مصر يرى في الماركسي خائن وعميل ، والصحف في العراق لا هم لها الا الهجوم على عبد الناصر والنظام في الجمهورية العربية المتحدة . . كنظام توسعي دكتاتوري يسعى الى اغتنام الخيرات العربية والتنسيق مع الاستعمار والولايات المتحدة الامريكية والصحف في مصر وسوريا لاترى في عبد الكريم قاسم والنظام العراقي سوى نظام شيوعي عميل للشيوعيين ومعاد للقومية العربية ويعمل بوحى من الاستعمار البريطاني .

كيف حدث هذا ؟؟ . . وفي خلال شهور فقط من الثورة العراقية التي كانت في حد ذاتها تعبيرا عن انتصار عبد الناصر ومبادئه في مطاردة الاستعمار في المنطقة ؟؟ .

هذا ماكان يحير الكثير من الوطنيين ، وكنت واحد منهم والذين لا يرون مبررا موضوعيا واحدا لكل تلك الممارك القاسية ، بين القوى صاحبة مصلحة الحقيقة في معاداة الاستعمار وتحقيق الاماني والطموحات المشروعة للقومية العربية والشعوب العربية .

كانت هذه هي الصورة العامة اللازمة . . ولكن الازمة بالنسبة لجريدتنا كانت تعني شيئا أكثر تحديدا . . فلقد كانت « المساء » بعد « الجمهورية » هما الجريدتان اللتان انشئتتا في عهد الثورة . . وحينما استدعى جمال عبد الناصر زميله وصديقه خالد محيي الدين سنة ١٩٥٦ وطلب منه انشاء جريدة جديدة ، طلب منه ان تكون جريدة وطنية تقدمية تعبر عن طبيعة المرحلة التي يمر بها النضال المصري والعربي . . واستعان خالد محيي الدين بعدد من الكتاب والصحفيين اليساريين والماركسيين ، وخرجت المساء في اكتوبر سنة ١٩٥٦ ، لتعبر عن الخط الوطني الديمقراطي المعادي للاستعمار العالمي ، ولتثير الكثير من القضايا الداخلية والخارجية التي لم تكن تحوز في الصحف الموجودة في ذلك

الوقت سوى مساحات قليلة .. ولقد كانت الصحف الموجودة حتى ذلك الوقت فيما عدا جريدة الجمهورية صحفا قديمة لها تراثها وتفكيرها الخاص قبل سنة ١٩٥٢ .

كانت هناك الاخبار التي يصدرها الاخوان أمين بمدرستهم المعروفة في الاثارة والتسطيح وتجاهل القضايا الاجتماعية

وكانت هناك الاهرام التي مازال يحكمها خط أبناء تكلا منذ تأسيسها في أواخر القرن التاسع عشر وهو خط فائر بعيد عن الانغماس في المشاكل الواقعية للمجتمع المصري .. وكانت هناك جريدة القاهرة المسائية تمولها الملكة السعودية . أما الجمهورية وهي الجريدة التي انشأها عبد الناصر ، وكان صاحب امتيازها ورأس تحريرها أنور السادات فبالرغم من خطها الوطني الذي برز من اللحظة الاولى إلا أن صفة الرسمية التي اصطفت بها من البداية كانت تتيح الفرصة للصحف الأخرى للنيل منها .

وهكذا كان صدور جريدة المساء هو في الواقع تقدما لمدرسة جديدة في الصحافة المصرية .. افردت الصحيفة ومن العدد الاول صفحاتها الواسعة للهجوم على الاستعمار والمصالح الاستعمارية ، ليس في مصر وحدها والبلاد العربية ، بل وفي العالم كله . وكانت هناك أبواب مثل : من كفاح الشعوب و أضواء على الاستعمار العالمي وقضايا ومشاكل داخلية . وغيرها من الأبحاث والدراسات الجادة التي تقدمها الصحيفة بالنسبة للمشاكل الداخلية والخارجية .

ولذا اشفق كثيرون على هذا اللون من الصحافة الجادة والمقاتلة في مواجهة أكبر مدرسة كانت تتصدر العمل الصحفي في ذلك الوقت وهي مدرسة أخبار اليوم ، والتي كانت تعتمد على الموضوعات الحفيفة والمثيرة ، ويومها زار مصطفى أمين خالد محيي الدين في مكتبه في المساء وكانت المسافة بين مبنى أخبار اليوم ومبنى المساء لا تتجاوز مائة متر وقال مصطفى أمين ضاحكا لخالد « لو وزعت الجريدة الجديدة عشرة آلاف فانها تكون قد نجحت أما خمسة عشر ألفا فستكون قد تفوقت » .

كانت تلك تقديرات مصطفى أمين بوافقه عدد كبير من العاملين في الحقل الصحفي بما فيهم العاطفون على الجريدة الجديدة وصدرت الجريدة ، وواكب صدورها العنوان الثلاثي على مصر وبلغ توزيعها في تلك الفترة فوق المائة ألف ، وكانت تطبع أحيانا أكثر من طبعة ، بل وتصل الى ثلاث طبعات .

ووصل متوسط التوزيع في الايام العادية حوالى ٦٠ ألف نسخة ، وهو رقم كان يفوق كثيرا من الصحف الصباحية في ذلك الوقت .

ولقد كان من الطبيعي ان تجتذب الصحيفة عناصر كثيرة من المثقفين ذوى الاتجاهات الوطنية واليسارية ، فبالاضافة الى عدد من الشبان الذين عملوا في مختلف اقسام الصحيفة وبالذات في القسم الخارجى الذى عملت فيه كان هناك أيضا عدد من الكتاب والمفكرين اليساريين الذين يعملون في الصحيفة أو يساهمون في تحريرها . فهناك عبد العظيم أنيس ، ولطفى الحولى ، وعلى الشلقاني ، وسعد التانه وأديب ديمترى ، واسماعيل صبرى ، وعلى الراعى ، وشهدى عطيه وفوزى منصور ، ومحمد عوده ، ومصطفى بهجت بدوى ، وعادل ثابت ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمود العالم ، وأنور عبد الملك ، والدكتور حسين كمال الدين ، ودكتور عبدالرازق حسن .

أما الشبان والذين كنت واحد منهم ، فلقد اتجهنا الى العمل فى (المساء) عن ايمان بانها المنبر الوطنى الديمقراطى الذى نستطيع ان نعبر فيه عن مفاهيمنا واحلامنا فى بناء مصر الوطنية الديمقراطية .

وكان غالبنا حديثى التخرج ، وبعضنا عمل بعض الوقت فى صحف أخرى قبل صدور المساء ، ولكن الحظ الفكرى الذى خرجت به وعبرت عنه المساء كان قوة جذب لنا .

بل اننى وقد عملت بعض الوقت فى صحيفة الجمهورية من خلال علاقة قرابة للاستاذ أحمد قاسم جوده رئيس تحرير الجمهورية فى ذلك الوقت ، ثم انتقلت للعمل بعد التخرج فى

القسم الخارجى لجريدة الاخبار مع الاستاذ مصطفى
وجدت نفسى مدفوعا او مندفعاً للعمل فى المساء رغم ان
او بمعنى اثنى المكافأة التى اقترحت لى فى المساء كانه
بكثير مما كان يعرض فى الاخبار .

وسبقنى ولحقنى عدد آخر من الشبان ، جميل عبد ا
طاهر عبد الحكيم ، فيليب جلاب ، بهيج نصار ، عايدة
ليلى الجبال ، ابراهيم وهبى ، عدلى برسوم ، اسد
المهداوى ، عبد الفتاح الجمل ، فاروق منيب ، جيلى عبدا
أمير اسكندر ، بدوى محمود ، عبد السلام مبارك ، ،
عثمان ، اميمة ابو النصر ، عايدة صالح ، صبحى الشار
مصطفى الحسينى ، نظوى سليمان وعبد المجيد ابو زيد
العطار الخطيب عباس ، شفيق خالد .

وهكذا كانت هيئة تحرير المساء سواء كانت لا
نصف لامعة او من الدم الجديد الشاب يمكن كلها ان
تحت توصيف سياسى هى أنها عناصر وطنية ديمقراطية
كان هناك الماركسيون والاشتراكيون الديمقراطيون
والليبراليون ، بعضهم ممن له تاريخ طويل فى العدا
والاقطاع والنظام القديم الذى انهار منذ اربع سن
وبعضهم دخل السجون والمعتقلات قبل ثورة سنة ٢٠
وحتى بعدها فى بعض الفترات التى لم يكن مسار
الوطنى الديمقراطى قد تحدد بوضوح وبالذات سنة ٤
حينما كانت الولايات المتحدة الامريكية تكثف جهودها
اجل احتواء الثورة وقيادتها .

ولكنهم كلهم ومنذ سنة ١٩٥٦ ، كانوا يساندون الث
خطوطها العامة وخاصة وقد اتضحت هويتها الم
ومنطلقاتها الثورية فى العدا للاستعمار العالمى و
السياسية والعسكرية معه ابتداء من رفض وتحطيم
بغداد الى تأميم القناة ومواجهة قوى العدوان الثلاثى ثم
وفضح الاهداف الاستعمارية والامريكية منها على وجه
فى المنطقة والحق الفضل بمشروع ايزنهاور ونظرية

التي تكشف عنها مخططات جون فوستر دلاس وزير الخارجية الأمريكية .

ربالإضافة الى الحماس الشديد الذي عكسته صحيفة المساء للسياسة المعادية للامبريالية التي اعلنتها وتابعتها القيادة الوطنية في مصر في ذلك الوقت ، دأبت الصحيفة أيضا على اثارة ومناقشة عدد من القضايا الحيوية والهامة التي ترتبط بخط التطور الاجتماعي والاقتصادي .

وخصص لأول مرة في الصحف المصرية صفحة فكرية هي الصفحة الخامسة ، كانت تتناول وتعالج الكثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية بمنهج جديد يضع في اعتباره مصلحة الغالبية العظمى من السكان وخاصة العمال والفلاحين .

وأثرت قضايا مثل تطبيقات قوانين اصلاح الزراعة والسياسة التعليمية والثقافية والاسعار والاجور والتنظيمات النقابية والتخطيط الاقتصادي ، وهكذا وبكل المعايير الموضوعية كانت صحيفة المساء أكثر الصحف تعبيرا عن افكار وبرامج الثورة الوطنية الديمقراطية وكانت في الواقع تجسيدا للجبهة وطنية عريضة تضم جميع المدارس الفكرية الوطنية والاشتراكية .

ولهذا كان من الطبيعي ان تكون المساء يخطها وهيئة تحريرها أكثر الصحف تحفظا وأحاساسا بالمسئولية ازاء الانقسام المفاجيء الذي طرأ على الجبهة الوطنية العربية في لحظة كان يعتبرها الجميع قمة انتصار هذه الجبهة وقيادتها .

والتزمت المساء منذ بداية الازمة بين القيادة المصرية والعراقية في ذلك الوقت بموقف مبدئي وواع بالمسئولية ازاء ضرورة وحدة الصف بين جميع القوى الوطنية ، ولذلك نأت عن الدخول في معارك الشتائم والشتائم المضادة ، بل وأخذت تحذر من مغبة انقسام القوى الوطنية العربية في تلك الفترة العصيبة .

وفي الوقت الذي كانت صحف ومجلات اخبار اليوم تزيد النار اشتعالا وتدخل من اوسع الابواب في كل سطورها

معارك المهاترات بانتشاء وحرفنه ليس حرصا على هذا أو ذاك بل عملا على توسيع هذه الخلافات بين القوى الوطنية العربية تهييدا واستعدادا للقضاء على كل القوى المتناحرة ، سواء كانوا ناصريين أو بعثيين أو ماركسيين أو قوميين عرب .

ودخل الساحة قوى غربية ومربية الافاقون ومحترفي الانقلابات والعلاء السافرون للاستعمار في المنطقة ، وكاد يتوه العقل والمنطق ، بل لقد تاه بالفعل وسط طوفان من الشتائم والاتهامات المتبادلة .

ووسط هذا الجو المشحون بالانفعالات والتشنجات ، كانت المساء هي الجريدة الوحيدة ، وربما في العواصم الثلاث، القاهرة ودمشق وبغداد ، هي التي تكافح بالعقل والمنطق -

واخذت تؤكد في مقالاتها وافتتاحياتها عن ضرورة الوحدة الوطنية وتحذر من المنزلاقات التي يرميها الاستعمار والرجعية في الطريق وتؤكد ان ما يجمع القوى الوطنية المختلفة سواء كانت ناصرية أو بعثية أو ماركسية أو قومية ، أكثر بكثير مما يفرقها ، بل وأخذت بموضوعة شديدة تناقش بعض القضايا الخلافية بين القوى والتنظيمات الوطنية المختلفة مثل قضية الوحدة والديمقراطية والقومية .

وكانت تاتي أيام تبدو فيها الامور كما لو ان العقل قد انتصر فتخف حدة الشتائم والاتهامات المضادة ، وفجأة يصدر تصريح من بغداد أو من القاهرة ربما على لسان واحد من صغار المسؤولين فيتكهرب الجو مرة أخرى وتنطلق شحنات حاقدة ومدمرة وغريبة .. وستظل اسماء مثل : فاضل المهداوي في بغداد ، وموجهي صحف أخبار اليوم ، ومدير اذاعة صوت العرب وكثيرون غيرهم تثير دائما علامات استفهام كثيرة حول دوافعها واهدافها الحقيقية في اشعال نار الخلافات بين القاهرة وبغداد في تلك الفترة في وقت كانت القيادة في البلدين تنتمي بالقطع لحذر وطني واحد ، بل وتنطلق من اساس واحد تقريبا .

فلقد كان سخيفا ما رددته البعض في بغداد من ان في

للقاهرة نظام توسعى يسعى لضم الدول العربية أو نظام يقوم بدور الشريك للامبريالية الامريكية فى اهدافها .

كما كان يساويه فى السخف ما رده البعض فى القاهرة ان فى بغداد نظام شيوعى أو عميل للشيوعية أو شريك للاستعمار البريطانى وأهدافه فى المنطقة ، وكان هذا حكم المنطق والاسس الموضوعية ، وهذا ما أكدته السنوات القليلة اللاحقة . . ولكنها بحق فترة غير منطقية فى تاريخ المنطقة أو هكذا كانت تبدو لبعض العقلاء .

كان الزملاء قد بدءوا يفدون . . مجموعة الدقى والجيزة والاطراف المجاورة أولا . . سعيد عثمان والخطيب عباس وعبد العزيز فهمى وطاهر عبد الحكيم . . وكانت هناك اخبار غير عادية وخاصة على وجه طاهر الذى تشير ملامحه بالحزن والغموض .

وقبل ان أجد الفرصة لاتأكد كانت مجموعة مصر الجديدة والعباسية والحدائق قد وصلت ، وقالت عايدة ثابت وهى تضع حقيبتها وترمى جسدها على المقعد فى انهداد واضح :

— لقد قبضوا على عبد العظيم الليلة فى الفجر .
هكذا مع أول شعاع للعام الجديد الذى لم يكن قد انقضى على ميلاده بضع ساعات . . واستبد الصمت بالمجموعة ليسوا لانهم فوجئوا ، فلقد كانت المظاهر والاحداث فى فى الاسابيع الماضية تسير فى اتجاه يمكن أن يصل الى هذا الحد .

ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن تجرى الاحداث بمثل هذه السرعة ، بل ان الدكتور عبد العظيم نفسه كان قد قال لى صباح اليوم السابق :

اننى اتوقع ان يسود العقل فى النهاية فليس هناك مصلحة لاحد فى استمرار هذا الشقاق بين القوى الوطنية .

كان عبد العظيم متفائلا مثل كثيرين من قيادة الحركة الشيوعية المصرية فى تلك الفترة بل كانت البيانات التى

كانت يصدرها التنظيم الشيوعى سواء « مجموعة الاغلبية » بقيادة ابوسيف يوسف واسماعيل صبرى عبد الله ، وفؤاد مرسى ، أو « مجموعة الاقلية » (١) بقيادة كمال عبد الحليم وشهدى عطيه الشافعى تلتقى كلها حول ضرورة محاصرة الحلاف القائم بين القوى الوطنية وتعلن ثقتها فى أن عبد الناصر والقيادة الوطنية فى مصر ستدرك خطورة اتساع هوة هذا الحلاف الذى لن يستفيد منه سوى قوى الاستعمار والرجعية فى المنطقة .

والتف عدد من الزملاء والزميلات حول عايدة يستفسرون ويهدثون فى نفس الوقت من حالة الانهيار الكامل الذى بدا على ملامح وجهها الشاحب ، والتي فقدت زوجها أكثر من العمل ، وهى التى لم يكن قد مضى على زواجها أكثر من شهر .

ووجلت طاهر عبد الحكيم بوجهه الحزين القامض يدفع بيده ورقة طواها جيدا وتنازلت الورقة « لقد اعتقل فجر اليوم عدد كبير من الزملاء .. بهيج نصار وجميل عبد الشفيق وكل القيادات المركزية فى الحركة الشيوعية وعدد من العناصر الديمقراطية » .

وطويت الورقة فى صمت وبدأت فى ترجمة الاخبار .

(١) أحب أن أنوه هنا الى اننى استخدم تعبير الاقلية بالمعنى الكمي فقط فليست أحب ولم يمد من المصلحة الدخول فى تفاصيل حول هذا الموضوع والنهم التى تبادلها الفريقان لفترة .. فلقد كانت قناعتي ومازالت ان الخلافات من الفريقين لم يكن لها جذورا موضوعية ولقد اثبتت الاحداث صدق ذلك .

فلتركتها أولا تنفث لهيبتها
وتبتلع العالم حتى يمتلئ فمها
بالرماد ثم أخيرا ، ومن خلال
بقايا الحريق تأتي اللغزيلة .
(كازالتراكس — الاخوة الاعداء)

١٣ مارس ١٩٥٩

تجمعنا في مكتب مصطفى بهجت بدوى أو مصطفى بك كما
نسميه . والواقع ان هذا الضابط والشاعر الشاب الذى كان
يعمل مديرا للإدارة حاز وبشكل سريع تقنا .
وقد كان كل ما عرفه حين بدأت العمل في جريدة المساء
انه واحد من الضباط الشبان الذين شاركوا في حرب
فلسطين وتحمسوا لثورة يوليو كما كان يقرض الشعر وينشر
بين الحين والآخر بعض قصائده وخاصة في مجلة الاشتراكي
للاستاذ أحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكي « مصر الفتاة
سابقا » .

وكانت الفكرة الشائعة انه من أهل الثقة ، وان عبد الناصر
قد اختاره مديرا للإدارة في جريدة المساء ليكمل في الصورة
مع خالد محيى الدين ، ولكن هذه الصورة اختلفت بعض الشيء
بعد ان عملت معه لمدة عامين ، لقد عرفت فيه أولا وقبل كل
شيء الوطنى المتحمس الذى قد نختلف معه فى كثير أو قليل
ولكنك لايمكن ان تشك فى حماة الوطنى ، كما كان يتسم
بأدب شديد واخلاقيات « نظيفة » فى معاملته .
ولذلك وحينا أخذ « عم محرم » يمر علينا واحدا واحدا
ويهمس فى أذننا بأن « مصطفى بك » يريدنا ، كنا ندرك أو
على الأقل نحس بما هو قادم . فبالأمس صدر قرار بتعيين
الأستاذ مصطفى المستكاوى رئيسا لتحرير المساء بدلا من
خالد محيى الدين .

ووقف الرجل الطيب على مكتبه وعلى وجهه آلام حقيقية ،
وفي عينيه حزن غير مصطنع ، وقال وهو يجاهد ان يكون طبيعيا :

« آسف اذا كنت احمل لكم اخبار غير طيبة ، ولكنى على يقين من انكم تقدرون الظروف ، ولعلكم مثل تؤمنون بانها ظروف طارئة سرعان ماتنجلى على خير » .
وتوقف الرجل ثم فتح درج مكتبه وتناول عددا من الخطابات واخذ يمر علينا ويسلم لكل منا خطابه وهو يقول :
« لقد تعمدت ان اكون انا وليس غيرى الذى يسلمكم تلك الخطابات » .

وقبل ان نصرف قال مصطفى بك فى كلمات حماس « احب ان انقل لكم ان المسؤولين اكدوا لى ان هذا هو اقصى اجراء سيتخذ معكم .. وليس هناك اعتقال .. !! »
كان الرجل صادقا حقا فى نقل ماقالوه له ، ولكن ذلك لم يمنع بعضنا من ان يدرك السخرية الكامنة فى هذا الكلام .
وخرجنا ، ١٣ محرر ومحررة نحمل خطابات متهورة باسم مدير الادارة ورئيس التحرير ، تقول :

« بعد ان تقرر اعادة تنظيم جريدة المساء على اسس جديدة لذلك فلقد قررنا الاستغناء عن خدماتكم ابتداء من ١٣ مارس ١٩٥٩ .. الخ .. »

وذهبنا شبه طابور منتظم الى القسم الخارجى ، فقد كانت غالبية الدفعة المفصولة من هذا القسم ، وبدأ كل يفتش عن اوراقه الخاصة فى الادراج .

كان جوا غريبا ومثيرا .. وموحيا ايضا فلقد حسمت قضايا كثيرة طالما اقلقتنا فى تلك الشهور الثلاثة الماضية ، اى منذ اعتقالات اول يناير ١٩٥٩ ، بل ولا تتجاوز الحقيقة اذا قلت اننى احسست بالراحة بعد ان كنت اعيش دوامة حقيقية فى الفترة الماضية .

كانت الامور غامضة طوال تلك الفترة ، والاعصاب مشدودة .. تصبح على خبر وتبيت على خبر آخر (.) يتأكد فى يوم ان

هناك من يدبر مذبحة للشبيوعيين والقوى التقدمية ثم يصفو الجو في اليوم التالي ٠٠ والآراء تتضارب وتختلف وتقع في حيرة ، خالد محيي الدين يلتقي بجمال عبد الناصر ، ثم يؤكد ان الازمة حوصرت وان المعتقلين سيفرج عنهم ويشيع جو من التفاؤل ، بل وتلقى رسائل من زملائنا المعتقلين في القلعة كلها تفاؤل ، ولكن اخبار اليوم تشعل النار في مانشئاتها كل يوم .

وتمتلى صفحاتها الاولى باثارة غريبة بين القوى الوطنية ٠٠ ولكننا وبعد استرداد الانفاس في اعقاب حملة الاعتقالات الواسعة في اول يناير والتي شملت حوالى مائتين من القيادات الماركسية والديمقراطية ، بدأنا نرد ونوضح ونكتب مرة أخرى في اتجاه شجب كل المحاولات التي تبذل للوقعة بين القوى الوطنية .

وفي ٨ يناير ١٩٥٩ ، كتب خالد محيي الدين بمناسبة الاحتفال بعيد الجيش العراقي .

« لاشك ان خطاب عبد الكريم قاسم يريح قلب كل عربي ويقطع على ذوى الاغراض السيئة طريقهم ويحفظ وحدة الصف العربي في المعركة ضد الاستعمار ، ويثبت لنا كذب تلك الانباء التي كانت تروجها وكالات الانباء الغربية وصحفتهم وعملائهم » .

وفي ٢٨ يناير كتب خالد محيي الدين أيضا حول حديث الرئيس جمال عبد الناصر في التلفزيون البريطاني ، « ان الاستعمار العالمي بريطاني وأمريكي ، وغيره يريد ان يمسك صفو العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة ، والجمهورية العراقية، وعلينا نحن الشعوب العربية الانسمح لهذه المحاولات ان تنجح وان تفتح عيوننا » .

وابرزت المساء تصريحات الرئيس عبد الناصر ردا على سؤال مندوب التلفزيون البريطاني حول الموقف من الشيوعيين العرب قال الرئيس : « حينما أريد أن أبدى رأيي في نشاط الحزب الشيوعي السوري فاني أبدية هنا في

القاهرة ولا ابدية في اذاعة لندن ، لان الحزب الشيوعي السوري وغيره من الاحزاب الشيوعية العربية هم عرب اولاً ، ثم شيوعيون .

واصل خالد محيي الدين طوال تلك الفترة في كل المقالات الافتتاحية تأكيد ضرورة وأهمية وحدة الصف العربي والبحث عن نقط الالتقاء .

وكتب عبد العزيز فهمي في بابهِ الاسبوعي « السياسة في اسبوع » ، نفس المعاني ، وكتب زملاء كثيرون في هذا الاتجاه . . ليس في المساء فقط ، بل وفي الجمهورية وروز اليوسف .

وكتبت في هذه الفترة مقالين تحت عنوان : « الوحدة العربية بمعناها التقدمي » ، و « ظروف تمت فيها الوحدة » ، بمناسبة العيد الاول للوحدة المصرية السورية ، وقد عانيت بشرح المخاطر التي تتعرض لها حركة التحرير العربي ، وخاصة اذا غلبنا التناقضات الثانوية بين القوى الوطنية على التناقض الرئيسي القائم مع الاستعمار .

وقلت في مقال آخر ان اعدى اعداء الوحدة هم الذين يفضون العين عن الاخطاء ، بل ويصفقون لها . . ان كل حريص على الوحدة العربية لابد وان يطالب بان تتوفر لها الاسس الموضوعية ، لكي تبقى وتستمر ، فبالامر ليس مجرد انفعالة عاطفية فقط ، ولكنه يتعلق بمصير واماني عزيزة على كل عربي .

وطالبت بان يكون هناك اساس ديمقراطي سليم ومؤسسات جماهيرية وسياسية حقيقية ومعبرة عن حركة الجماهير لتلعب دوراً في دعم الوحدة حتى لاتصاب وحدتنا بنكسة .

وفي فبراير كان يبدو ان العقل والمنطق قد كسبا المعركة ، بان ذلك في عدد من المظاهر الواضحة مثل الخفيف من حدة الهجمات الاذاعية والاعلامية المتبادلة بين القاهرة ودمشق من ناحية ، وبغداد من ناحية أخرى ، وأصدر التنظيم الشيوعي في مصر - بجناحيه - بيانات بهذا المعنى ، بل وبدأت حملة جماهيرية لجمع التوقيعات من الكتاب والعناصر الوطنية

والديمقراطية تدعو الى وحدة الصف وحشد القوى ضد المؤامرات الاستعمارية والصهيونية ، وجاء خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة الذكرى الاولى للوحدة المصرية والسورية في ٢١ فبراير خطابا ايجابيا هادئا ليس فقط خاليا من اى هجوم على العراق ، بل انه اشاد بالعلاقات المصرية السوفيتية وبضرورة التضامن بين القوى الوطنية العربية ، وحذر من المؤامرات الاستعمارية .

كذلك فلقد أكد مجلس التضامن الاسيوى الافريقى ، وكذلك مؤتمر الشباب الاسيوى الافريقى اللذين انعقدا في القاهرة في فبراير على ضرورة وحدة الصف العربى ضد الاستعمار والصهيونية .

وفي العراق ايضا القى عبد الكريم قاسم خطابا رحب فيه باتصالات رسمية على مستوى كبير من المسئولية في الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية ، كما اصدر الحزب الشيوعى العراقى بيانا بهذا المعنى وبضرورة توحيد كل القوى صاحبة المصلحة في الوحدة والتقدم .

بل لقد شاعت اخبار فيها الكثير من الصحة عن اتصالات بين المسئولين في الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية بعضها دار في القاهرة وبعضها في بغداد أو بيروت واشترك فيها بعض الشخصيات العربية لتتقى الجو وتصفية الخلافات .

ولكن ايام فبراير الاخيرة حملت بالاضافة الى رياحها الباردة على غير العادة احدانا اخرى ليست باردة على اى حال ، بل كانت كفيلة بان تشعل النار في المنطقة كلها .

ففى خطاب لخروثيوف القاه فى موسكو جاءت فيه فقرة يرد بها على هجوم عبد الناصر على الشيوعيين والاتحاد السوفيتى في فترة سابقة تقول : « انه شاب حدث ، امامه ان يكتسب خبرة طويلة » كما أكد خروثيوف فى نفس الخطاب الدوافع الوطنية المختلفة لدى القادة الوطنيين ، وعلى رأسهم الرئيس جمال عبد الناصر .

وحذر من اى شقاق بين القوى الوطنية ، وان هناك دوائر

معينة تستخدم سلاح العداء للشيوعية للوقية بين القوى الوطنية العربية .

كان خطاب السكرتير الاول للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي في ذلك الوقت وبكل المعايير الموضوعية خطابا هادئا ، حاول فيه خروشوف ان يدافع عن موقف الاتحاد السوفيتي في مساعدة مصر ابان العدوان الثلاثي ومساندة الثورات العربية ، ولكنه لم يدخل في هجوم أو شتائم بل أعاد تأكيد استمرار الاتحاد السوفيتي في موقفه المساند للقوى الوطنية العربية وجهوده من أجل وحدة هذه القوى .

ولكن دوائر معينة تجاهلت كل ما جاء في الخطاب وركزت فقط على الفقرة التي وصف فيها عبد الناصر بأنه شاب حدث امامه ان يكتسب خبرة طويلة ، « وبدأت صحف اخبار اليوم وصوت العرب حملة عنيفة ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعيين وعلى رأسهم الشيوعيين العراقيين والسوريين وجارتها في هذا بعض الصحف الاخرى ، بل وبعض الاوساط التي كانت دائما في انتظار الفرصة ، بالرغم من ان الرئيس عبدالناصر أكد في رسالته التي بعث بها الى خروشوف بأنه لن يسمح بنجاح المحاولات لاساءة العلاقات بين البلدين .

● أما الحدث الثاني فهو انقلاب عبد الوهاب الشواف في الموصل في الاسبوع الاول من مارس . لقد كان هذا الحدث الذي انفجر فجأة قنبلة دمرت كل الجهود والمساعدات وبالتالي أي احلام كانت في مخيلتنا عن عودة وحدة الصف العربي والداخلي .

سارعت اجهزة الاعلام والصحافة من اللحظة الاولى الى التأييد المطلق للانقلاب ، ولعب حزب البعث وقيادته في ذلك الوقت دورا كبيرا في ذلك .

وخرجت الاخبار والاهرام بعناوين عريضة عن ثورة الشواف ضد الحكم القاسمي الشيوعي !! وأخذ احمد سعيد في صوت العرب يثر بطريقته البدائية « هيا يا عرب .. جهزوا عليهم ، الشيوعيون الملاحدة .. طهروا التراب والتراث .. اقتلوهم حيثما وجدتموهم .. الخ ..

كان من الواضح ان حزب البعث وجماعات القوميين العرب

فى ذلك الوقت وراء هذا الانقلاب فى الموصل ، وكان من الواضح أيضا وبعد عدة ساعات من وقوع الانقلاب انه فشل اذ قامت جماهير الفلاحين والعمال المسلحين بالزحف على الموصل ومحاصرة الشواف والفرقة التى كان يقودها .

وخرجت المساء بعد ذلك بعنوان يحمل الصورة الحقيقية ، وان كان قد مثل تناقضا صارخا مع صحف الصباح وما يذيعه راديو القاهرة ودمشق .

كان مانشيت المساء : « فشل انقلاب الشواف » ، كان المانشيت حقيقة ، ولكنه كان حقيقة مرة بالنسبة للآخرين .

وبدأت على الفور اشرس واعنف حملة شهدتها مصر ضد الشيوعيين والقوى الوطنية الديمقراطية . ونجح المخطط الاستعماري تماما .

وبدا واضحا ان القضية الحقيقية ليست ناصر او قاسم او الشواف او حتى حزب البعث ، بل ان الغرض الحقيقى هو ان تفرق الارض فى بحر من الدم والهستيريا ليس مع القوى الاستعمارية والرجعية ، بل بين القوى الوطنية نفسها . هذا ماتأكد لدى حينها ، وما اجزم به حاليا ، وارجو ان تكشف الوقائع عن ذلك (٠) ان انقلاب عبد الوهاب الشواف فى العراق دبر بأيد غير عربية ، وانه كان يستهدف نفس المحاولات والجهود التى كانت تبذل لتهدة الجو بين القاهرة وبغداد . ووجهت اخبار اليوم ومعا كل تلاميذ مدرسة الاثارة الفرصة الكاملة لاستعراض كل مواهبهم فى الاختلاق والتلفيق والاثارة وخاصة انه كان الطبعى ان يصاحب القضاء على انقلاب الشواف فى الموصل بمض العنف .

وخرجت الاخبار لتقول ان الشيوعيين يدوسون المصاحف ويقتلون رجال الدين ويسحلونهم فى الشوارع ويحطون المساجد ، وركزت اجهزة الدعاية على تلك النفة المجروحة وطالبت الاخبار بوضوح بأن تقام مذابح للشيوعيين ، ومن على شاكلتهم فى مصر وسوريا ، وبدأوا يدقون فى هذا الاتجاه (٠) وبمراجعة بسيطة لما كتبه الاخبار فى تلك الفترة سنجد ان

مصادرها كانت لمراحل اليونيتدبرس أو الاسوشيتدبرس
الامريكيتين .

وفي الفترة منذ فشل انقلاب الشواف حتى يوم ١٣ مارس
وهو اليوم الذي تسلمنا فيه خطابات الفصل من الصحيفة
كانت موجة العداء والهستريا تتزايد يوما بعد يوم ، ويقوم
اساتذة من المهيجين يتقنون جيدا جو الاثارة والوقية برسم
سيناريو يومي عن الشيوعيين الكفرة في بغداد والموصل
وكركوك وكيف يقتلون ويسحلون ويستحلون كل ما هو محرم .
وقد كان البعض يعتبرها جراءة غير عادية مني حينما ادخل
في مناقشة لأؤكد ان عبد الكريم قاسم ليس شيوعيا ، وان
الشيوعيين دعاة وحدة وطنية وسلام ، وليسوا دعاة قتل
وارهاب ، وان ماتنشره الاخبار وأخبار اليوم ويذيعه صوت
العرب فيه كثير من المبالغة وماخوذة عن تقارير يكتبها
مراسلون امريكيون معروفون بعدائهم للشعوب العربية .

ولكن يبدو انهم هم الآخرون في بغداد كان لديهم نفس
القوى التي تحاول اشعال النار لتأتي على كل شيء ، ويبدو أيضا
ان الحزب الشيوعي العراقي ، وخاصة بعد انقلاب الشواف
فقد جزءا من اتزانه وتعقله وترك نفسه ينزلق هو الآخر في
الحملة العصبية . وقد قدم الحزب بعد ذلك نقدا ذاتيا لبعض
النصرقات والاندفاعات في تلك الفترة . وقد التقيت بزميل
عراقي كان عضوا في الحزب الشيوعي في تلك الفترة وتحفظت
على كثير من آرائه واندفاعاته وخاصة فيما يتعلق بالثقفة
المطلقة الذي يعطيها الحزب لعبد الكريم قاسم والذي جعله
يرفع شعار « ماكو زعيم الاكريم » .

ويومها وكان معنا الزميل اسماعيل المهداوي قلت للزميل
العراقي : « أنا افهم ان هناك قوى وطنية قد تكون ضيقة الإفق
سواء في مصر أم في العراق ، وانها لا تعنى تماما مصلحتها ،
وافهم أيضا ، ان هناك قوى أخرى استعمارية او عميله
للاستعمار تزيد اللهب اشتعالا . ولكن الذي لا يمكن ان افهمه
أو اغفره انكم وانتم القوى الواعيه والمدركة والمسئولة
تنزلقون الى نفس الاساليب » .

ويومها قال الزميل المراتى :

- يبدو انك قد بدأت تتأثر بالدعاية البورجوازية .

وكان وجهه يقول كلاما آخر يتهمنى فيه باننى فى حالة خوف . وقد كنت خائفا حقا ، ليس من الاعتقال كما صور له وهمه الساذج ، أو من المضايقات التى يمكن ان نعانيها نحن الماركسيين والديمقراطيين المصريين ، ولكنه كان خائف من النوع العام، حينما تحس انك امام عاصفة تحركها قوى مجنونة وليس هناك مجال للعقل .

ولعله بعد سنوات طويلة من ذلك الحدث يتصح الى اى مدى كنت محقا فى هذا الخوف .

فلقد ذهب عبد الناصر بعد أن ادرك خطاه ، وحاول قدر لامكان اصلاحه وذهب عبد الكريم قاسم بعد ان انقلب على الشيوعيين ، ثم انقلب على نفسه حتى قتل .

وذهب كثير من القيادات البعثية والشيوعية والقومية ، ولكن كل هذه القوى ، الناصريون والشيوعيون والبعثيون والقوميون يتعرضون للهجوم اليوم من منطلق واحد، وتستخدم ضدهم نفس الاساليب والاتهامات التى كانوا يستخدمونها ضد بعضهم البعض . ولست مغاليا اذا قلت ان كل الدعاية والاتهامات المحمومة التى قيلت فى هذه الفترة كان ومازال لها اثارها على كل القوى الوطنية فى المنطقة .

لقد كانت اياما لها ما بعدها ، ولسنوات طويلة .

للم كل منا ورقه ، ولم يكن هناك فى الواقع ورق كثير ، ليلم ، فلقد كنا وباحساس الخطر الذى نعيشه فى الشهور الماضية قد نظفنا ادراجنا .

ووقف الاستاذ الحامولى ومعه عدد من الوافدين الجدد الذين جاءوا ليحلوا محلنا ليعبروا عن أسفهم ، وبأنها محنة سرعان ماتنتهى ، وضحك بعضنا مدعيا عدم الاهتمام ، وتجمعت مشروع دمة فى عيني وأنا ألقى نظرة أخيرة على المكتب لم وغادرنا مبنى الجريدة حوالى الحادية عشرة (٥) كلنا

ثلاثة عشر من محررى المساء من بينهم !نستين، وسيدة، ومررنا على دار أخبار اليوم فى الطريق ، ورفعت عينى أتأمل المبنى الذى كنت اراه يوميا فى الغدو والرواح ، بل واره من شباك الجريدة ، وكان كل زملاء والزميلات يفعلون نفس الشئ فى نفس اللحظة ، وربما دارت فى عقولهم مادار فى ذهنى من ان يوما سيجى، لتصبح هذه المؤسسة ملك للحقيقة لشعب مصر ، فلم اكن افهم لماذا ، ونحن على الاقل زملاء مهنة ، لماذا هذا الموقف الغريب والمعادى لاي رأى معارض الذى تتخذه الدار خطأ لها . لقد غفر لهم الشعب موقفهم المعادى له وللوفسد وانحيازهم للسراى ولاحزاب الاقلية التى كانت تحكم باسم الانجليز قبل الثورة . فلماذا لم يتعلموا الدرس .

وضحكت اميمة ابو النصر ، وكانت دائما مرحة ، وقالت فى خفة دم عصرت الابتسامات على وجوها :
- ما العمل افادكم الله ؟؟
وقال فيليب جلاب :

- ليس امامنا سوى ان نرسل برقيات الى مكتب العمل والى رئيس الجمهورية ، فهذا فصل تعسفى .
وقال طاهر عبد الحكيم :

- تشكو من من ؟؟ ولى ؟؟
وافتنى امير اسكندر :

- ومن يدرينا .. ربما كان الفصل مقدمة لاشياء اخرى ، واكد طاهر افتاء امير .. واضاف بالتأكيد كلنا مرشحون للاعتقال ، وعادت اميمة للتدخل بخفة دمها :

- فال الله ولا فالك .. لاتقل كلنا .. تكلم عن الرجال فقط .. فلم يعتقل فتيات فى مصر حتى الان .

وتدخلت قائلا :

- سواء اعتقلنا او لم نعتقل .. المهم ان نستنفذ الان كل الاجراءات الممكنة فيما يتعلق بالفصل التعسفى .
واقترحت ان نرسل بيانا لنقابة الصحفيين باعتبارها الجهة

المسئولة عنا ، ثم نذهب الى محامى ليدرس النواحي القانونية
فى المشكلة ، وسجن طاهر عبد الحكيم اعترضه على المنهج
الشكلى والقانونى الذى تتبعه ، وان كان قد صحبنا الى مكتب
الاستاذ احمد مجاهد المحامى .

وجلسنا بعض الوقت فى مكتب المحامى ، وشرحنا الموضوع
.. واخذ منا البيانات اللازمة ، وأكد أكثر من مرة أنها
قضية مكسوبة سلفا ، كما حفل حديثه بكلمات التشجيع ،
وتواعدنا على لقائه بعد أسبوع ، وعندما كنا نقادر المكتب
هرش احمد مجاهد بعض الشعر المتبقى فى مؤخرة رأسه
وهو يقول :

— افضل أن تعطونى توكيلا شاملا تحسبا للظروف .. ١١
وأدركننا ماذا يعنى ، بل كانت أعماقنا ممتلئة به ..
وغادرنا المكتب وكلنا قناعة بأن شيئا ما فى الطريق ..

- ٣ -

هناك وقع اقدام
جاءوا ليقتلعوا الزهرة
جاءوا ليدنسوا الطفل
يا للتعاسة والضجر •
(بول ابوار - قصائد حب)

٢٨ مارس ١٩٥٩

كنت متعبا للغاية في ذلك اليوم ، فبالاضافة الى اللف والدوران طيلة الاسبوعين الماضيين وسط جو عصبي هستيري يفتك بأعصاب الجمال هاجمتني الانفلونزا وبقسوة ..
فمنذ أن فصلنا في ١٣ مارس الماضي كانت الاحداث تتصاعد بدرجة خطيرة فتسلم عدد آخر من محرري جريدة المساء خطابات الفصل منهم : الدكتور حسين كمال الدين وعلى الشلقاني وعادل ثابت واسماعيل المهدي وعدلى برسوم . كما فصل عدد آخر من الكتاب الصحفيين التقديميين في عدد من المؤسسات الصحفية الاخرى •

كذلك حدثت بعض المظاهرات في الجامعة وفي شارع القصر العيني يقودها بعض الطلاب العرب من البعثيين والقوميين العرب تهتف بسقوط الشيوعيين ، وحاول بعض هؤلاء الطلاب العرب الذين تأكد للجميع بما فيهم السلطة المصرية بعد ذلك انهم في عاليبتهم المظلي عناصر مشبوهة ، الاعتداء على بعض الطلبة المصريين بدعوى أنهم شيوعيون •
وتصدى لهم الطلبة المصريين ومعهم ايضا عدد آخر من الطلاب العرب •

وفيما عدا هذه الاحداث العنيفة فيما عدا الحملات الهستيرية التي كانت تقودها اخبار اليوم وتدعو علنا لقتل وذبح العناصر النيمقراطية والماركسية تحت دعوى انهم يفعلون ذلك في العراق

- ٣٢ -

.. كان المواطن العادى المصرى يمضى فى حياته العادة مواصلا همومه ومناعبه وهو يهز رأسه وينسأل : لماذا كل تلك الضجة ؟

ولم يكن أحد وسط هذه الهستريا يقدم له تحليلا موضوعيا معنا لتفسر له هذا الانقلاب المفاجئ .

فمنذ فترة ليست بعيدة ، كان المواطن يسمع عن العدوان الثلاثى وعن وقعة الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الى جانب مصر وانذار بولجائين الذى اكتسب شعبية كبيرة لدرجة أن بعض العائلات فى الأحياء الشعبية مثل باب الشعرية وبوراق أطلقوا اسم بولجائين على أبنائهم .

ومنذ فترة ليست بعيدة سمع هذا المواطن عن مشروع ايزنهاور ومحاولات أمريكا للتيل من استقلال بلده وتدمير الانقلاب فى الاردن واثارة الشغرات الطائفية فى لبنان من اجل محاصرة الثورة المصرية .

ومنذ شهور فتط سمع هذا المواطن عن ثورة العراق واسقاط الملكية ونورى السعيد وزيارة جمال عبد الناصر لبغداد ثم لدمشق وسط طوفان من الترحيب الشعبى العربى الذى وصل الذروة فرحا بانتصار الثورة فى العراق وسقوط حلف بغداد . فما الذى حدث .. ولماذا ؟ حتى ننقلب الصورة رأسا على عقب ؟

ان أحدا من العاملين فى أجهزة الاعلام المصرية فى ذلك الوقت لم يجهد نفسه للإجابة على تلك الاسئلة بل غرقوا فى نوع من الدعاية والاثارة التى كانت فى أغلب الاحيان تاتى نتيجة عكسية .. ولعل المسؤولين انفسهم قد أحسوا بذلك وحاولوا أن يوقفوه . فبالاضافة الى ماكانت تكتبه أخبار اليوم فى ذلك الوقت الذى كان فى حقيقته تحريضا على سفك الدماء وتوسيعا لهوة الخلافات بين الاشقاء كتب أحد الصحفيين المصريين العاملين فى جريدة الجمهورية «رع» مقالا صوز الخلاف كله من وجهة نظره شذوذ جنسى انهم به يهمن القادة العرب . ولقد منع هذا الصحفى من الكتابة بأمر من الرئيس جمال عبد الناصر صبيحة اليوم الذى ظهرت فيه مقالته .

ووسلك هذا كله خرجت مجلة «طريق الشعب» في الاسبوع
الآخر من مارس التي يصدرها الشيوعيون المصريون لتدعو
مرة أخرى الى وحدة الصف الوطني ولتدين كل من يسعى الى
زيادة شقة الخلاف بين القوى الوطنية الحاكمة سواء في القاهرة
أو بغداد وتطالب بوقف الحملات المتبادلة وتوجيه الجهد
والليقظة ازاء المؤامرة الاستعمارية والرجعية التي تستهدف
اسقاط الحكم الوطني في البلدان ٠ (١)

ولم أتحمس في حياتي لشيء قدر حماسي لهذا العدد من
طريق الشعب ، كنت أحس انه صوت عاقل وصارخ ٠٠ في
البريه ٠٠ وأخذت أوزعه بشكل شبه علني في الاتوبيسات
٠٠ وعلى المقاهي ٠٠ يملؤني احساس بأن العقل قد يسود
ولكني كنت فيما يبدو كمن يحاول أن يوقف الطوفان بيديه ٠
كان أبى قد جاء الى القاهرة بعد أن سمع بفصلي - وكم
كانت صدمة قاسية له وهو الذي كان يرى في عملي الصحفي
بعض العزاء عن فقدان أخى الأكبر - وحاول أن يقنعني بأن
أذهب معه الى القرية حتى تمر العاصفة ٠ وحينما رفضت
حاول ان يهددني بقطع المصروف بعد أن أصبحت بلا عمل ٠٠
وحينما جلست صامتاً وغاضباً قام الرجل الطيب والذي أحيل
الى المعاش منذ شهر واحد واحتضنني وهو يقول :-

لا تحزن ٠٠ شدة وتزول ٠٠ وان شاء الله هترجع تانى
وتكتب ٠٠ بس خالى بالك من نفسك ٠
وتناولت الغذاء مع هذا الأب والصديق الذي كان يعمل حتى
شهر مضى ناظراً لمدرسة القرية الابتدائية والذي تلقى علومه
في الازهر وعاش تقياً متديناً لا يترك فرضاً ٠ يوم الصلاة في
الجامع ويلقى خطب الجمعة ويلجأ أهل القرية اليه في خلافاتهم
ومشاكلهم قبل أن يلجأوا الى العمدة ٠

(١) لابد ان اسجل في هذا الصددان موقف اخبار اليوم والصحف الاخرى
لم يكن يعنى انه كان هناك كتساب وصحفيين غير ماركسيين رفضوا ان
يساهموا في تلك الحملة القذرة المسمومة كامل زهير ٠

كان أبى يحرص دائما على مناقشتى طوال تلك السنين الماضية فيما أكتب وأقول .. وكان فى البداية ، خاصة أيام الجامعة ، يتخذ دائما موقف الاب الحريص على ابنه فريده بعيدا عن المشاكل . ولكنه فى نفس الوقت لم يكن يخفى إعجابه وتقديره لعناد ابنه والأفكار التى يرودها عن الاشتراكية والعدالة وتوفير حياة انسانية للفلاحين فى القرية وفى كل قرى مصر وكان ينهى دائما مناقشاته معى قائلا : -
كل دا كويس وعظيم .. لكن ياابنى كن تستطيع ان تغير الكون .. وحدك .
- لست حدى .

فيقول مبتسما وقلقا فى نفس الوقت :-

ربنا معاكم .. والله انتو بتلكرونى بالمسلمين الاوائل وارتباطهم بالعقيدة الصحيحة .. انكم تحملون سيف أبى ذر . وكانت كلماته دفعات حانية وقوية . بل لاأكون مغاليا حين أقر أن هذا الاب والصديق المؤمن بحق كان أحد الذين دفعونى دفعا الى الايمان بالاشتراكية . دون أن يدري .

بل انى مازلت أذكر وقد كنت فى الثقافة العامة حين أخذ يحكى لى ونحن نجتمع حول «موقد النار» بحثا عن الدفء فى ليلة من الليالى الباردة تاريخ حياة أبى ذر الغفارى أحد اصحاب الرسول وزهده وتقشفه ودفاعه عن الحق والمساواة بين الناس الى أن مات فى احدى البرارى وحيدا شريدا بين ذراعى امرأته العجوز . وقد تجمعت الدموع فى عيني وعين أختى الصغرى بل وأخذت أمى تبكى بحرقة بالغة . وقبل أن أقرأ بعد ذلك كلمة عن الاشتراكية وصراع الطبقات كانت كلمات أبى ذر الغفارى تملأ رأسى بأحلام انسانية واسعة يعمقها حياتى فى القرية .
وكنت أتصوره دائما ببشرته السمراء وعينييه المدعججين وجبهته العريضة ووراء جموع الفلاحين من أهل قريتنا يحملون السيوف تنفيذًا لكلماته الماثورة «عجبت لرجل لايجد قوت يومه ولا يخرج على الناس شاهرا سيفه» .

وقبل أن يفادر أبى القاهرة هذه المرة قال وهو يحتضننى عند محطة اتوبس المنصورة فى صوت مبلل بالدموع :

يا بني لا تنسى انه أبيض ذر مات وحيدا وشريدا في الصحراء •



كان أمامي في ذلك اليوم عدة مشاوير فقد كان على ان امر على المحامي لأعرف مصير القضية ، كما كان من المقروض ان أذهب الى نقابة الصحفيين لأسأل عن الشكوى التي تقدمنا بها بعد فصلنا ، ولكن الانفلونزا اللينة والدوار المستمر في الرأس المصحوب برعشة داخلية أقتعاني بضرورة الذهاب الى البيت ••

ودون ان أقول كلمة لأختي وزوجها اللذين كنت اقيم معهما دخلت الى حجرتي وألقيت نفسي على السرير •

وجاءت أختي خلفي وتحسست جبهتي التي كانت مشتعلة

بالتاكيد وصرخت في دُعر :

- ياخير دانت نار •• مالك •

- شوية برد •

- أعطى لك شاي •

- أنا أخذت اسبرين •• لما أناام هرتاح •

وجاء سامح ابن أختي الصغير الذي لايتجاوز الرابعة وحاول أن ينام بجانبى كمادته ولكنى طلبت من أمه أن تأخذه معها خوفا عليه من الانفلونزا •• ولكن الصغير أصر وتكور في حضني ورفض كل محاولات الاغراء والتهديد التي بذلتها معه أمه ••

وطلبت من أختي ان توقظني في العاشرة مساء قبل أن تنام فلقد كان من عادتي ان ابدا سهرتي في الكتب بعد تلك الساعة •• وغمت •• نوما طويلا لأحس فيه بشيء •• دون آلام ودون أحلام •

وحينما أخذت اتقلب على هزات يد أختي وصوتها القادم من بعيد وهي توقظني كنت أتصور ان الساعة قد أصبحت العاشرة وأخذت أتأمل وأطلب منها أن تتركني ساعة أخرى •• ولكنها عادت تهزني في رفق وفي صوت باك •• وافقت على دعة ساخنة تسقط على جبهتي ••

وقمت أدعك عيني وأنظر حول لارى الغرفة قد امتلأت
بعدد من الملابس الصفراء ٠٠ كانت أختي تقف الى جوار السرير
وبجانبتها زوجها وورائهما اربعة من الوجوه الغريبة ينظرون
الى بتركيز غريب ٠٠ ودعكت رأسى بعنف متصورا اننى احلم
ولكن شهقة باكية من أختي جعلتني أعيش الواقع وأدركه بكل
تفاصيله ٠

اذن فقد جاءوا ٠٠

كان فى الغرفة اربعة منهم اثنان يلبسان الملابس العسكرية
وآخران يرتديان الملابس البلدية بالكوفية والطاقيّة التقليدية
٠٠ وعلى باب الغرفة وقف ضابط فى لون البن المحروق
يشاهد المنظر فى هدوء ٠

وبقيت وسط السرير وأخذت اجول بنظري بينهم وكأننى
أشهد فيلما صامتا ونحيب أختي تقوم بدور الموسيقى
التصويرية ٠ نفس الوجوه التى سمعت عنها كثيرا جمود
وبلاذة وتحفز ٠٠ عيون بعضهم كعيون الصقر تلتقى بها فلا
تجفل أما الضابط فقد كان يتلاشى دائما نظراتى ٠٠ وابتسمت
فلطالما حكى لى جميل عبد الشفيق عن هذا المنظر كثيرا فى
تجاربه السابقة كان يقول «انهم يطبون فى الفجر كأنقضاء
المستعجل وليس هناك من بد سوى أن يكون الانسان وانقا
من نفسه امامهم ، وتذكرت كل هذا فى لحظات ثم وثبت فى خفة
غريبة الى وسط الغرفة ونسيت المرض بل وأحسست بقوة
طارئة تمدنى بطاقة وتفرينى بأن أكم أحدهم فى فكه ٠

وقلت : أفندم !!

وتقدم الضابط الاسمر الممتلئ ٠

– الصاغ أحمد صالح داود من المباحث العامة ٠
وقبل ان أسأل تقدم وقد أدرك ماأعنى وقدم مايبث شخصيته

ثم أريد فى لهجة حاول ان يكون فيها مهذبا ٠

– معى أمر باصطحابك وبالتفتيش ٠

– من النيابة ٠

– من الجهات المختصة ٠٠

— الجهات المختصة التي اعرفها هي النيابة .
 وقلل من محاولاته المهذبة وقال في صوت صارم :
 — أستاذ لاداعي لهذا الجدل .. فانت تعلم جيدا الظروف .
 هناك قرار جمهوري .. ولم يضع لحظة واعطى امره بالتفتيش
 — وانتشر ثلاثة من الاربعة في الشقة بينما وقف الى جانبي
 شاويش ممثلي بشوارب كثة وملامح قاسية واتجه الضابط
 الى مكتبي واخذ يقلب في بعض الكتب . وابتسمت مرة أخرى
 وقلت عن ماذا تفتش ؟ واجاب دون ان يلتفت الى : مجرد اجراء
 روتيني ثم أمسك بمصحف في يده التقطه من المكتب وكانه
 عثر على شيء لم يكن يتوقعه .

• ووضع المصحف مكانه وهو يحاول ان يبتسم
 وقال : غريب هيه .. يمكن أطلع اخوان مسلمين ؟
 فيه منشورات .. فيه كتب ماركسية .
 قلت : منشورات لا .. لكن كتب ماركسية طبعاً .
 وهل هناك مثقف واحد في العالم تخلو مكتبته من الكتب
 الماركسية .

وسمعت صرخة عالية لأختي تأتي من الحجرة المجاورة . . .
 وغلى الدم في عروقي وكنت أنشب أظافري في رقبة الضابط
 الذي امتنع وجهه فجأة ، ثم اندفعت الى حجرة أختي وورائي
 الشاويش والضابط .

وكان كل شيء مقلوبا في الغرفة ، محتويات الدولاب
 والملابس ملقاة على الأرض وفي أي مكان ومرتبة مقلوبة وأخرى
 مشقوقة بالطول والمخبر الملكي يعبث بالقطن ويرمي في كل
 مكان وأختي تصرخ وتسب وتلعن . وأمسكت يد المخبر
 ودفعته تمهيدا للانقضاء عليه
 كان الهدوء الذي التزمته به من البداية يخفي وراءه ، كل
 توترات الموقف .

وأحس الضابط بالموقف المتفجر الذي قد يسفر عن معركة
 سيكون فيها هو الخاسر فلقد كانت التعليمات لديه محددة .
 • القبض في الفجر وبدون اثاره أي ضجة .
 ووقف الضابط بيني وبين المخبر ولكنزه في جنبه ونهره

ببضع كلمات ، ثم أخذ يعتذر لأختي التي وصلت في حالة
هياج شديد وأخذت تلعنهم وتلعن مهمتهم وتدافع عن أخيها .
والغريب ان هذه الأخت الطيبة التي لم تشغل نفسها في
يوم من الايام بالسياسة والتي كانت تحذر في دائما من المخاطر
اندفعت الكلمات من لسانها كما تندفع طلقات المدفع الرشاش
« انتو ظلمه .. عاوزين اخويا ليه .. اخويا مع الحق مع
الناس ، وكل الى بيقوله صح ، بكره هتشوفوا وهيحبلكوا
يوم » .

كان صوتها يعلو ويعلومدويا في صمت ساعات الفجر الاولى .
واستيقظ سامح الصغير على صوت أمه وجاء يفرك في عينيه
ويبكي .. وأحسست كما لابد وان يكون قد أحس الضابط
ان بعض الشبابيك في العمارة والمجاورة قد فتحت .
وحاول الضابط بكل مايستطيع أن يهديء الموقف ، ولكن
عيار أختي كان قد انفلت ، ولم يعد في قدرة أحد ان
يسكته .

وطلب منى الصاغ صالح داود أن اندخل لان الموقف
سيتعد هكذا .. وأخذ يرجوني ، بل ويتوسل الى ان تسكت
أختي أو على الأقل تخفض صوتها .. وأخذ يؤكد انها مهمة
سخيفة ولكن الاوامر .. !!

هكذا .. يخافون حتى من الصوت العالي ؟؟
وأخذت أختي بين يدي أهدى من ثورتها التي بدأت
تدخل في تشنج مرتعش ، وصرخت في الضابط والجنود الذين
اصطفوا خلفي :

— مادمتم تعرفون ان مهمتكم سخيفة ، فلماذا لاتلتزمون
الادب على الأقل ؟؟

وجلست أختي على كنبه بجوار السرير واضعة رأسها
بين يديها وهي تشهق وتنتحب ، بينما حمل زوجها سامح
الصغير الذي كانت عيناه تعكسان خيرة المتفرج الصغير على
مسرحية لايفهم مقزها ، واندفعت أنا الى شتلة صغيرة اضع
فيها بعض الملابس كما ارتديت بدلتى على عجل لاهرب من
هذا الموقف الذي لم اعد احتمله .. حقيقة لم اعد احتمل .

وتمالكت أعصابى ووقفت فى الصالة ممسكا بالشنطة .
أنا جاهز ..
وحاول الضابط ان يؤكد ان الامر بسيط واننى ساعود
اليوم الى البيت ، وربما بعد ساعتين . ولكنى لم اعد احتمل
كل ذلك السخف .
وصرخت بصوت أعلى :

— من فضلك ياللا أنا جاهز وفتحت باب الشقة
وارتمت اختى على الارض تصرخ وصرخ معها سامح :
— آجى معاك ياخالى ؟؟
وكنت اقفز درجات السلم حتى لا اسمع كان الموقف
قد تحول الى « ميلودراما » وكنت اريد ان اظل متماسكا
وطوال هبوط السلم أو هرولتى عليه ومن خلفى الضابط
والعساكر والمخبرين كانت الشقق المفتوحة تنطق بكلمات
خاطفة على لسان صاحب الشقة أو زوجته أو ابنه .. واذنى
تلتقط وسط كل هذا الطوفان :
— ربنا معاك ..

وبدون استئذان فتحت باب العربة السوداء الفاحرة التى
كانت تنتظر أسفل العمارة وجلست الى جانب السائق
وفى الحلف جلس الصاغ ومعه جندى .

اما الثلاثة الباقون فقد ركبوا « بوكس » كان فى الانتظار
.. وتحرك الركب سريعا .. وخيوط الصباح الاولى تبدو
فى الافق عند سطح النيل القريب .. وعم مدبولى صاحب
محل الحردوات فى العمارة يفتح دكانه ويدفع الباب الصاج
بيده ، وباليه الاخرى يحاول أن يقول .. ربنا معاك .

- { -

هذه ارادة الله ، فالله يقول لنا
لتصبحوا بشرا ، كفى تعلقا
باطراف ثوبي كالاطفال
الصغار .. انهضوا وتعلموا
كيف تمشون ... وحدكم تماما .
كازانراكس - الاخوة الاعداء

٢٨ مارس ١٩٥٩ .. صباحا .

كانت القاهرة قد بدأت تتنأب ونمطي استعدادا لليقظة
ودارت بنا العربية اللموزين السوداء ووراءها البوكس الاغبر
في اتجاه شارع الكورنيش فجاردن سيتي ثم مبني المباحث
العامة في لاطوغل .. وأمام المبني كانت هناك حركة غير عادية ،
عرباب كثيرة تقف وأخرى تنطلق ومجموعات تخرج بحراسة
وأخرى تدخل بحراسة أيضا .
وحيثما كنت أرتقي السلالم العريضة للمبني ، وأمامي
الضابط ، وورائي الشاويش لمحت آخر يهبط وفي يديه قيد
حديدى ، وتعنرت قدمه فجأة فسقط على الارض ، ثم قام
بمساعدة الحارس ليفتش عن نظارته .
واندفعت نحوه اعطيه النظارة التى كانت قد قفزت الى
جانبي ..

- سلامتكم يادكتور ... خير :

ونظر الى الدكتور لويس عوض استاذى فى كلية الاداب
وهز رأسه فى صمت ، ثم مضى مع حارسه .
صعدنا الى الدور الاول ، وكان المبني الصغير يشغى
بالحركة والناس جنود وضباط ومخبرين .. معتقلين مثل
يحملون شنطهم ، وفي يد البعض القيد الحديدى ، والاخرين
لم يستكملوا الاجراءات مثل ... واكتشفت حقيقة أخرى
هى ان الضابط الذى القى القبض على شخص هام فى ذلك

المبنى، فالكل يحويه باحترام شديد بما في ذلك الضباط وعرفت
أن أحمد بك « كما ينادونه » هو رئيس قسم مكافحة الشيوعية
في المباحث العامة وانتابني شيء من الفزور . . . وكان الرجل
والحق يقال يعرف عمله جيدا فهو متمرس وله خبره واسعة
قديمة تمتد الى عهد الملك . . . وربما كان ذلك السبب في
تصرفاته معي التي حاول ان تكون مهذبة قدر الامكان في حين
انني سمعت بعد ذلك ان بعض الضباط الذين اشتركوا في
حملة الاعتقالات تلك الليلة تسبب في كثير من الاشتباكات
نتيجة رعونتهم وصلفهم .

واستكملنا بعض الاجراءات الضرورية فيما يبدو ، من
تصوير أمامي وجانبى وملا بعض البيانات في كارت أصفر .
ومضى كل شيء هادئا مع تغيير نسبي في أسلوب أحمد
بك الذي بدأت لهجته تتخذ طابع الاوامر الحازمة . . .
وكان التعليق الوحيد الذي قاله وأنا أسسله كارت
البيانات :

« يا ه دانت صفيق قوي ٢٣ سنة بهس . . . أنت طالب ٩٩
.. لا . . . تخرجت منذ ثلاث سنوات . . .
وقال وهو ينظر الى ملفي فرأى يد . . . شريفة . . . التقاويز
عندك نقره انك خطير . . . وسجل اسمك السياسي في
منطقة بلات . . . أيضا من المدحفين في التنظيم . . .
ينابر . . .
وابتسم كلينا في سمعت . . . وان كان مفزى الابتسامتين
تختلف تماما . . .

كنت ابتسم في سخرية واعتزاز . . . وكانت ابتسامته
ترجى بعض خيبة الامل لا تخلص من تقدير . . . وضغط على
زر بجواره وطلب ضابطا معينا ، حضر اليه في دقائق وأسر
اليه بعض الكلمات ، ثم قال دون ان يرفع رأسه من
الكتيب :

« مع السلامه يا . . . استاذ . . .
وتخرجت مع الضابط الشاب والشاويش . . .
كانت اندوار الصباح نشسر وتنفس الدون الدائن من

الشوارع والعمارات .. كما كانت الشوارع هذه المرة عامرة
ببعض المارة وبحركة الترام ... وركبت البوكس في الحلف
والى جوارى الشاويش وفى معصمى القيد الحديدي الذى أمر
به الضابط الشاب ...

وانطلق البوكس مارا بميدان عابدين ثم ميدان العتبة
وقفنا أمام قسم الموسكى ... ونزل ثلاثنا ، وسأل ضابط
المباحث عن المأمور ، ولما لم يجده قال للضابط النوبتجى :
- خذ هذا عندك لحين الطلب .

وبرغم ان الضابط النوبتجى كان برتبة يوزباشى فى حين
كان ضابط المباحث برتبة ملازم الا أن الأخير جلس على
كرسى المأمور فى حين ظل ضابط القسم واقفا ، بل وكانت
يديه ترتعد وهو يستوفى إجراءاته .

وأخذت كرسيها كان بجوارى ورميت بجسدى فوقه ، وقد
احسست فجأة بتيارات المرض والاجهاد تنال من جسدى
وصرخ ضابط المباحث :
- قوم يامسجون .. قوم ..

وتلفت حولى فلقد حسبت انه يأمر انسانا آخر ..
وعاد يقول والشرر يتطاير من عينيه الضيقتين ويشير
بعضاه صغيرة فى يده :

- أنت ... أنت .. يا ولد أنت .. قوم .
- أنا لست وله .. ولست مسجون .
ولم اقم .. !!

ومضت لحظات .. طويلة وممدودة ، وعينى فى عين ضابط
المباحث ، وقد نسيت مرة أخرى المرض والارهاق فى حين كان
ضابط القسم ينتقل ببصره بسرعة بيننا فى حيرة ، أما
الجوايش فلقد وقف متحفزا بجوارى ويده اليسرى شبيه
مدودة استعدادا للصفع أو الضرب .

ولم يكن هناك مخرج فيما يبدو ... وبدأت أعد نفسي
لصدام كنت على استعداد له . وكان اليقين الذى غمرنى هو
انى لن اخسر شيئا ، فماذا بعد القيود الحديدية ؟؟ ان كل
شئ يتضائل بعد ذلك ولا تنتظر من انسان يحب الحياة حقا

ان يتردد فى الوصول الى آخر مدى طالما فقد حريته الغالية . .
 كان هذا هو الشعور الذى يملكنى وانعكس فى نظرنى
 النابتة على ضابط المباحث الذى أخذ يضرب بعصاه على
 المكنت فى رتابة ووجهه يفيض بتياراب العنف والغضب (٠)
 وفتح الباب فجأة . . دخل مأمور القسم . . لم أكن اعرف
 بالضبط ماذا سيحدث لو لم يدخل المأمور البدين ليملا المرفة
 بالضحكات والقفشات والترجيح ليس فقط بضابط المباحث
 . . بل بى أيضا شئ واحد كنت اعرفه هو أنى على
 استعداد لان اذهب الى آخر مدى . .

وانتهت عملية التسليم وقبل ان يخرج ضابط المباحث
 دمفنى بنظرة حاول ان يقول فيها اشياء كبيرة ، ثم قال :
 - دا معتقل شيوعى خطير . . لابد من التحفظ عليه
 بشدة ويوضح وحده يا حضرة المأمور وخرج ومعه
 الجاوبش وبسبب ان يفتح الباب بسف . . وكأننا ارتاح الجميع
 من كابوس بديل ، وبان ذلك على وجه المأمور الضاحك الذى
 بدت تتركه من يديه على المكنت نسم عن ذلك . . وقال ضابط
 اللسم بعد أن استرد انفاسه من الورطة التى وجد نفسه
 فيها بصوت مسموع :

احنا مالنا ومال المعتقلين يا افندم . . هنوديه فين دلوفى
 الحجز كله ملبان .
 وقال المأمور دون ان يفقد روحه الخفيفة .
 - حجز النساء اخباره ايه ١١٩
 - فيه اثنتين قدام وايراد جلدب النهارده الفجر .
 وأشار المأمور الى :
 - حطه مهاهم . .

ثم غمر بعينه وضحك بصوت عال . .
 - ابسط باعم حبسه حلوه دبك وثلاث برابر .
 ودخل الحرة واغلق العسكرى الباب بمفتاح غليظ . .
 ووقعت انامل الغرفة المظلمة كان كل شئ معتما ساكنا . .
 وكوة صغيرة فى أعلى الجدار المقابل للباب تسرب منها بعض
 ضوء النهار الوليد ويتبدد على الجدران العلوية دون ان يكون

له انعكاس في الداخل وأيضا بعض صجة للشارع المجاور .
وأخذت انحسرت بيدي الجدار المحاور للباب ولما لم أجد أحدا
وضعت شنتطتي على الأرض وجلست فوقها ومددت رجلي في
حذر - خوفا من أن تصتطدم بأحد ثم اسندت رأسي على الحائط
وانحسست ببعض الارنياح . . . وبدأت التفت انعاسي .

كانت الساعات الخمس الماضية بكل أحداثها وتوتراتها
تساوي حقبة زمنية كاملة عشتها بأعصابي وبذهني وبمريض
لحظة بلحظة . . . وأخذت تمر في خيالي المنهك بسرعة وبنداخل
غريب كأنها هناك أكثر من شريط سينمائي يعرض داخل
رأسي في وقت واحد . . . الوجوه الغريبة التي تطل على
سريري ، صرخة اختي ، بكاء سامع الصغير ، وصوت عجلات
الموزين وهي تجري على الكورنيش . . . نظارة الدكتور لويس
عوضي على سلم مبنى المباحث . . . القيد الحديدي . . . بينا في
القرية ، شجرة التوت ، أمه ، وجه أختي الأخت الذي سألت منذ
سنتين . . . أبي يرتدي بدله ودمر بتميم بايات السران . . .
أمي وهي تصر على أن اشرب الشاي باللبن في الصباح . . .
حالي وهو يتوعدني أن لم أكف عن شقاوتي الرائدة ، عم أحمد
عجور الغريبة وهو يحكي لنا قصص العفاريت والغيلان على
المصطبة .

ورحت في عالم غريب . . . خليط من الحاضر والماضي
لاهو بالليظة الكاملة ولا هو باليوم الكامل كأنما نام نصفي
وبقي نصف آخر يعني أنه في زنزانة مغلقة وسمعت صوفا
انويا يهمس قريبا مني .

- دا نام كثير قوى . . الساعة بقت اثنا عشر . . . إيه
حكايته ؟؟
وقال صوت انثوي آخر :

- تلاقيه كان سكران طينه خدوه محضر تشرد .
- لا ياشيخه دامعاه شنتطه ولايس بدله وبأين عليه ابن
ناس .
- صلي على أبو فاطمة . . هو فيه ابن ناس يترمي هنا !!
وفتحت عيناي .

كانت تفاصيل الزنزانة واضحة تماما .. وعلى مقربة منى
فتانان تجلسان باسترخاء حاولت احدهما ان تبتسم حين
نظرت اليهما ، وهناك في الطرف الاخر وعلى مقربة منى ايضا
اخرى متدثره فى معطف يضع رأسها بين يديها ومستندة على
شئطة ملابس كبيرة ويبدو انها غائبة عن المكان والزمان ..
ثم جدران عالية ضياء تكشف بقع الشمس التي تسربت خلال
النافذة الضيقة من انها مصابة برطوبة مزمنة اسقطت اغلب
الطلاء .

واشعلت سيجارة .

وقالت احدى الفتاتين : الى يشرب لوحده يشرق .
وقدمت لهما علبة السجائر وتناولت اصفرهن سيجارتين
يلهفة شديدة واشعلتهما على الفور ، ثم اعطت واحدة
لزميلاتها وهي تخرج نفسها طويلا مصحوبا بزفرة حارة .
- ياه اربعة وعشرين ساعة مشربتش سجائر .. انت جيت
لنا من الـ ...

بكذا اربلننى السماء اهذه الفتاة الحرمان والحلوة ايضا
.. ليست مهمة تستحق ...
واستطردت الصغيرة :

- أنا نبرمين راقصة فى الباريزيانا ، وسـ... سونيا زميلتي ،
أحنا معروفين ومشهورين قوى وتوقفت ساظة ثم قالت :
- والله أقولك .. أنا اسمى الحقيقى نوال ودى سمعديه
مسكننا الاداب واحنا بنرقص فى الباريزيانا ... آى والله .
وعادت لتتوقف ثم تستطرد :

- بالحق بالحق احنا بنشتغل فى الصالة رحنا مع واحد
زبون فى شقته كبست الاداب وسبوه هو وخدوننا أحنا مع
انه هو الى غرر بينا ، واخرجت ضحكة نصف ساخرة ونصف
ماجونة ثم استطردت .. مش عارفه البلد دى ماشيه ازاي ..
ماهو يابقي فيه غلط بامفيش غلط .. طيب يسبيوا الرجل
وياخدوا الست ليه .. وأخذت نفسها اخر اعتصرت فيه
السيجارة .. ثم التفتت الى فجأة :

- قوللى .. انت ايه ومنى وعلشان .. ساينى ادش من
الصبح وأحكى لك على كل حاجه وأنت ساكت كما أبو الهول
.. متكونش مخبر ؟؟

وفرضت الابتسامة نفسها على وجهي ..

كانت الفساء علباوية فعلا .. وخفيفة الدم أيضا ، ولم يكن
من الصعب ان يستشف الانسان من وجهها المريح وعيونها
المتألقة انها من هذا النوع المحب للحياة .
وأشارت زميلتها التي تميل الى البدانة :
- الله دا بيعرف يضحك !!!

واتسعت ابتسامتي وتحولت الى ضحكة لها صوت
قالت التي هي أميل الى البدانة والكبر ..
- هجام .. نشال .. ولاتهرب مخدرات .
قاطعتها خفيفة الدم متألقة العينين :
- لا دا لازم من طبقتنا .. برمجي .. بتاع صلات
ولا شقق ولا ..
وكنت لابد ان ادخل بسرعه : لا معتقل .. معتقل
سياسي ..
وسكنت خفيفة الدم ، وبان على وجهها عدم الفهم او عدم
التصديق ، أو الاثنين معا ..
وقالت الاكبر بدانة وفد وجدت فرصة لتفوق بها على
زميلتها ولو مرة :
- سياسي ..

آه شفهم في الحبسه الى فانت .. ربنا يكفينا الشر
دا احنا تهجتنا اخف .
قالت الاخرى وقد اكتشفت شيئا جديدا :
- يعني ايه ..

- السياسيين دول بيروحوا وراء الشمس .. دول الى بقى
حطين راسهم براس الحكومه .. ربنا يديم علينا بوليس الاداب
دا نعمه ..

ثم بدأت تحكي لها ذكرياتها القديمة عن المسجونين
السياسيين في القناطر وسجن مصر ، وفي صوت نعدمت أن
تنخفضه لكى لا يصل الى مسامعي .. بينما كنت أنا أغرق
مرة أخرى في بحر من ذكريات الامس .

وانتبهت على المفتاح الغليظ وهو يدوى فى الباب ، ثم
صوت الجاويش :

- ثريا حبشى ... المعقلة الى جاب الفجر فين ..
وجاء صوت السيدة التى كانت تجلس فى الجانب الآخر من
الرنزانة

- ايوه ياشاويش ... فيه ايه .
- جهزى حاجتك .. البوكس وصل ... خمس
دقائق ..

- على فين ..
- يمكن القناطر ... الله اعلم ..
ثم التفت ناحية العتاتين وقال :
- الطاهر انتو هتشرفونا الليلة كمان .. حتى السجى
مسالش عنكوا واعلق الرنزانة .
قلت بصوت عال :

- مدام ثريا .. روحه المهندس فوزى حبشى .
- ايوه .. مين حضريك ؟؟
- صحفى بجريدة المساء ..
- اهلا .. فوزى كلمنى عنك كثير .
ونقدت ناحيتها اسلم عليها بحرارة واساعدها فى الملمة
حاجياتها .. وفوجئت بان وجهها بكتس بسنار من الحزن
الكيف وعيناها زائعتان بشكل غير عادى ، تكاد بحس فيها
ايها غائبه عن المكان ماما فتكلفت بعص المرح وانا اقول :

- حبسه ونفوب يامدام .. ملقوش فوزى حدوكى ..
- أبدا حدوني وخدوا فوزى ... ياريت على قد كدا ..
قلت منزعجا :
- الاولاد ؟؟

- مامو دا الى مجننى .. سبنهم الاتنين عند الجيران ..
واحسست بان شيئا من الماضى السحيق يهجر فى عقلى
كنت اعرف ان المهندس فوزى حبشى لديه طفلين بين عام واربعة
اعوام ... وقد كنت اتصور وأنا اهرب من صرخات اختى

وبكاء سامع الصفر ان هذا شئ فطيع . . . ودارب رأسى
سرعة وأنا انصور المهندس فوزى وزوجه باحدوبهما العجر
ويسركان الطفلين يبكيان ويصرخان بين بدى الحران .

ان الانسان احبانا يحتاج لان يعطل عمله ومشاعره لكى
لا يسطل منه مشاعر الذنب .

ولما لم يكن هناك وقت ليضيع . . فأخذت اسمد كل قدرانى
لكى أخفف عن الأم الملتاعة وأؤكد لها ان الطفلين يلعبان الآن
مع حديهما بعد ان انفصل بها الجبران . . والضربى يبحث دائما
عن قشة . ولقد وجدت لثريا القشه التى حاولت ان سعلق
بها وعدت أؤكد :

- طمنا الجبران انصلوا بامانك وحدث الاولاد امها . . .
شئ مؤكدا . .

وشددت على يابها وصى تخرج فى أثر الجاوش الذى جاء
ياخذها . وقالت وقد مادت بعض الشئ الى نفسها

- لما بشوف فوزى سلم لى عليه . . فالوا لى فى المباحث
انه رايح القلعة .

- شدى حيلك، انتى واطلستنى على الاولاد . . وسلامى لاممة
أور النصر ممكن بلافيها فى القناطر .

وخرجت واخذت انصور أميمة أبو النصر منذ اسبوعين
وهى تحتج لان طاهر عبد الحكيم تخيل ان السيدات يكس
ان تعتقل فى مصر .

هل يمكن ان نكون أميمة قد اعتقلت ؟

ولم لا . . وفد اعتقلوا ثريا . . أم الطفلين . . فحنما نفقد
العامل بالاعمل . . بخلط كل شئ ويضيع .

- ٥ -

تمودت أن اغني لنفسي طول
حياتي ولست أدري لم اتوقف
الآن .. فاحساسى بالحياة
يزداد .

يوليوس نوتشيك - تقرير من القلعة

كانت كل ذكرياتي عن القلعة مجرد معلومات تاريخية غير
دقيقة مع زيارة واحدة بصحبة والدى منذ سنوات .

فلقد كان من عاداته إذا جاء لزيارتنا في القاهرة أن
يصطحبني معه في جولاته .. وكان يرسم لنفسه برنامجاً
دقيقاً يحرص على تنفيذه ، هو أن يصلي يوماً في الخميس ،
فإذا لم يسافر يصلي اليوم الآخر في المسجدة زينب ، فإذا
حدث ولم يسافر وهذه مرات قليلة يصلي اليوم الثالث في
الازهر .. أما إذا جاء عليه اليوم الرابع فبعد أن يطبخ إلى
القلعة في جامع محمد علي ... وفي أحد هذه المرات النادرة
أخذني معه .. وتناقشنا يومها حول محمد علي وصلاحي الدين
ويوسف بن يعقوب باعتبار كل منهم ارتبط تاريخه بالقلعة .

ولكن القلعة التي ذهبت لها هذه المرة كانت تختلف تماماً
رغم أن الطريق واحد

فلم يكن هناك ذلك المظهر التاريخي الذي يملأ عليك
الحواس وأنت تمضي على الطريق الصغير المنزج الموصل إلى
القلعة .. لم يكن هناك حتى الأساس بانك في الطريق إلى
جزء غال من أرض الوطن ، بل كان يفمرني الأساس
والبروكس يلتقط البعض منا من الأقسام المختلفة ثم يعيد
«نا إلى معقل القلعة» ، انني أذهب إلى المعتقل الذي بنسائه
«لأنجليز» كـ... من مظاهر سيطرتهم وتسلطهم على شعبنا .

كان المعتقل الذي وصلت اليه منذ أيام بدء ان فضيت يوما في قسم الموسيقى فله بدأت تخطط زنازينه رذاييره بمئات المعتقلين . فالزنازين التي نصطف على الجانبين والتي كان من المقرر ان تتسع لقرود واحد وضع فيها اربعة وخمسة كما حشر في العنبر السفلى الذي يشبه البدروم والعنبر العلوى أكثر من مائة في كل عنبر .

وبالرغم من كل شيء فقد كانت القلعة بعد ليلة الاعتقال وليلة القسم تمثل على الأقل بالنسبة لى نوعا من الانفراجة ، فهناك العشرات من الاصدقاء والمعارف الذين يقاسمونك المصير . وهناك الفرصة لان تجلس وتعلمي وتسمع من رفاق يعانون مثلما تعاني ويحلمون مثلما تحلم . . . ولقد حاولت قيادة المعتقل من البداية أن نفرض نظاما صارما فى اغلاق الزنازين والعنابر . ولكن ذلك لم يكن ممكنا اذ انه وفى الايام الاولى كان هناك تقريبا ايراد كل بضع ساعات وربما كل ساعة .

ومازلت اذكر الزميل سماهى عبد المسيح وهو يتفقد فوى العنبر العلوى يراقبه باب الادارة عندما يذرا مجموعة سائدين من المعتقلين ليصيح :

اورز يا نضر . . منين يا زملاء ؟

ثم يصيح . . المتصورة وصلت . . طنطا شرقت . . النيا اسبيوط على الخيل . . اسكندرية صيفت . . وهكذا . . .

مئات المعتقلين جاءوا من كل شبر تقريبا من ارض مصر الطيبة من اسوان وقصرى النوبة الى الاسكندرية وهطروح والعريش . . عمال رطبية ، وموظفين وكتاب وصحفيين ومحامون وأطباء . . فلاسون ومدرسون واساتذة جامعات ومهندسون وعمال زراعيون ، فنانون وشباب سابقون وسرقيون .

كانت الخاليتى السلاوى منهم قد اعتقلت ليلة ٢٧ مارس الشهيرة . وبعضهم انقلب من عمله او من الشارع . ثم يردون على القلعة بعد ان شرف بعضهم الاقسام ليوم او يومين حسب الظروف والتساهيل .

وكان وراء كل واحد قصة ، بعضهم وخاصة من وفد من الاقاليم يعرض لالوان من السديب الذى يتقبسه عادة بعض ضباط وعساكر الاقسام ، وبعضهم حول عمليه القبض عليه الى مظهره واسعه اشرك فيها ابناء الشارع وابناء الحى أو القرية ، وكان من اطرف ماسمعه من صديقى محمد حمام انه رأى فى العربة السوداء فجر « يوم الوعد » على الكوريش فلم يذهب الى منزله واستطاع ان يهرب لمدة اسابيع ثم البقطته بعد ذلك عربة سوداء أخرى من ميدان محطة مصر بعد ان احتفظوه . على طريقة جيمس بوند . عاش المعتقلون الايام الاولى فى تلك القصص والحوادث الميرة كما بدأت تشكل تلقائيا مجموعات السوابق أى الذين شرفوا المعتقلات فى فترة سابقة لبشرعوا على اسلام الاكل من المتعهد وليقوموا بتوزيعه اد كاتب خبرتهم السابقه يؤكد ان المتعهدين الذين يوردون الغذاء ، وخاصة للمعتقلين ، يقومون بعملية بهب واسعة على حساب جماعة يعرفون انه لاحول لها ولا قوة .

كما بدأت بشكل وخاصة فى العبر البديوم مسهرات نقافية وبرهنية وسياسية .

وسيطل المعتقلون يذكرون ولانك الدكتور محمد الخفيف (الذى وفى سنة ١٩٧٢ ، بهبوط مفاجئ فى القلب) ، بحفة دمه وسرعة بديسه وقشاهه ونكاهه ، وقد شكل مجموعة من سعبد الخيال (القاضى) ، والدكتور سعد بهجت (الصبدلى) ومحمود السعدى (الصحفى) وعدد اخر من الرملاء كانت تبعث الدفء والضحك فى قلوب المعتقلين طوال الليل .

هذا وبينما كان الدكتور عبد الرارق حسن (مدير البنك الصناعى) ، والدكتور فوزى منصور (الاستاذ بكلية الحقوق) ، ومعهم احيانا الدكتور لويس عوض ولطفي الحولى يعتقدون ما يشبه المتندى النقافى والسياسى يحضره عدد كبير من المعتقلين ، بالاضافة الى انه كان بسعدى كل لبله بن عشرة وعشرين من المعتقلين ليجرى التحقيق معهم فى مبنى المباحث العامة .

وكان كل واحد منهم يعرض بقصة سمع . . بعضهم رفض

ان يحقق معه في مبنى المباحث العامة ، وقد كنت واحداً من هؤلاء الذين طلبوا من وكيل النيابة ان يجرى التحقيق معي في سرى النيابة .
والبعض اكتفى بالاحتجاج ، ثم قال رايه كاملاً فيما يحدث وفيما وجهت اليه من اسئلة .

وكان من الواضح وخاصة بعد الايام الاولى ان معتقل القلعة مجرد محطة تجمع ، ففي الاسبوع السابق لوصول دفعة مارس كما تسمى كان المعتقلون السابقون الذين القي القبض عليهم في يناير قد رحلوا الى سجن الواحات الخارجة . كما أصبح ضرباً من المستحيل ان يستوعب معتقل القلعة تلك المئات التي ملأت زنازيره وعنابره والتي يفد بعض منها كلي يوم تقريباً ٥٥٠ لهذا كله لم نفاعياً حينما جاء قائد المعتقل ذات مساء ومعه الحجلات « سلاسل طوباة » يربط فيها مابين عشرين الى ثلاثين معتقلاً ، وبدأ ينادى حوال مائتي اسم كنت واحداً منهم . وسمعنا في المسر الطويل بن الرنازين والرملاء الباقون يتطعنون اليها من فمحات العنابر وفي عيونهم كما في عيوننا نفس التساؤل . الى أين ؟

كانت الايام العشرة السابقة في معتقل القلعة بما فيها من حزم ولاء واجداث قد شغلت الكثيرين منا من حقيقة ما ندور وما يمكن ان يأتى ، بل ربما في غمره الالتقاء مع الاصدقاء والرفاق نسي الكثيرون انهم بدخولهم القلعة قد خطوا خطوة اساسية نحو مستقبل مجهول .

وحينما اوغل ليل الشتاء وانتصف ونحس جلوس في صفوف متراصة في المر بدأ صوت الحجلات برنينها المزعج بقطع الصمت الذي كان قد اطبق على الجميع ، والكل بتساءل الى أين ؟ الى أين ؟
واحناحنى احساس عفيف بانى مقبل على اخطر رحلة في حياتى .

وحاء صوت رحيم ورصين وممتلئ من داخل الزنازين المظلمة أشبه بصوت بول رويسون المغنى الزنجى الأمريكى .
كان صوت محمد حمام .

زعى الوابور على السفر .. أنا قلت رايجين فين ..
 رايجين تغيبوا سنه .. وللا نغيبوا اثنين ..
 وبدا الطابور الطويل يخرج من باب معقل القلعة ليتلقفنا
 مجموعة أخرى من الضباط والعساكر . يحشرون كل مجموعة
 منا يربطها جنزير واحد في عربة من عربات السجون المغلقة
 وسط جو من الاوامر والصرخات والتي يفتعلها الضباط
 والعساكر .. ووقف قائد الترحيلة يلقي بأوامره الاخيرة
 بصوت عال :

- كله يسمع احنا رايجين معتقل الفيوم مش
 عاوزين صوت ولا ضجة .. أى محاولة للخروج على النظام
 هتقمع فوراً عندي أوامر مشددة بضرب النار فى المليون
 خليكو عاقلين والترحيلة تمر على خير .

الترحيلة الفلاحون فى قريننا يتجمعون فى ديسمبر
 بس كل عام بجوار النرعة ينتظرون عربات المقاول التي تأتي
 دائماً فى الفجر لتنقلهم الى بلادا الغربة لمدة شهرين وثلاثة .
 يعملون فيها من الشمس للشمس فى ظل افسى انواع
 السخرة نظير قروش قليلة .. بعضهم كان يعود وبعضهم كان
 لايعود .. ويدفن هناك فى ارض الغربة وبظل ذكريات ترحيلة
 الشتوية بالنسبة لنا اطفال القرية ذكريات سزينة اليمة فيها
 الوداع والدموع والمجهول وهذه ترحيلة أخرى .. من
 نوع آخر وان كانت لانتختلف ، فطالما استمرت ترحيلة
 الشتوية للفلاحين فى قريننا ستستمر ايضا ترحيلات الغربة
 لابنائهم ولن يحسون بفيض الالم والمعاناة الذي يعانيه فلاح
 مصر .

وزمجرت مونورات لوريات الترحيلة يتصدرها وتحفرها
 من الخلف بعض عربات السادة « المقاولون » .

واحبست بلفحة من الهواء البارد النقي خلف أذنى
 واستدردت أودع القاهرة من فتحة كبوت العربية .
 كانت القاهرة نائمة ساكنة، الشوارع خالية نغمرها الاضواء
 فى صمت وبائيم يتوالى يجمع بقايا الخضر ويحملها على عربة
 كارو صغيرة ويرفع رأسه قليلا يتأمل هذا الطابور الطويل من

بيرة نصف نائمة .. وعند كوبري عباس جماعة
اب تتسابق ربما بحثا عن الدفء ، وفي ميدان الجيزة
.ين لم يذهبوا بعد الى بيوتهم وآخرون - ربما بكروا في
من منازلهم .

حت بعض الاصوات من داخل احدى العربات تفنى
خافت :

ملادى .. بلادى .. بلادى .. لك حبي وفؤادى
موت الخافت يعلو شيئا فشيئا رغم صرخات واوامر
هصر يا ام البلاد .. انت غاييتي والمراد .

مت الاغنية كل عربات الترحيلة .. وانشطت
قوية عالية .. تهزم برد الشتاء وتبسط صمت الليل
، وزادت العربات من سرعتها .. على طريق الفيوم
ى هربا بالترحيلة السرية .

- ٦ -

لنضحك في خفة لان الحرارة
لفجتنا ، لان البرد قرصنا لان
الجوع اصابنا لان العطش
يستبد بنا لنضحك حتى يكون
حديثنا سخيا سخاء القليل
بول اللوار

١٩٥٩ - سبتمبر

واحد تمام . . .

اثنى تمام . . .

لأول مرة . . . اربعة . . . خمسة . . . ١٥ تمام ، اسطوانة
سكرتيرة سمعتها كل نصف ساعة في هذا المعتقل الفريب الذي
بني اصلا لتكرير المعتقلات في الحرب في الحرب العالمية الثانية
. . . ثم تحول الى معتقل لجار المخدرات . . . وانتهى به المظالم
ليضم اكثر من اربعمائة معتقل سياسي من الديمقراطيين
والاشراكيس والشيوعيين .

ولست ادري بالضبط من الذي بني هذا المعتقل ، ولكن
المؤكد ان محطته كان قد زار او رأى على الاقل معتقلات
أوشفيتز وبوخنوالد التي اقامها النازيون في بولندا والمانيا مع
اختلاف بسيط في الحجم وعدم وجود غرف الغار الشهيرة .

ولك العناير الممتدة بالعرض على الجانبين اربعة في الجهة
اليمنى ومثلهم في الجهة اليسرى يفصلهم ترعة من الاسلاك
الشائكة وتحيط به من كل ناحية سوران من الاسلاك الشائكة
بينها منطقة محرمة هي الى حد كبير شبيهة بالصورة التي
رأيتها لمعتقلات النازيين في احدى الكتب التي تروى بالصورة
وبالحديث ما كان يجري في تلك المعتقلات .

كان الحو الذي ووجهنا به من اللحظ الاولى في معتقل العزب
باليوم يخلف عن الجو الذي الفناه طيلة العشرة ايام الماضية
في القلعة .

فوصع في كل عنبر أربعون معتقلا في البداية ثم فضخم بعد
روح دفعات جديدة من القلعة في الايام التالية فأصبح في كل
عنبر بين سنين وسبعين معتقلا .

وكانت فوائم الممنوعات والمحظورات كثيرة .
ابتداء من الورقة والقلم التي نعد جرمها كبيرا الى حرية التنقل
داخل العنبر والواحد أو كما قالها الضابط البدين حمدي :
— كل واحد على سريريه .

أي ان عليك داخل العنبر الواحد ان تجلس وتنام وتتحرك
بحرية في مساحته السرير فقط . بل لقد وصل الامر بههنا
الضابط الغرور الذي كان يتمخبط في سمرات المعتقل ساعلا
في بده كرباجا ان يعتبر ان مجرد الهمس بين زميلين ساعلا على
سريرين سباعدين معاملة مقبولة الجلد .

كان يدعى في عنبر (٢) وقد سدد ذلك موقعي في السجدة
التي ربطت فيها شي « الترحيلة » ، ولقد كان عنبرا بعنبر غير
يكوي بهوى من الوطن الكبير .

فالعالمية العظمى من العمال من شبرا الخيمة وحلوان وكثير
الدوار والاسكندرية من بينهم محمود عطا الله رئيس نقابة
عمال كفر الدوار وعباء الغفار سلام وعبد الجواد القطان رئيس
نقابة عمال السبيح ، ثم بعض الفلاحين من الشرفية والدقهلية
والبخيرة والمبوم ثم مجموعة من المثقفين بينهم الدكتور فائق
فريد عضو مجلس الامه عن شبرا وجزيرة بدران . وعلى الشلقاني
الكانب الصحفي ، وجمال كامل العنان التشكيل وعادل ثابت
العالم المعروف وعمد السلام مبارك الصحفي في المساء والدكتور
جميل حسي الصيدلي . ثم عدد آخر من طلبة الجامعات .

وهذه الايام الاولى وقد اخذنا بالمعاجة والجو الكتب سود
المعتل . فكل عنبر يحرج « المسحة » لمدة ثلث ساعة في اليوم
وعندما ان يفرع في هذه الدقائق من قضاء الحاجة والاعتبال
والشي في الموض الذي الذي يصح خلف العابر يسمح كل
مره أخرى ولمدة ٢٢ ساعة و ٤٠ دقيقة الى العنبر لتفريح كل
على سريريه ، بل ذلك و الجوى من الهندسيا والسحمر بسبعة

قائد المعتقل وضباطه ومعهم على وجه خاص الجاويش محمد غطاس أو حضرة الصول كما يناديه العسكر مصحوبا بنزوات متلاحقة من جانب ادارة المعتقل من شتائم مقدعة الى الاعتداء بالايدي على البعض .

ولابد وان الجميع قد احسوا بما احسست به حينما فتح عنبرنا فجأة في الايام الاولى وصوت غطاس ينبج بصوت عال « انتباه » ليدخل قائد المعتقل ووراء الضابط حمدي وكرباحه يلعب من الخلف كدليل الكلب .

كان الشعور بالسخط خلال تلك الايام قد استبد بى وفي ذلك اليوم بالذات وخاصة وقد حدثت مشادة بينى وبين جاويش الفسحة حينما كنت امسح وجهى بالفوطة وأصر على انى اعطى اشارات لزملائى فى العنابر الاخرى .

وتدخل الزملاء منعا لتدهور الموقف وسكت الجاويش بعد ان حصل على علبة سجاثر وينجز ، ويبدو ان علبة السجاير لم تؤخر الصدام سوى ساعة بعد ان انتهت كل العنابر من طوابرها (٠) وقفت امام سريرى مثلما طلب منا واخذ طابور العسكر يتمخض فى هدوء بيننا داخل العنبر القائد فى المقدمة ووراء الضابط حمدي ثم الجاويش غطاس ثم جاويش الفسحة .

كان القائد فيما هو واضح من رتبته وسننه الذى جاوز الخمسين انه ترقى من تحت السلاح أى انه بدأ حياته « نفرا عاديا » وكان وجهه الجامد وعينيه الفائرتين يعكسان جمودا وغباءا شديدين .

وتوقف الركب امام أحد الزملاء وسأله القائد عن اسمه ومهنته فلما عرف انه عامل ازاحه بيده فى عنف موقعا اياه على السرير وفرق حمدي بالسوط يلهبه على ظهره مرتين فى حين انطلق غطاس ينبج بسباب قذر .

وتملكنى شعور بالغيظ والحق بينما كان القائد يقترب منى ثم توقف امامى مباشرة بعد ان صاح جاويش الفسحة :
— هو دا يا فندم ..

وابتسم القائد فى غباء واخذ يتأملنى بنظرات بلهاء وهو يعبت بعضاه الصغيرة فى شعري المنكوش ، بينما حمدي يفرد كرباجه .

.. بتشتغل ايه :
 .. صحفى فى جريدة المساء ..
 .. يعنى جرنالجي .. مش كده ..
 .. حاجه زي كده ..
 .. علشان كده كنت تبدي اشارات وتكتب على الهواء ..
 .. اكتب على الهواء .. !!
 .. طبعا انا عارفكم كويس .. انتم شياطين .. تعملوا اى
 .. حاجه ..
 .. انا كنت بامسح وجهي بالفوطة .. الى بتقوله سيادتك دى
 .. أوهمام ..
 .. صرخ الضابط حمدى : أوهمام يابن ال ..
 .. وكاد يهوى بسوطه ، ولكن يد القائد اسرعت ، وامسكته ..
 .. بلاش دلوقتي يا حمدى .. هو هيجرم يسدل كده تاني ..
 .. مش كده .. ؟؟
 .. وعلى قدر صرخة حمدى ، بل رأى من سرخته ثلاث :
 .. انا لم اقبل شيئا .. ثم ان الى حينه نسي شئ ..
 .. من .. هكذا شعر من الكلابان دون ان أفكر فيما ..
 .. وسرت اظفار ، مائة ملويلة لم يستطع حمدى ..
 .. بسهم باي مبادرة يمشا بدأت بسود الشبر هزيمة شرس ..
 .. ملهوط .. ورفيع القائد يده مهدئا .. وكانت تلك من اظفار ..
 .. مكانه النادرة ، ثم قال موجهها كلامه لكل المنبر ..
 .. مش عاوز هيجسه .. الاوامر لازم تبنى ، والى هيجتوج
 .. من النظام هنصرف ناديه كويس .. ثم انسحب ووراء زبانيته
 .. وأغلق الباب ..
 .. وصاح عبك النصار سلام أحد الزملاء النقابيين فى صورت ..
 .. ان يكون مسرعاً وخافنا فى نفس الوقت :
 .. فهو .. كسحة .. هو تلة الشغل ..
 .. وشملت المنبر ضربة مرحة .. وانطلقت بعض الذرات ..
 .. وساء كثيرون يهزون على يدي زنادي زبل على المنبر ..
 .. واخر على المنبر بلزق وفلسد كذا بين الاثنين وأخذوا يركبان

لهما عبر النوافذ الحديدية ماجرى ، ولم يندخل العسكرى
الواقف بين العنبرين كعادته فى مثل تلك الاحوال .

اسبوع كامل مضى ونحن نتلقى كل يوم ضربات مفاجئة
والمعاملة تسوء وتمضى بوتيرة اسرع وكنا فى تلك الاثناء اشبه
بمن دخل الحلبة فى الجولة الاولى وفوجئ بخصمه يكيل له
الضربات مثل ان يكون مسنعا . والانصالات ممنوعة ، بل
ومجرمة بين عنبر وآخر وحتى فى داخل العنبر الواحد كانت
عيون العساكر مسلطة علينا بحصى كل حركة ، حتى ان حمدى
أبو كرباج أخرج رميلا خارج العنبر وانهاى عليه بالكلمات لانه
محرك من سريره وكان ماحدث فى عنبرنا فى ذلك اليوم أول
لكمة نوحها الى الحصم لنسبت وجودنا على الحلبة .

والواقع ان العنزة التى قصينها فى معتقل العزب فى الفيوم
كانت كلها مباراة ملاكمة طويلة ، بيننسا وبين الادارة . . .
اسبوع واحد فقط كانت اللكمات من طرف واحد . ثم ظهرت
بعد ذلك بدة كاملة من جانبنا .

الادارة بكل هيلمانها وسلطتها وقسوها بوجه لنا لكمسة
هذا اليوم ونحن بعقولنا وبحبنا للحياة واصرارنا للدفاع عن
القيم الجميلة حتى داخل الاسوار نوحه لها لكمة فى اليوم
التالى .

هكذا سار الامور طوال قرابة ستة شهور . .
من ناحيتنا نجحنا فى تكسير جو الارهاب الكثيب المحيط
بنا وامكر تنظيم شبكة اتصال عبر النوافذ بين العنابر كلها .
ومايجرى فى عنبر واحد أصبح يعرفه سكان عنبر ٨ فى نفس
الليلة ، وبدانا نتحرك ونفكر بعقل الجماعة ففرضنا حرية الحركة
داخل العنابر كأمر واقع ، بل وبدانا ننظم الجلسات والندوات
السفافية والترفيهية . . هذا يحكى بعضا من الفصص العالية
لهمنجواى وشولوخوف وايليا اهرتيرج وجميس جويس وجوركى
وطه حسين ونحب محفوظ .

وذلك يعرض مسرحيات لنوفق الحكيم وشكسبير واسمورن
وتشيكوف وسارتر واونيل وننس وليامز وبريخت ونعماز

عاشور والريحاني وآخر يعرض بعضاً من الافلام . . ومجموعة
تقوم بعرض كتب وأفكار لـسارتر وهيجل وماركس وفولتر
دروسو ومحمد عبده والافغانى . وآخرون يتفنون بالحن سيد
درويش وبول ردسون وعبد الوهاب وعبد الحامولى وثرانك
سينارا .

ورغم كل الحظر والاوامر تمكنا حتى من استحضار بعض
الصحف والمجلات (٠) على ان كل هذا كان يحدث خلال معارك
متصلة . فالادارة لم تسكت عنا يوماً واحداً ، ولم تسلم لنا باى
حق . . . كانت تتغافل يوماً أو يومين ثم تنزل بكل ثقلها في
اليوم الثالث لتجمع مندوبى العنابر مثلاً لتقوم بجدهم أمام
مبنى الادارة ولتحاول ان تشيع جواً من الارهاب . . . وفي
مثل ذلك اليوم يصول ويجول غطاس ولايكف لسانه وذراعه
عن العمل .

ونعود لنمسك بالمبادرة فى اليوم التالى فمنمنع عن تسلم
الطعام أو تنبأطاً فى الدخول الى العنبر بعد انتهاء مدة طابور
الفسحة أو نرسل مندوبين آخرين لقائد المعتقل لينذره بتحمل
المسئولية ، وبان يوماً ما سيأتى ويدفع ثمن كل هذا . . فيعود
ليعتذر وليقسم بشرفه ان شيئاً من هذا لن يتكرر . . ولكن
قسمة سرعان ما يضيع بعد بضعة أيام . ولم يكن من الممكن أن
نستمر لعبة القط والفار بيننا وبين قيادة المعتقل . . . جاء يوم
كان لابد وان تحدث المعركة الفاصلة .

قبل ذلك بعدة ايام كان أحد الضباط قد عثر على بعض
الاوراق مع أحد الزملاء . والورقة والقلم كانت بالنسبة لنا
كبيرة الكبائر . فاستدعى المهندس فوزى حبشى الى الادارة
وقامت مجموعة من السساكر ومهم الضابط بضرب الزميل
بالشوم ثم جلده على العروسة ولا ادرى لماذا سمي هذه الالة
الرهية بذلك الاسم ، اللهم الا اذا كان ذلك لان المضروب
يربط على الصليب فى حالة احتضان .

وبعد ذلك بيومين اخذت جماعة من الزملاء المرضى الدين كان
من المفروض ان يذهبوا بهم الى مستشفى الفيوم القريب
للكشف فضربوا أمام الادارة بالكرباج وجريد النخل .

وكان لابد ازاء هذا التصاعد فى عدوان الادارة من التفكير فى خطوة جديدة .. اكثر فاعليه واكثر خطورة .
وفى هذه الليلة دارت الاتصالات بين جميع المناير ...
وكان القرار .. وفى اليوم التالى رفضنا استلام الاكل .. وحين
جاء قائد المعتقل ليرهب وليرغب قابلهنا بهجوم شديد ، وقال
له زميل عامل :

انت لست أهلا للحديث معك ... اننا سياسيون ولسنا
تجار مخدرات ، لذلك فنحن نريد مسئولين من القاهرة للتحدث
اليهم ... وكان من الواضح انه قد اسقط فى يد القائد الذى
حاول ولمدة يوم كامل ان يحل المشكلة حتى لا يظهر على الاقل
أمام المسئولين انه عاجز عن قيادة المعتقل ..

وازاء اصرار الحسمانة معتقل استنجد القائد فى اليوم التالى
بوكيل المحافظة الذى جاء الى المعتقل بفرقة كاملة احاطت
بالمناير من كل ناحية .. ولمدة ساعة ظلت تمارس علينا
عمليات ارباب نفسى محكم .. ضجة واصوات عالية واوامر
مشددة هنا .. وعساكر تهول هناك واصوات البنادق وتكة
الدبشك .. وبعض الطلقات المنوية فى الهواء ..
ووكيل المحافظة وقائد المعتقل يتعمدان ان يصدرا اوامر
تكون مسموعة لدينا .. اضربوهم بلا رحمة .. الى يرفع رأسه
اضربه فى الملبان ... دول خونه ..

ساعة كاملة ونحن قابعون فى عنابرنا المفلقة نوافذها تسمع
ونرصده كل حركة وكل صوت وتتقابل عيوننا فى حيرة ودهشة
احيانا ، ولكن فى ثقة فى اغلب الاحيان .. كما قد اتخذنا
قرارنا بالمواجهة الى اخر مدى ..
وبدا الماتش ..

اخرجوا عنبر واحد الى الحوش .. وأمام كل معتقل وقف
جندي شاهرا بندقيته ووضع اوانى الاكل بين المعتقلين
والجنود ..

وصاح وكيل المحافظة الذى جاء ليحرب حظه معنا :
- عندى اوامر بضرب النار فى الملبان ..

وبحركة مسرحية قال : عسكري استعد .
وأخذ المسافر فعلا وضعهم ووضعوا اليد على الزناد .
وبحركة مسرحية أخرى قال :

— معتقلين .. كل واحد يتقدم خطوه .. ويأخذ اكله .
ولم يتقدم أحد ..
وأعاد وكيل المحافظة أمره السابق بصراخ حاد :
ولكن أحدا لم يتقدم ..
— دخلوهم الغنبر ..
وجاء الدور على عنبرنا .

ودخل الزملاء عنبر واحد وعلى وجوههم ابتسامة النصر والثقة
وتكررت نفس المسرحية .. وتكرر نفس الموقف .
وفي ضيق شديد صاح قائد المعتقل ..
— اضرب يا عسكري .
ولكن المسافر لم يضربوا وتطلعوا الى وكيل المحافظة ، ولتند
كانوا كلهم من قوة المحافظة وليس من قوة المعتقل .

ولكن وكيل المحافظة أشار بان يخفضوا بنادقهم .. ثم اشار
الى الزميل محمود عطا الله رئيس نقابة عمال كفر الدوار
قائلا :

— انت تعالى هنا .. قرب .. مش عاوز تأخذ الاكل ليه ؟؟
وبدا محمود يحكي في ثبات عن التعسف الذي نلاقه داخل
المعتقل من القائد وضباطه والجلد المستمر الذي وصل الى حد
جلد المرضى وسوء التغذية الذي نتعرض له ومنعنا من طوابير
الشمس ومن الورقة والقلم والكتاب والصحيفة والراديو .

وتقدم الدكتور فايق فريد وتقدمت معه لنساعد محمود على
شرح مشاكلنا . كان وكيل المحافظة من ذلك النوع من الموظفين
الذين يخلصون لمهنتهم ، ولا تشغلهم السياسة من قريب أو
بعيد وبالتالي لم تكن لديه مصلحة خاصة في تعقيد الامور .

كان موظفا يريد ان يقوم بمهمته بنجاح .. وكانت المهمة
الملقاة على عاتقه مثلما أوضح هو ان نوقف التمرد ونأخذ
الغذاء .

واستطعنا ان نشرح قضيتنا جيدا فنحن نعرف ان وكيل المحافظة ليس مسئولاً عن اعتقالنا لكنى نطالبه بالافراج عنا ، وركزنا مطلبنا في ان نعامل معاملة انسانية ، وان تقف جميع اساليب التعذيب من ضرب وجلد وأهانات ٠٠٠ وان تتاح الفرصة لان نكتب خطابات لذوينا ونتسلم خطاباتهم وان تفتح العنابر وشرة أطول ويسمح لنا بقراءة الصحف والاستماع الى الراديو واستخدام المكتبة .

كما اضاف الدكتور فايق فريد موضوع التغذية ٠٠ وطالب زيادة مخصصاتنا في الغذاء حيث ان غذاء المعتقل كان يكلف ١٥ ملياً وهو مبلغ ضئيل لا يمكن ان يفي باحتياجات طفل ٠٠ كما شكك الدكتور فايق في امانة ادارة المعتقل والمتعهد ٠٠ فقطعة من الجبن القريش ومقادير ضئيلة من الفول وثلاثة ارغفة لا يمكن ان تقيم أود أى انسان والا اذا كان المطلوب قتلنا بالجوع البطيء .

كان وكيل المحافظة يسمح الى شكوانا ووجهه يموج بمشاعر كثيرة متضاربة فالمطالب التى يضعها أمامه يتمتع بها أى مسجون عادى فى السجون سواء كان لصاً أو قاتلاً أو تاجر مخدرات ، وكان بين الحين والآخر ينظر الى قائد المعتقل ومعاونيه يريد من أحدهم ان يكذب الوقائع التى نقدمها .

بينما كان قائد المعتقل والضابط حمدى ينفثان الغيظ والشرر من عيونهما فى صمت .
أما غطاس فلقد وقف وهو يتوعدنا بحركات من يديه ووجهه ٠٠ وحينما اثرنا قضية الغذاء وتواطؤ المتعهد مع الادارة تسلسل غطاس متجها نحو مبنى الادارة .

وكسبنا المباراة ٠٠ أو على الاقل هكذا بدت الامور من السطح ٠٠ فنقل الضابط حمدى والجوايش غطاس من المعتقل، واوقف الضرب والجلد .

وجاء متعهد آخر كما سمح لنا باستلام خطابات ، بل وطرود اغذية وادوية من ذوينا ، أما المطالب الاخرى فقد حصلنا على جزء كبير منها بالممارسة .

ويبدو انه في نفس اليوم الذي حققنا فيه انتصارنا في
مقتل العزب بالفيوم وانهاء سياسة التعذيب والتجسيع .
كان هناك قرار اخر قى القاهرة قد اتخذ بعد ان ثبت ان تجربة
الفيوم لم تنجح . . ففي الاسبوع الاول من شهر يونيو اخذوا
اربعة زعملا ورحلوهم الى سجن الواحات الخارجة .

تسلمت اول خطاب من والدى بعد اربعة شهور وبالرغم من
اننى قرأت الخطاب فور تسلمه مرة وثلاث الا اننى عدت اليه
فى المساء اقرأه على مهل تحت ضوء العنبر الشاجية .

« كان الخطاب مليئا بعبارات موحية ففيه يقول والدى :
« لقد امسكت بالقلم وقبضت عليه لكى يكتب ما امليه عليه
ولكنه رفض فى اصرار كأنما يقول لى كيف اكتب وأنت تمسك
بخناقى » .
وفى فقرة اخرى يقول الخطاب :

« بالرغم من انك ابنى الاصغر الا انك كنت دائما حكيما عاقلا
تحب الخير للناس قبل ان تحبه لنفسك » ، ثم يضيف « ليس
عندى سوى ما قاله رسول الله (والله ما اقلت الفبراء ولا اطلت
الحضراء من رجل اصدق من أبى ذر) » .

واحسست بمشاعر الطفل الصغير ازاء والده وملا وجهه
الحبيب دمة ترقرت فى عينى واجتاحنى احساس غريب فى
تلك الليلة اننا نلتقى فعلا ، وانه يشد على يدى ويحتضننى الى
فى مرة اخرى عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، وعمر بن
عبد العزيز وابو ذر الغفارى ، ثم ضحكاته العالية والسايفة
وهو يقول : « هل تعرف ان ابادز كان له أخ اسمه انيسر ، متلك
مرة اخرى اتصور ابادز الغفارى كما صورته دائما بوجهه
الاسمر وعينيه اللامعتين بالحب ومماوية ابن أبى سفيان وقد
اصبح خليفة للمسلمين بعد ان اغتال تعاليم الاسلام وهو
يصرخ :

« يا أبى ذر لقد اشتكى الاغنياء منك وقالوا انك تؤلب عليهم
الفقر » .
ويقول أبو ذر :

- انى انهاهم عن الكنز لقوله تعالى (الذين يكتزون الذهب
والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فيبشرهم بعذاب اليم) *
- انها نزلت فى اهل الكتاب يا ابا ذر *
- بل نزلت فينا وفيهم *
- انى كآمير للمؤمنين أمرك ان تكف *
- والله لا يستمر على دعوة الناس ولا يشرن الكافرين بعذاب
الانسار * *

- خير لك ان ننتهي عما انت فيه *
فيقول ابو ذر فى ثقة المؤمن بالحياة والناس والخير :
والله لا انتهي حتى توزع الاموال على الناس كافة
يا ربح مساوية مهلدا :
اذا ذر * * هذا فراق بينى وبينك * * جاذروالا *
لهم ده ابا ذر بصوت اعلا :

- والله لا انتهي حتى توزع الاموال على الناس كافة * *
والله لا انتهي حتى توزع الاموال على الناس كافة * * وخيم
الهدوء والليل على المعتقل * فلقد كانت ليلة استلام
الهدوء وعاش كل منا حياة خارج الاسوار من خلال خطاب اب
ابن ابي ابي زوجة او حبيبة او ابن لاول مرة منذ شهور * * كنت
اربع راسى لاثام الزملاء وقد رقدوا فى اوضاع مختلفة بعضهم
السرير على جفأ السرير مغمضا عينيه والدمع الاخر جليس
الدمع يعيث بشعره ، وارندى عادل ثابت بجأما جديدة
ويصفف شعره وجلس حالما وفى يده خطاب زوجته * *
واغر زرفت عينا الدكتور جميل حقى بالدموع وهو يمسك
بالدمع اما عبد السلام مبارك فقد اخذ يجوب الممر
القاص بين الاسرة واضعا يده خلف ظهره بعد ان تسلم
حلبا من زوجته المعتقلة فى القناطر * *

وادركت ان الجميع مثل يعيشون فى جزر الاحلام الخاصة
التي بدأت تخضر فى احلامهم بعد ان تسلموا الخطابات *
وفى هدوء الليل انسب نفس الصسوت التى الرصين
بمرته الى حمل الحزن والالم الحصب :
باللى انتى بينى وبينك سور *

بكره العيون هتشوف النور ..
بكره يا روحى الهنا
هيفيضى على الدنيا
وقبل متفوت سنه
هنعيش فى حريه

كان الصوت قادما من احد العنابر التى عاشت كلها ليلة
خارج الاسوار .. ويبدو ان العسكر قد ادركو هذا فكفوا
ليلتها عن نداءاتهم بالتعام .

كان لليلة سحر وطعم خاص ، ولاول مرة افكر فى الفيوم
الاخري تلك الواحة التى انتزعها اجدادنا من بين الصحراء
وزرعوا فيها الحياة والدفع . ونسيت المعتقل والاسوار
واخذت اجوب واحه بلادى الكبير وما احمله لها من ذكريات
.. عين السلين وكوم اوشيم والسواقي السبع التى اختارها
المفنى الشعبى العظيم والمجهول ليبنها شكواه وآلامه فهى بكل
مائها تنعى وناره لاتنطفىء .. ويا لها من نار عظيمة خالدة
تلك التى لا تنطفىء ابدا بل تظل مشتعلة تبعث الدفع والنور
فى القلوب حتى ولو كانت داخل اسوار شائكة وامسكت
بالقلم اكتب خطابا لوالدى ..
وكتبت كلمات ناظم حكمت :
ابى ..

ان اجمل الايام هى تلك التى لم نعيشها بعد وأجمل
الاحلام هى تلك التى لم نحققها بعد واو كنت أعرف ما سياتى
لكتبت له .
واقسى الآلام هى تلك التى لم نعانىها بعد .

- ٧ -

قفوا ساكتين • كغابة من
الناس كثيفة خرساء بأذرع
مكتوفة ونظرات قوية كأنها
السلاح في حرب لم تنلها
هزيمة

(شيل - قصائد المقاومة)

سبتمبر ١٩٥٩ •

الترحيله مره اخرى ...

والقمر هو نفس القمر الهادئ الساكن الذى يجوب سماء
مصر الصافية يفرق الوادى فى بحر من النور الصامت تتضال
الى جانبها تلك اللمبات الكهربائية الشاحبة التى تتناثر على
رصيف محطة المواصله •• جنوب سوهاج •• ومادام هناك
قمر ومادامت الرياح الخفيفة المنعشة تحمل الى الانف عطر
المزارع والارض الطيبة المحيطة والملتصده على مرأى البصر
تتلاشى الحجلة وبتضال القيد الذى يمسك بمعصم اليد
ويهون كل شئ ••

هكذا رقدنا على رصيف محطة المواصله بعد رحلة دامت
خمسة عشر ساعة من الفيوم الى محطة بنى سويف
بالعربات ثم من بنى سويف الى المواصله فى عربه مغلقة فى احر
القطار مخصصة لنقل الحيوانات - مرورا بالمنيا واسيوط
وقنا رسوهاج ••

كان من الواضح فى الايام الاخيره لنا فى معتقل الغرب
بالفيوم انهم بصدد تصفية المعتقل بعد ان فشلوا فى تحويله
الى مكان للارهاب والتعذيب •• وان كانوا قد احتفظوا به
يتحول بعد ذلك الى معتقل (تصفية) •• اى لمن يرغبون ان

يخرجوا بالثمن الذي يفرض عليهم ٠٠ وكنا نحن الدفعة الثانية انتى ترحل الى الواحات بعد دفعة يونيو ٠٠ وقد اختاروا فى هذه المرة أربعين ممن تصورا اهم قيادة المعتقل وصمت الدفعة مندوبى الصابر ومجموعة من الشخصيات والكتاب والغايين المعروفين من بينهم الدكتور فايق أسرية والدكتور حسين كمال الدين وعلى الشلقاني والدكتور فوزى منصور واديب ديمترى وفيلب جلاب وششوقي محمد الحكيم وابراهيم عامر ومحمود عطا الله ومحمد صدقي وفخرى لبيب وفحى خليل ولطف الله سليمان وفاروق ثابت ومحمس الخياط وعبد الله كامل ومحمود السميدنى واسعد حليم ٠

والمواصلة بلدة صغيرة فى اعماق الصعيد تقع بعد مسسوهاج بعشرات الكيلو مترات حيث يضيق الوادى بشكل متسوسر فلاتمتد الخضرة على الحانين لاكثر من مسمسح كيلو مترات ثم تبدأ هضبات الصحراء الشرقية من ناحية والبحر الالامسهي من رمال الصحراء الغربية من ناحية اخرى (٠) ودخلت القرية التاريخ المصرى من اوسع الابواب ٠ فطوال الخمسين عاما الماضيه كان المواطنون المتمردون العاقون من وجهة بطر السلطة يأتون الى هذه القرية بقطار الصعيد لينتظروا قطارا اخر من نوع قطار الدلتا الصغير لينقلهم الى اعماق الصحراء ٠٠ الى الواحات الخارجيه والدلتا ٠٠ على بعد اكثر من مائتى كيلو مترا ٠

ولقد عرف هذا الطريق كل من احب مصر وخرج معارضا للسلطة دفاعا عن عقائده ٠ منذ حكم الرومان حين هسربه المسيحيون الاوائل بدينهم الى الواحات بعيدا عن طفيسان دقلديانوس ثم كانت المنفى الرسمى لسلطة الراى والانجليزه وقد قبل ان اصار سعد زغلول نفوا هناك الفترة ٠٠ وفى ايام اسماعيل صدقي ومحمود محمود نفى اليها اعداد كبيره من الشباب والموظفين وكان النفى ياخذ شكل تاشيره بالنقل الى الواحات ، وربما كانت المرة الاولى التى ذهب اليها معتقلون بشكل رسمى فى عام ١٩٤٧ حين نفى الى هنا عدد من ضباط وصولات سلاح الطيران منهم سيد سليمان رفاعى

وفؤاد حبشي ويوسف مصطفى الذين اتهموا بالشيوعية . .
ومنذ هذا التاريخ طابت الفكره للمسئولين لكي يلقوا في
غياهب صحراء الواحات بخصومهم السياسيين بعد ان كانت
جبل الطور هي المكان المختار لهذا الهدف .

كان الافق الشرقي الغارق في أعماق الصحراء قد بدا يحترق
مباشرا بظهور الشمس الوليدة وقد نام بعضنا سندا راسه
على ظهر اقرب زميل له في الحجلة بينما كنت احس بيقظه
شديد ربما لاني سرقت بعض الساعات نمت فيها في القطار
وربما للاحساس الذي اجتاحني وجعلني التهم بنهم
شديد كل اراه نحول في تلك البقعة النائية من صعيد مصر
التي لم تطاها قدمي من قبل(٠) كانت القطارات السريعة المتجهة
الى اسوان والاقصر والعائده منها تتوقف قليلا عند المحطة
واستغرق مع الركاب وانفعالاتهم حين تصطدم انظارهم
بالترحيلة . . البعض يتهاشم ويشير الينا والبعض الآخر
يكتفي بالنظرة الجامدة . وطفلة صغيرة ترمي الى بكعة في
يدها . . تماما مثلما كنت افعل مع الاسود أو القروود في
حديقة الحيوانات . وقال احمد شوقي عبد الحكيم زميلي في
الحجلة وهو يلاحق بنظراته قطارا كان يغادر المحطة والضربات
المتلاحقة للعجل ترن على القضيب .

- ياه . . تعرف كان ممكن كلهم يموتوا تحت العجل .
- مين .
- دفعة يونيو .

واخذنا نتخيل الصوره كما سمعناها على ارض المعركة كانت
الدفعة التي سبقتنا في يونيو الماضي قد تعرضت لمأساة كادت
أن تتحول لتراجيديا جماعيه . . فحين وصلوا محطة المواصله
وبدأت اجراءات انزالهم من العربيه بدأ القطار يتحرك (٠) كانت
هناك مجموعه كبيره مازالت داخل العربيه في حين كان هناك
بعض الزملاء قد نزلوا على الرصيف ويربط الجميع سلسله
واحد .

وزادت سرعة القطار والذين في داخل العربيه يتشمسبون

بمواقعهم فى حين كان الزملاء الآخرون يجر جرهم القطار على الرصيف ثم على الفلنكات ٠٠ واخذت اتصور عبد الستار الطويلة والدكتور رزق عبد المسيح وعزب شطا وغيرهم والقطار بسحبهم وهم يصطدمون بالزلط وخشب الفلنكات وبين لحظة وأخرى يتوقعون ان تشدهم عجلات القطار لتطحنهم جميعا ومعهم الزملاء الذين كانوا داخل العربة ٠

لحظات قاسية سواء كانت دقيقتين حسب الرواية التى وصلتنا او خمس دقائق حسب الرواية الأخرى ٠

ولقد قال لى عبد لستار الطويلة بعد ذلك وقد كان اقرب المجموعة الى العجالة ٠٠

كانت راس تدور بنفس السرعة التى تدور بها عجلة القطار كان مصيرى ومصير الأربعين الآخرين الذى يرتبطون بالسلسلة الواحدة يتوقف على مدى قدرتى فى الابتعاد عن عجلة الموت ٠٠ كنت قد سمعت ورايت أفنى الأفلام عن انواع التعذيب فى القرون الوسطى حين كانوا يربطون الفلاح الى ذيل حصان جامع أو عربة تجرها مجموعة من الخيول ٠٠ ولكن فى هذه المرة كل قطارا جامحا ٠٠ صورة كلما تخيلتها حنى هذه اللحظة اغمضت عيناى ورعده شاملة تجتاح كل جسدى ٠٠

ولقد تدخلت الصدفة تماما مثلما يحدث فى الأفلام المصرية لكى لانمضى المأساة الى النهاية فقد تنبه خفير فى المزارع المجاورة لما يحدث واطلق عدة اعيرة نارية مرت جوار السائق جعلته ينظر الى الحلف ليرى المأساة وليوقف القطار ٠٠

واخيرا جاء القطار الصغير ٠٠٠

وملأنا عربيتين بينما ربض الحراس فى العربة الخلفية وتحركنا صوب الشرق ٠٠ كانت الشمس قد بدأت تنخفض عنها كل اثار المخدر والغلات الحمرء وغمرت المكان بأشعتها الدافئة ثم الساخنه ٠٠ بينما كان القطار هو الآخر وبعد بضعة كيلو مترات قد خلف وراءه الوادى الأخضر ويدخل وسط كثبان ممتدة من الرمال وبعد اقل من نصف ساعة كنا قد

غرقنا تماما فى بحر من الرمال ، والهضاب والقطار بمن فيه
هو المظهر الوحيد للحياة والحركة .

كانت كل خبرتى السابقة بالصحراء هى طريق القاهرة
الاسكندرية الصحراوى وطريق القاهرة الفيوم ، ثم بعض
المعلومات الجغرافية . وبعض الصور ، ولكن ذلك كله شيء
والاحساس بالصحراء الذى احتاجنى ونحن نوغل ساعات
طوال فى اعماق الرمال شيء اخر ، ان القضية ليست مجرد
امتداد اللون الاصفر الداكن على مدى البصر والاحساس
بالوحشه والخوف .

انها احساس اخر تماما ربما توصل اليه بعد دراسات
عطوله اساتذه التعذيب . الاحساس بانك تفارق الحياه
فعلا . وفى كلمة انه الاحساس بالعدم .
وقد شغلنى فى الساعات الاولى الرؤيا الجديد ، فأخذت
اتطلع من نافذه القطار واسرح بخيالى فى تلك التكوينات
الغريبة للرمال الصخور الداكنه . وبينما كانت الشمس
تستبد اكثر واكثر بذلك الخلاء الموحش بدأت اتخيل على
مرمى البصر اشباح غزلان تجرى أذئاب نفر مذعورة من صوت
القطار . ولعلى كنت اتشبهت بهم انه لا بد وان تكون هناك
حياه . ولكن ساعات اخرى بعد ذلك اخرست حتى اوهامى
واجتاحنى ذلك الاحساس القاتل . وهو فقدان الاحساس
بالحياة . وبدأت استعيد كل الصور التى كنت اقراها عن
الصحراء كمجرد تعبير وتركيبات لغوية . ت . س
البيوت شاعر اليأس والارض الخراب . وهو يختار الصحراء
نموذجا للافلاس والموت العدم (تعالى لترى الموت فى قبضه
من الرمال) . ولا ادري لماذا اجرئت فى ذهنى مقارنة غريبة
. كنت اتصور نفسى فيها وحيدا اصارع امواج بحر مترامى
ولا شيء سوى مياه زرقاء ممتده .

ومره اتصور نفسى فى غابة كثيفة مليئه بالوحوش العظيمة
والوحوش الحقيقه أقفز بين الاشجار هربا ممن يعتبرنى قوته
وبحثا عن اعتبره قوتى .

ثم اعيد نظره اخرى للرمال الممتدة فأوقن ان حياة البحر رغم امواجه المتلاطمة وحياة الادغال رغم المخاطر المتعددة اقل قسوة بكثير من أن يتوه الانسان في الصحراء .. على الاقل

هناك حركة وحياة يمكن ان تستمد منها بعض الامل ، ولكن الرمال جرداء قاحله تهرب منها كل مظاهر الحياه .

سبع ساعات والقطار اللاهث يدب على قضبانه الضيقة بلا انقطاع .. وزحفت صفوه الرمال على وجوه الرفاق وكفت السننهم عن الحركة وكانت عيونهم تقول كل شيء ..

كانت علامات الطريق المثبت فسوقها ارقام الكيلو مترات تجرى في اتجاه مضاد ومساو لسرعة القطار ، كل علامة تقفز تطوى معها صفحات كتاب الحياة فيما قبل سبتمبر سنة ١٩٥٩ .

مائتي كيلو متر مائتين وعشرين و مائتين وثلاثين ، مائتين وخمسين ثم على مرمى البصر سورا ابيض غريبا ولامعا وسطا الاصفرار الداكن المحيط ويعلو السور كلما اقتربنا منه وتنضج ملامح المباني الداخليه ويشير أحمد طه : - أخيرا وصلنا .. هذا هو سجن المجاريق .

كان أحمد طه الوحيد بيننا الذي يعرف المكان قد غادر هذا المكان منذ ثلاثة شهور فقط بعد ان انهى فترة العقوبة التي اصدرتها ضده محكمة عسكرية ١٩٥٤ حيث كان من ابرز القادة العجاليين الذين سعوا الى تنظيم وتكوين اتحاد عمال قومي يكون معبرا عن الطبقة العاملة المصرية ولقد كان أحمد طه يستلهم في ذلك تراث اخيه عبد القادر الضابط الاسمر الذي اغتاله الملك فاروق في اوائل الخمسينيات بعد ان بدأ مثله مثل كثيرين من الضباط الشبان يكشفون فضائح النظام الملكي والمأساة التي عاشها الضباط والجنود في حرب فلسطين نتيجة خيانة النظام والاتجار بالاسلحة الفاسدة : كان أحمد مثل اخيه شرسا عنيدا في الدفاع عن طبقته العاملة المصرية وكان وهو موظف صغير في شركة ماركوني

يكون اللجان النقابية ويذهب الى النمسا ممثلا للعسك
المصريين في المؤتمر العالمي للنقابات العمالية ..
وحيثما القي القبض عليه سنة ١٩٥٤ دافع عن العمال المصريين
وعن حقهم في تنظيم انفسهم بعيدا عن تدخل السلطات وهاجم
ذوى الياقات البيضاء من النقيبين الصفر الذين باعوا مصلحة
الطبقة العاملة مقابل بعض الميزات الخاصة الصغيرة التي
اغدقها عليهم البوليس السياسى .
وبالرغم من أنه كان قد اتم السنوات التي حكم عليه
بها وافرغ عنه في يناير ١٩٥٩ الا ان ذلك لم يمنعه من
اعتقاله في ٢٨ مارس هو وزوجته فقد كانوا يعرفون انه ليس
من النوع الذى يسلم السلاح .



واقترينا من بوابة السجن الغريب الموحش وسط صدين
من العساكر يقفون في حالة استعداد بينما كل منا يحمل
حاجياته وشنطه وأقدامنا تنفوس في الرمل الذى لم نعود
عليه ..

كانت الشمس الشديدة طوال النهار قد بدأت تشحب
وتصفر اشعتها وهى تكاد تفرق من خلفنا وسط الرمال ..
ونحن ندخل كالأشباح الأسطوريه الزنازين التي اعدت لنا
بالإبراش والبطاطين .

وجلسنا على البرش متعبا مرهقا بعد رحلة دامت أكثر من
٢٤ ساعة واحساس بالوخشة يملؤ أعماقنا. بينما كان زميلي
محسن الخياط على البرش المجاور مسند رأسه على جدار
الزنازة يتمتم فى صوت نصف مسموع كلمات بول ايلوار
الشاعر الفرنسى الذى أعدته النازيون .

على الغابة ، على الصخر
على صدى طفولتي
على كل الصفحات البيضاء
حجارة كانت أو دما
ورقة أورملدا

اكتب اسمك •
على بركة الشمس الاسنه
على بحيرة القمر المتألق
على كل لهفة فجر
على الجبال الرعناء
على مزلاج بابي
على جباة رفاقي
على هلاجيء الخربه
على جدران صخري
وحتى فوق الصمت
اكتب اسمك •
على عتاب بلا رغبه
على عزله عاريه
على مخاطرة خفيه
على امل بلا ذكرى
على خطوات الموت
اكتب اسمك •
وبقوه الكلمة .. ابدأ حياتي ثانيه
نقد ولدت لاعرفك ... ولاحبك
ولاسميك .. أيتها الحرية •

- ٨ -

ومن بين القضبـان ٠٠ وفي
 عتمة الليل وبالرغم من الجدران
 الثقيلة الجائمه على صدرى ٠
 فأن قلبى ينبض مع ابعـد
 نجم فى السماء ٠
 (ناظم حكمت)

اكتوبر ١٩٥٩

المحاريق ٠٠٠

ياله من اسم يعبر تماما عن تلك البقعة الجرداء الوحشة ٠٠٠
 أى محاريق أكثر من أن تقبـع فى زلزاة خلفها حراس ثم
 أكثر من مائتى كيلو متر من محيط اصغر يفصلك عن ماء
 النيل وخضرة واديه ٠٠٠

وبفض النظر عن بعض الحكايات التى ترجع الى وقائع
 تاريخية او الى روايات اسطورية فإن المكان كان « محرقه »
 بحق ٠٠٠ يقولون ان الاسم يرجع الى العصر الميلادى الاول
 حينما كان يتعرض المسيحيون الاوائل لعسف واضطهاد
 الحكام الرومانيين ٠٠ وأن جماعة من هؤلاء قد هربوا بمبادئهم
 الى تلك البقعة والقى القبض عليهم فاجرقوا فى أحـد
 الاخايد ٠٠ ومازالـت هناك بالفعل ، وعلى بعد بضعة كيلو
 مترات من السجن بعض المقابر والشواهد التى يزورها
 المسيحيون من حين لأخر ٠٠

والبعض يقولون ان التسمية تعود الى شدة وقسوة الشمس
 واشعتها فى تلك المنطقة حتى انها تحول كل شـئ الى لون داكن
 أو فاحم ، وبالفعل فإن كل شـئ هناك فى حالة شبه احتراق
 ٠٠ الرمال ليست صفراء بذلك اللون الكهرمانى المعروف بل

يشوبها رمادية خفيفة وبعض اشجار النخيل والزيتون والخروع المتفرقة هنا وهناك سوداء اللون ضعيفة البنية كالحلة ٠٠ .

حتى الانسان ٠٠ وقد رأينا بعضهم ونحن في طريقنا الى السجن ، من النوع القزمي النحيف الذي يخالط شحوب وجهه سمرة داكنه ، وتحس لدى رؤياهم بأنك امام نماذج متحفية وتاريخية انعزلت عن التطور البشرى ووقفت كجنس منفرد تحيطه الصحراء الشرسية من كل ناحية تفرض عليه الانعزال والضمور ٠٠

ولقد فسر بعض زملائنا الاطباء هذه الظاهرة بأنه نتيجة للنقص فى مركبات الكالسيوم وانفوسفور المفقودة فى ذلك المكان بالاضافة الى انعدام الاختلاط والتجانس ٠٠

ولقد اكد لنا هذه الحقيقة رؤيتنا فى اليوم التالى لوصولنا لزملاء لنا كانوا يقضون فترة سجنهم فى ذلك المكان بعضهم مضى عليه اكثر من خمس سنوات ٠٠ كان معظمهم من الاسماء التى سمعت عنها كثيرا عندما كنت طالبا فى الجامعة ثم اسمع بين الحين واخر أنه قد القى القبض على البعض وانه صدرت بحقهم احكام بالسجن تتراوح بين ٣ سنوات وعشرة سنوات ٠٠

كانت البدل الزرقاء التى يلبسونها ووجوههم الشاحبة وعيونهم الفائرة قد اوجت لى من اللحظة الاولى لرؤياهم اننى امام اشباح هاملتية تعيش فى تلك الصحراء لتعذب ضمير مصر كلها ٠

كان منهم صلاح حافظ الكاتب الشاب فى روز اليوسف والذى طالما كنت أحس برنة الفرحه والتفاؤل وانا اقرأ كتاباته .

وكان منهم مصطفى طيبة ومجدى فهمى العاملين للذان القى القبض عليهما قبل سنة ١٩٥٢ ، ومحمد شطا احمد قادة

العمال في شبرا الخيمة ، وحمدي عبد الجواد وفؤاد عبد الحليم الطلاب في الجامعة المصرية في اوائل الخمسينات والذين حوكموا لانهم عملوا على تنظيم الفلاحين وتوعيتهم ضد الاقطاع وجبروته .

وزكي مراد ومحمد خليل قاس المنقفان النوبيان اللذان حاولا ايقاظ ابناء جلدتهم من سبات الجهل والتخلف المفروض عليهم .

وداود عزيز ووليام الملك ، اثنان من اشهر واصدق الفنانين التشكيليين اللذان كانا يمثلان مدرسة جديدة في الفن منه سلاحا قويا في يد المضطهدين من اجل اعلاء كلمتهم .

اكثر من مائة سجين عاشوا في تلك البقعة سنوات واعتادوا عليها وكانت رؤيتهم لنا والتقاءنا بهم اشبه بروافد تتجمع بعضهما جديد وبعضها قديم لتكون كلها مسارا لنهر واحد لديه من الشباب وقوة الاندفاع ما يجعله يعلم بأنه سيمرق يوما من هذه الصحراء دون ان تجف مياهه لتلتقي بالنيل العظيم .

هكذا كان شعوري في الايام التالية وبعد الانتقاء بالزملاء المسجونين أو بهؤلاء الجدد الذين رحلوا قبلنا من الفيوم او من القلعة .

كان هناك ثلاثة عنابر كبيرة يضم كل عنبر عشرين غرفة .

وفي عنبر واحد وضعنا معنا كل المعتقلين سواء الدفعة التي سبقتنا في يونيو أم هؤلاء الذين رحلوا من القلعة في مارس . . اما عنبر اثنين فقد اقام فيه المسجونون الشيوعيون ، وفي عنبر ثلاثة كان هناك المسجونون من الاخوان المسلمين الذين صدرت ضدهم احكام سنة ١٩٥٤ في اعقاب محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر اثناء خطابه في ميدان المنشية بالاسكندرية .

لقد استطاع الرفاق حقا أن يخلقوا حياة خاصة ومزدهرة
 في تلك البقعة سرعان ما بدأت تستوعبني وتخفف كثيرا من
 أحاسيس الوحشة التي انتابتني في اليوم الاول .
 كانوا في حاجة لنا مثلما نحن في حاجة لهم .
 * ولم يكن غريبا، وفي الأيام الاول ان ترى أجسد المعتقلين
 الجدد مصطحبا احد المسجونين القدامى . . الاول يحكي عن
 الحياة الاخرى التي تركها منذ شهر تنبض وتقفز في
 الشوارع والمنازل بذكرى شبه خضراء لم تجف بعد ، والثاني
 يعطيه بعض الخبرات عن عالم السجن الذي عاشه لثلاث
 او خمس او سبع سنوات .

ولقد ادهشني ونا اقف امام بعض اللوحات التي رسمها
 داود عزيز أو وليام الملك ان أجسد نبض الحياة قويا في
 الخطوط ، في الفكرة وفي الألوان . وبقيما ادهشني تلك
 القدرة على الخلق والابتكار التي تشع من خلف نظارة صلاح
 حافظ بعد اكثر من خمس سنوات في ذلك المكان .

بقدر ما احسست بالخجل من ذلك الضعف والاحساس
 بالضباع الذي اجتاحتني ونحن في الطريق يوم وصولنا .
 واحسست بأن هناك فرقا كبيرا بين ان تحب الحياة وتدافع
 عنها في داخلك وبين ان تسمح لليأس والضياع بأن يجريان
 في دمك . . ان الدفاع عن الحياة قناعة واحساس داخلي وليس
 مجرد أشكال مظهرية . . فهناك الكثيرون ولا شك الذين
 يعيشون في ربوع الوادي بلا قيود ومنافي أو سجون لا يحبون
 الحياة ولا يدافعون عنها بل ويعملون على تشوييها بينما
 تلمس من اللحظة الاولى في عيون الرفاق والذي قضى بعضهم
 اكثر من خمس سنوات بين الاسوار رنة امل موحية مازالت
 تنظر الى ما بعد الحاجز الاصفر بطموحات متجددة .

كان كل يوم يمر يزداد الانسان فيه تكيفا مع العالم الجديد
 . عالم السجن المنعزل والذي لم يكن في حاجة بالقطع لهذا
 السور الابيض القائم .
 وانتهت حكايات اللقاء . . حكايات كلها قديمة واكثرها

حدثنا يرجع تاريخه الى ابريل الماضى .. وحكايات مغللة
فى القدم .

وبدأت ، مثلما بدأ الزملاء الجدد ، يبحثون عن وجودهم
فى عالمنا الجديد .. البعض من الفنانين وهواة الفن
التشكيلى والنحت راحوا يمارسون هوايتهم .. وآخرون
مثلى بدوا يضعون مشروعات قصص او دراسات .. واغرق
البعض انفسهم فى قراءة الكتب الموجودة ولم تكن قليلة
وبعضها جيد .. وتولى بعض الزملاء تنظيم حياتنا العامة
فى حدود الامكانيات المتاحة .. اى ان يتولواهم استلام كل
ما يرد اليها من طرود ونقود يرسلها اهالى البعض ثم يقومون
بتوزيع الاحتياجات على المعتقلين والمسنونين بالمساواة ،
بغض النظر من ان الكثيرين وخاصة العمال وانفلاحين لم يكن
يصلهم شئ .

وفى المساء وحينما تغلق الزنازين وكانت الزنازنة تضم
بين ١٢ الى ١٥ شخصا يبدأ توزيع المهام التى يكون عمدة
الزنازنة قد حددها .

فهذا يعيد طهى الاكل الذى يوزعه السجن والذى لم يكن
يختلف كثيرا عن الاكل فى معتقل انفيوم ، قطعة البجن وبعض
العسل الاسود واروانة عدس او فول وفى بعض الايام اروانة
تورلى .. وكنا نسميها الحشائش الغريبة وبها قطعه صغيرة
من اللحم .. وبعد انتهاء العشاء يقوم آخر بصنع الشاى ..
هذا بينما يكون هناك زميل قد جهز نفسه ليروى لنا قصة
عالمية او مسرحية او يحكى بعض خبراته الخاصة ، وفى بعض
الليالى تدور مناقشات سياسية حول الظروف التى تمر بها
البلاد والمنطقة العربية .. بينما يشترك كل اثنين او ثلاثة
فى تدخين سجارة « ونجز » .

وفى الصباح كنت اقوم بزيارة لبعض الزملاء المسجونين
فى عنبر (٢) اذ كنت مشوقا لان اتعرف على تجربتهم الطويلة
فى السجن .. وايضا للتعرف على تقديراتهم السياسية لما
يجرى من احداث .

على ان عنبر (٣) حيث الاخوان المسلمون كان يشدنى هو الآخر وكثيرا ما كنت اتوقف طويلا في اتفناء الذى يفصل عنبر اثنين عن عنبر ثلاثة لأنامل بعض هؤلاء الذين كانوا يتميزون أما باللحية التى اطلقها غالبيتهم او بالاجسام الممتلئة .

لقد كنت دائما اختلف مع الاخوان المسلمين حتى قبل ان اكون ماركسيا . . فقد كان هجومهم على حزب الوفد وتعاونهم مع الملك احيانا والغموض الشديد الذى كان يكتنف شعاراتهم الوطنية والاجتماعية يبعدنى عنهم فكريا . . كما ان تجربتى معهم فى الجامعة بعد ذلك وعدم قدرتهم على اجراء حوار او نقاش واللجوء الى العنف دائما قد ضاعف من اعتراضى على منهجهم .

واليوم يجمعنا سور واحد وتحيط بنا صحراء واحدة وتحكمنا وتتحكم فينا ادارة واحدة . .

ولقد كنت اسأل الزملاء الذين عايشوهم لسنوات فى هذا المكان عن علاقتهم بالاخوان وعرفت انها ظلت علاقات جوار طيبة فقط . اذ كان الاخوان وقيادتهم يرفضون اجراء اى حوار مشترك . . بل انهم كانوا يعتبرون وجود الشيرعيين فى السجن امر طارىء لان عبد الناصر من وجهة نظرهم اخطى شيوعى فى المنطقة .

وعبنا حاولت ان اناى بنفسى عن المشاكل . . كنت لا اتصور ان هناك من يضمنى معهم سجن واحد ثم لا أعرفهم حتى ولو كانت آراءونا متباينة . وذات صباح رأيته .

زميل « عاشور » كان طالبا معى فى الآداب والقى القبض عليه فى ١٩٥٤ وحكم عليه لعشر سنوات لانتمائه الى التنظيم السرى للاخوان .

وبرغم اللحية وامتلاء الجسم وتغير بعض تضاريس وجهه الا اننى ناديت ، والتفت الى بجلد واقتربت منه ولما لم يستطع ان يتعرف على قدمت نفسى له .

وسرعان ما القى بالقناع الجامد الذي يضـمعه على وجهه
وتعانقنا طويلا .

كانت نجـمعنا ذكريات كثيرة ايام الجامعة .. كنا على طرفي
نقيض في قسم انجليزى ولكننا كنا فى نفس الوقت اكثر
الطلبة حوارا ومناقشة وحركة .

كان هو مثلا يصدر مجلة « انهدى » وكنت اصدر مجلة
اسمها « الفجر » .. بل وكثيرا ما كنا نلتقى فى الكافيتريا
لنجرى حوارا مفتوحا وسط الطلبة حول الافكار والنظريات
المختلفة ومستقبل مصر .

كان هو يرى ذلك المستقبل فى خلافة اسلامية تستمد
اسسها وقواعدها من الشريعة الاسلامية .
وكنت ارى هذا المستقبل فى اشتراكية حقيقية تعطى لكل
حسب عمله وجهوه دونما استغلال او تمايز طبقي .

وكان هناك امر جديد بيننا .
كنت اناقشه فى الاسلام الحقيقى لاصل به الى ان مبادئه
الاصيلة تتفق مع الاشتراكية التى ادعو اليها .
وكان هو يناقش فى الاشتراكية لافئاعى بانها تاتى مسح
النظام الاسلامى الذى يدعو اليه .
كنت اقول له انت اشتراكى ترفع لواء الاخوان .

وكان يقول لى وانت مسلم ترفع لواء الشيعيين .
لم يكون لديه الجمود التقليدى الذى تميز به الاخوان فى
تلك الفترة بل انه لم يكن يحب العنف الذى يلجأ اليه الاخوان
فى الجامعة حينما كانوا يستخدمون الكرايبج والسكاكين فى
اقناع معارضيتهم .. بل كان يدينه وبشدة .
ولقد كنا اصدقاء حقا رغم اختلاف وجهة نظرنا ولكن لم
اشك لحظة فى ان عاشور واحد من ابناء مصر المخلصين .

ولقد عشنا يوما كاملا ، وقد جلسنا خلف مطبخ السـجـن
نجرى ذكرياتنا المشتركة بل ونضحك حتى تدمع اعيننا .
وعندما حان وقت التمام طلبت منه ان اراه فى الغد .
ولكن وجهه اكتسب حيرة مفاجئة ثم قال :

— افضل ان اراك مرة واحده فى الاسبوع ٠٠ وهنا بعيدا
عن العيون ٠
— أى عيون ٠٠ !!

— عيون الاخوان ، انهم لا يرتاحون لمثل هذه اللقاءات ٠
لماذا ؟
وابتسم فى مرادة

— انت تعرفهم ٠٠ ولست اريد مشاكل معهم ؟ انهم اخوان
على اية حال ٠

لهذه الدرجة يجمعنا سجن واحد ومحنة مشتركة وتخافون
من المناقشة والجدل ، اننا هنا جميعا لاننا لم نتعلم بعد كيف
نناقش الفكرة بالفكرة ٠٠ ألم يفهموا الدرس بعد ٠

وسلم عاشور على اتفاق بأن نلتقى كل يوم سبت فى هذا
المكان ٠

وكان يوم السبت ٧ نوفمبر ، وكان موعد لقائى الثانى مع
عاشور وجاء متأخرا بعض الوقت وهو يتلفت خلفه كثيرا
وضمكت

— كأنك تقوم بمهمة سرية

— ان هناك عقولا متحجرة كما تعرف ٠
وهرة اخرى غرقنا فى ذكريات الكلية ٠٠ واخذنا نستعيد
بعض اشعار شكسبير وشيلي ولورد بايرون و ت ٠ س ٠
أليوت ٠

واخذ يتلوجزء من قصيد اليوت « الارض الخراب » بصوت
مرتعب ٠

• بييدة الصمت
• حزينه ساكنة ٠٠ ومنهكه
الوردة الوحيدة فى الحديقة
• تنتهى بالآلام
• تنتهى بلانهاية ٠

في رحلة بلا آفاق •
ونجت شجر « العرعر » الخروج
تتناثر العظام •
وفي يوم بارد تباركه الرمال
تتجد العظام في الصحراء •
هذه هي الأرض التي نقتسمها •
ليس المهم ان نقسم او نوجد
ولكن هذه الأرض هي التي ورثناها
لقد كان عاشور مغرما باليوت وباشعاره الحزينة واليائسة
وقد كنت دائما اسخر منه ومن اليوت •
ولكنني استمعت اليه هذه المرة وقد كان يجيد القاء الشعر ،
ووجداني كله يهتز ، ليس لما يقوله اليوت ولكن للطريقة
التي يقول بها عاشور •
وقبل ان اتركه هذه المرة .. قال
- على فكرة ... بعض الاخوان كانوا في الادارة النهاردة
وسمعوا كلام واستعدادات عن حاجة بكرة تخصصكوا •
- حاجة زي ايه •
- محدش عارف بالضبط • يمكن ترحيلة .. يمكن
دفعة جديدة او يمكن حد مسئول هيزور السجن •
قلت له ضاحكاً •
- يا سيدى .. على اية حال .. غدا يوم آخر •
وكان بالفعل يوماً آخر

- ٩ -

اشم شيئا يحترق
أرجو ألا يكون عقلي
(جندى أمريكى فى فيتنام)

٨ نوفمبر ١٩٥٩

اجرى .. اجرى .. اجرى
الكرايبج والعصى الغليظة لاتترك فرصة للتفكير
اركع ... اركع .. اركع

وضربات الشوم وديشك البندقية لا تكف عن العمل فى
جسدك .. ونار هائلة مشتملة تكاد تشم منها رائحة اجساد
بشرية تشوى .. وبعض رؤساء قبائل « اكلة الحوم البشر »
تجلس فى انتشاء وهى تتفرج على الفريسة
- اسمك ايه ياولد

وسواء اجبت ام لم تجب لابد وأن تنهمر عليك الضربات
من كل مكان وبكل وسيلة بما فيها ركلات الاحذية « الميرى »
- بتشتغل ايه يا بنى الـ

والشوم والديشك والاحذية لا تكف عن العمل
- عاملى سياسى يا بنى الـ

- قول انا مرة .. قول انا كلب .. قول انا حمار .
ورغم المفاجأة المذهلة ، ورغم التخطيط المحكم الذى ينقلك
فجأة الى عالم يضييع فيه العقل فان واحدا من المائتين معتقل
لم يشذ عن احد ثلاثة فى اجاباته :

- انا مصرى
- انا اشتراكى مصرى
- انا احسن منكوا

لم يكن أكثرنا تشاؤما يتصور ان ذلك يمكن ان يحدث .
 وحين طلب منا فى الصباح الباكر من ذلك اليوم ان يحزم
 كل منا امتعته فى انتظار الا امر ، دارت كل التصورات
 والتوقعات حول ترحيلة جديدة .
 ولكن اغلاق الزنازين والاوامر المشددة بعدم الكلام نم ذلك
 الشحوب القلق الذى يعلو وجه ضباط السجن وعساكره
 وحتى قائده كان يوحى بأشياء مبهمة صعبة التفسير .

كان كل ما استطعنا ان نعرفه ان اللواء اسماعيل همت
 وكيل مصلحة السجن ومعه فرقته الشهيرة بقرقة همت
 قد وصلت مساء امس الى الواحات . وكان ذوى الخبرة فى
 السجن المصرية يعرفون همت بأنه ناعم الصوت رقيق الجسد
 أخمر الوجنت تركي الملامح والجذور ثم شديد القسوة فى
 معاملته للرجال وكان بينه وبينهم ثار ، ولديه ولع مجنون
 بتعذيب من يتوسم فيهم رجولة مكتملة ثم الاصرار على ان
 يقول واحد منهم « بأنه امرأة » .

وبعض النظر عن الحكايات التى تروى عنه وبانتمائه الى
 الجنس الثالث الذى هو ليس بين الرجال او بين النساء ،
 فلقد اكدت لى تجربتى مع هذا الضابط الدموى نظرية كنت
 قد قرأت عنها بخصوص « التفسير السيكولوجى للشخصية
 النازية » استخلصها المؤلف من دراسات واقعية على عدد من
 من مجرمى الحرب النازيين والفاشين بل وامتد فى دراسته
 الى الشخصيات التاريخية التى عرفت بقسوتها واسنماعها
 بالتعذيب والقتل .

وتقول النظرية ببساطة ان مثل هؤلاء من الرجال او النساء
 غالبا ما يعانون من شذوذ جنسى مما يؤدى بهم الى كراهية
 عميقة لانفسهم وللناس والحياة حولهم ويعيشون دائما
 فى « حالة انتقام » .

وبدأت اغرب تمثيلية شهدتها فى حياتى بل وكان لى دور
 فيها .

ينادى احد العساكر ستة اسماء ويخرج الزملاء حاملين

معهم كل أمتعتهم وتمر بعض الدقائق ثم فجأة نسمع هرولة
وصرخات مكتومة وصهيل خيل وفرقعات سياط وكأننا نسمع
موسيقى تصويرية لأحد افلام المارك .
ثم ينادى على ستة أسماء أخرى . . وهكذا .

وحتى هذه اللحظة ، وبمرور أكثر من نصف ساعة على
بدأ المشهد الأول الذي اخذ يتكرر كل عشرة دقائق كان كل
ما استطعت أن اصل اليه بانفعالاتي المحتدمة مع الصرخات
المكتومة وصرخات حوافر الخيل وفرقعات السياط أن شيئاً ما
رهيباً في الخارج . . ما هو ؟

وجاء دوري ، ونودي اسمي مع خمسة آخرين . . كان من
بينهم الصاغ الدكتور محمود القويسني، والمهندس الجيولوجي
فخري لبيب ، والشاعر محسن الخياط والطالب الجامعي وجيه
سمعان وعامل النسيج محمد عبد الواحد .

خرجنا من الزنزانة ثم من العنبر في صف واحد امامنا
عسكري وخلفنا عسكري كل منهم شاهراً سلاحه .
وقبل ان نصل الى بوابة السجن التي كانت مفتوحة على
مصراعها وامامها صف من الحيايلة ممسكين بسياطهم واخرين
ممسكين بالعصى الغليظة . . انسحب الجنود بسرعة
واحدما يقول في الم واعتصار :
- شدوا حيلكو . . ربنا مأكوا .

وانتقلنا فوراً الى القرون الوسطى بخروجنا من البوابة .
اجرى . . اضرب . . كرايبيج . . شوم . . الرأس . . العين
الجبس . . يلتهب . . اجري . . فرسان القرون الوسطى
يركبون الخيل وفي يدهم السياط يضربون الفريسة
وينهكونها . . وعلى الصفيين طابور من كلاب الحراسة يمسك
بالعصى تنهش . . وصرخات الغابة الوحشية تمتزج فيها
ضحكة الضبع الجائع المجنون مع ضوضاء القردة وعواء
الذئاب ولولات الصفور .

ثم وعند نهاية سور السجن قرب البوابة الخلفية . .
جلست محكمة التفتيش . . رغم كسل شيء . . رغم العصي
والسياط التي تنهمر كالطرر . . ورغم الاوامر . . اركع . .

اقعد .. اخفض رأسك .. فلقد كنت مشسوقا ان اراه ..
امبراطور الجنس الثالث *

وريت كل ما هو سيء وحقير وحاقد على الناس والحياة ..
الامبراطور التركي اسماعيل همت ..
كان يجلس كجنرال يقود حربا خطيرة تحت مظلة اقيمت
له والى يساره قائد السجن والى يمينه عدد اخر من ضباطه ..

كان الدم يكاد ينفجر من خدوده الحمراء المكتنزة وهو
يضحك بينما جسده كله يهتز ونحن نخلع كل ملابسنا
لنقف عراة امامه بينما يقوم الحلاق باجتثاث كل شعر في
أجسادنا بموس معه ابتداء من شعر الرأس حتى الحاجبين
وشعر الصدر والعانة .. اما ملابسنا وشنطنا فقد القيت في
نار هائلة مشتعلة ..

وبدا الجنرال النازي يمارس هوايته مع الرجال العرايا ..
واشار بعصاه الى الصاغ الدكتور محمود القويسني الذي
كان في اول الصف :
- اسمك ايه يا ولد

- الصاغ دكتور محمود القويسني
- صاغ ايه ودكتور ايه يابن القحبة .. اسمك ايه يا واد
- صاغ دكتور محمود القويسني
- بتتحدى يابن الـ .. والله لحط العصاية دي في ..
- عيب يا اسماعيل يا همت !!

قالها الدكتور القويسني في ثقة ومرارة .. بينما العصى
والسياط تنهمر على جسده الغاري وهمت يصرخ ويشاركهم
في الضرب ..

كان الدكتور محمود القويسني ضابطا في سلاح الفرسان
حتى ١٩٥٤ وكان اسماعيل همت ايامها قد فصل من الجيش
« لمساائل اخلاقية » في بداية ثورة ١٩٥٢ ثم اغيد ضابطا في
مصلحة السجن .. وكان الدكتور القويسني يعرفه جيدا
ويعرف نقاط ضعفه فلطالما وقف اسماعيل همت بين يدي

محمود القويسنى ذليلا مستضعفا لايجرؤ على ان يرفع رأسه
 اليه ميتهلا بالتوسط لاعادته الى الخدمة .
 وجاء الدور على الطالب وجيه سمعان .
 - اسمك ايه يا بن الـ
 - وجيه سمعان .. طالب بأداب القاهرة .
 - منين يا وله
 - من جزيرة شندويل بسوهاج
 وصرخ همت فى نباح كالكلبة
 - يا بن الـ .. نصرانى وصعيدى وبن سيعوى !!

هكذا ينظر التركى همت الى المصريين .. ونسى ان رئيس
 جمهورية مصر فى ذلك الوقت جاء من الصعيد .. ونسى ايضا
 التراث المصرى الاصيل الذى لايفرق بين المسيحي والمسلم فى
 وادينا الحبيب .

وجاء دورى .. وصمت تماما ، لم اجب على صراخه
 واسئلته .

احسست بالتقزز من كل ما يجرى ، نسيت العصي المنهمرة
 والكرابيج بل نسيت جسدى ونفسى تماما سوى شئ واحد
 . لقد كان عقلى متيقظا وكان القرار ان الموت افضل من ان
 افقد انسانيتى .

- انت مش سامعنى يا بن الـ .. اكلم يا وله .. هاموتك .
 ووقفت صامتا ، وكففت حتى ان ارفع يداى لاتلقى الضربات
 او اتحرك هنا وهناك هربا من الشوم المنهمر .
 ماذا يمكن ان يقول الانسان لهذا الكلب المسعور .
 وتقدم المهندس الجيولوجى فخرى لبيب حيث يقبع همت
 وهو ويصرخ :
 - انت فاش صغير .. انت قاتل .. ستدفع الثمن يوما .

وتراجع همت ومن هول المفاجأة ، ولكن سرعان ما عادت
 آلهة التعذيب والموت كلها تطبق على فخرى .. كل العساكر
 بما فى ايديهم من كرابيج وشوم تعمل على جسده المارى .
 وسقط فخرى على الارض ، وتجرا همت واقترب منه ؟

واخذ يضربه بحذائه •
وايقنت ان فخرى قد قتل •• ولكن ذلك لم يكن كافيا من
وجهة نظر الفاشى التركى ، فأمر بأن يصلب فخرى على
العروسة ، ووقف ثلاثة من الزبانية يتبادلون ضربه بالكرباج
•• وهمت يصرخ •
- قول انا مرة •

وصوت فخرى لا يكف محملا بكل الآلام ولكنه صادر من
الاعماق

- انا احسن منك • انا اشتراكى مصرى •
كنت اتابع ضربات الكرباج على جسد فخرى الذى تفجر
كله باندم والكدمات ويحتاجنى احساس بالعجز الشديد
وبالاحتقار الشديد لكل شئ حتى نفسى •

اكثر من سبعين جلدة صمت بعدها صوت فخرى تماما
وارتمى رأسه على كتفه ، كان هناك فيما يبدو اصرار على
قتله ، فأنزلوه من على « الصليب » واخذ همت يقلب رأسه
بحذائه ثم يقول بصوته الانثوى :

- لسه عايش ابن الثور •
وصرخ فينا قائد المعتقل •

- ياللا •• على العنبر •• خدوه معاكم •
وحملنا فخرى بين ايدينا •

خمسة من العراء يحملون زميلا لهم يطرق الموت جسده ،
وخلفهم جوقة من الكورس العسكرية الذى لا يكف عن الضرب
• حتى دخلنا العنبر •

ترى هل واجهت المرعيات هذا الموقف وهن يحملن المسيح
من على صليبه بعد ان نزف حياته قطرة قطرة ••

ترى هل كان بلال على نفس الصورة بعد ان ظل ثلاثة
ايام يضرب بالسياط وهو مصلوب فى بطحاء مكة الى ان
حمله المؤمنون الاوائل •

ترى هل جاء نفر من رفاق سبارتاكوس بعد ايام ليخلصوا

المسامير التى دق بها جسده فى شجرة على الطريق الرومانى
المعروف بطريق الصليبان .

المسيح . . بلال . . سبارتاكوس . . كل هؤلاء الذين
حملوا بالحجر والعدالة والمساواة . . صور حفرت فى رأسى
وانا صغير ولكننى لم اكن اطمع ان اراها واعيشها مثل ذلك
اليوم .

عادوا كلهم الى ذهنى ونحن نحمل رفيقنا . . وحين دخلنا
الى الزنزانة ظللت صامتالم اكن مصدوما مثلما تصور رفاقى،
بل لقد كنت فى تمام الوعى والادراك . . كنت ارى فخرى
ممددا وسط الغرفة والزملاء حوله يتلمسونه ويريدون ان
يبعثوا فيه النجاة من جديد .

وكنت ارى واسمع الدكتور القويسنى وهو يهز فخرى
بصوت مبلل بالدموع :

- فخرى . . فخرى . . رد علينا . . ثم وهو يقول
بصوت اكثر اطمئنانا .

- قلبه ينبض . . الكلاب . . !!
وجيه سمعان وهو يمسك بظهره ويتألم فى صمته . .
ومحمد عبد الواحد وقد وضع رأسه بين يديه واخذ
ينتحب .

ومحسن الخياط وقد راخ يردد :
- دامش معقول . . احنا فين . . احنا فى غابة .

- وجاءت دفعة اخرى . . دخلوا الزنزانة . . اجساد عارية
منهكة . . يختلط عليها الدم بانثار ضربات الشوم والكرابيج
.. ويرتمون وهم يلعنون ويتأوهو .

وجاءت دفعة ثالثة . . اثنى عشر زميلا فى زنزانة ، عارون
تماما وقد تغيرت ملامح وجوههم ، بلا شعر وبلا خواجب .
وتقدم منى محسن الخياط يتفرس فى وجهى وهو يقول:
- انت مين .
- انا . .

— مش معقول .. داشكك غريب خالص .. ياخبر ..
وضحك .

وتفرست انا في وجهه .. وضحكت .. بل وامتدت
ضحكاتنا .

وضحك كل من في الزنزانة .. وبدأت الضحكات ترن
في الزنازين الأخرى .. وفي دقائق كان العنبر كله يضحك .

وجاء بعض العساكر يستطلعون الخبر .. وارتسمت على
وجوههم الدهشة وهم يرونا نضحك .

و ضرب الشاويش عبد العظيم — شاويش العنبر — كفا على
كف وهو يقول :
عجيبة .

- ١٠ -

أتدرون من المفلس ؟
 قالوا : المفلس من لا درهم له
 ولا متاع ..
 فقال عليه السلام : المفلس من
 امتى من يأتى يوم القيامة
 لصلاة وصيام وزكاة ، يأتى
 وقد تم هذا وفقد هذا واكل
 مال هذا وضرب هذا وسفك
 دم هذا .

(حديث نبوى)

٩ نوفمبر ١٩٥٩

وحينما هام الملك لير فى مسرحية شكسبير الخالدة على وجهه
 وحيدا شريدا ومعه مهرجه المعروف كانت كل أحلام لير تدور
 حول انتصار قيم الحياة الشريفة ، وليس مجرد العرش .
 أما المهرج فحين سأل لير عن أمانيه قال :
 - أمنيتى أن أجد حذاء .

ولقد كنت أضحك دائما مع كلمات المهرج الذى لم يشغله
 فى كل المناسبة سوى أنه يريد حذاء يقى به قدمه العارية من
 غول البرد وغائلته .

وفى ذلك الصباح القارس إدركت أهمية الامنية التى عبر
 عنها الفيلسوف المهرج . انها أمنية الحفاة الجائعين .
 كان اليوم التالى للحفلة الكبيرة التى أقامها الامبراطور
 التركى اسماعيل همت وانطلق صوت البروجى والشمس
 ما زالت فى رحم الافق المشرق تتجمع فى فناء سجن الواحات
 ونحن نجلس القرفصاء فى صفوف متراصة .
 والرياح الخفيفة الثلجة تعصف بأجسادنا المنهكة شبيهة
 العارية والتى لا يستترها سوى بعض الحرق الصفراء التى
 وزعوها علينا لتصبح زينا للرسم الجديد .
 وتحت القدم العارى لساعات الرمال التى تحولت كلها الى
 ذرات من البرد الموجع .

ينفذ من القدم الى النخاع فترتعش الدماء فى العروق .
ولقد سمعت كثيرا عن الجو القارى فى الصحارى ، حيث
البرودة برودة حقيقية وحيث الحرارة حرارة مستبدة .
ولكننى فى ذلك الصباح احسست كما لو كنت قد القيت عاريا
وسط اكوام من الثلج .
وأمام الصفوف جلس قائد المعتقل على كرسى وأمامه منضدة
وفوقها كوب من الشاي الساخن يتصاعد منه البخار .
وتلاحقه عيوني وشفثاى بشغف بالغ .
كوب من الشاي الساخن . . حذاء أو حتى بلغة . . شئ
لسترجع الجسم . . بدلا من هذه الحرقه .
كلها كانت أمانى عظيمة وخالدة فى ذلك الصباح .
وجلسنا أكثر من نصف ساعة فى وضع القرفصاء وأوامر
مشددة بأن ننكس رؤوسنا ، أى ننظر الى ما بين قدميك .
ثم نفخ البروجى . . وجاء الجنرال التركى . . طاووس
منتفخ يحس انه ليس فى هذه الدنيا ، وربما فى السماء ، من
هو أقوى منه .
واخذ ينظر الينا فى تشف غريب ، وباحساس بالزهو
والتفوق باحثا عن آثار « حفلة الكبرى » التى اقامها
بالامس .
وكان الجنرال فيما يبدو قد احس بأنه لم يستطع ان
« يذبح » بالامس ماتصور انها فريسة سهلة له ، حقيقة كان
هناك من كسرت ساقه أو ذراعه أو بعض ضلوعه فى « مهرجان
الضرب والتعذيب » . . ولكن الفريسة لم تخضع ولم تفقد
احاسيسها الانسانية الدافئة كما تصور .
ولعل آخر شئ سمعته قبل ان ينام فى تلك الليلة ، هي
تلك الضحكات التى انطلقت من الغرف والعنابر التى كانت
تسخر منه ، بل وتعمق لديه الاحساس بالحيوانية .
طوال ليلة مس كان « العقل الجماعى » لنا يفكر . . مثلما
كان يفكر دائما . . بل ان عقولنا فى تلك الليلة كانت متقدة
ومتألقة ربما لاحساسها بأننا لم نعد نملك سواها فى مواجهة
عاصفه عاتية من الظلمة والعسف . . ووصلنا الى قرار . .
لايد من هزيمة الغرض الذى جاء من أجله همت . .
وكان الاتفاق بيننا . .

لا مانع من ان نحني رؤوسنا قليلا اذا كانت مجرد عاصفه طارئة ..
 اى نفاوم اية محاولة لانتهاك آدميتنا وفي اطار عدم اعطاء الفرصة لهمت بأن يجرى مذبحة .
 كنا قد عرفنا بالامس اننا سنذهب فى الغد للعمل فى الجبل وكانت هناك ثلاثة احتمالات فكرنا فيها جيدا واستطعنا ان نضع خططا عاجلة ومتغيرة لمواجهةها .
 اما ان يكون المطلوب من كل ماحدث هو ان يصلوا بنا الى نقطة الصفر ، أى تجريدنا من كلى الحقوق التى يتمتع بها المسجونون لكى نكف عن الحديث فى السياسة والمطالبة الافراج والحصر مطالبنا فى الحقوق التى سلبت منا .. أى باختصار ان نفقد شخصيتنا السياسية المفكرة لتتحول الى مجرد مسجونين .. ويتحول صراعنا الى ذاتية حيوانية من اجل البقاء .

واما ان يكون هناك مؤامرة عاجلة يدبرها الامبراطور همت بخروجنا للجبل لانتهاز أى فرصة للتخلص من أكبر عدد منا خارج الاسوار برصاص المدافع الرشاشة .. ويمكن اختلاق مبررات كثيرة .. ابسطها التمرد والهيّاج .. خاصة وان له سابقة فى ذلك ..

صدرت الاوامر لنا بالنهوض والتقدم نحو بوابة السجن .
 ومضينا فى اربع مجموعات مترافقة تحرسنا المدافع الرشاشة من الجانبين وتنهال علينا الشتائم والاورام وضربات الحيزران اللاسع .

وعند البوابة ... حدث شئ له دلالة :
 فعندما بدأنا نخرج .. طلب الامبراطور همت من قائد المعتقل ان يوقع على كشف البوابة ، وصمت القائد لحظة ثم نادى على اليوزباشى عبد العال سلومة وكيل السجن وأمره بأن يوقع على الكشف .. وكانت المفاجأة .

قال اليوزباشى سلومة بصوت مسموع :
 — متأسف يا افندم ... انها ليست مسئوليتى .. وأدرکنا الموقف على الفور .

لابد وانه قد دار فى عقل المأمور واليوزباشى سلومة

احتمالات ان يمارس الامبراطور همت نزقه معنا .. وهم
لا يريدون ان يتحملوا مسئولية ذلك .

ومرت لحظات طويلة قاسية مليئة بالانفعال الشديد
والصامت .. ونحن وقوف على اعتاب البوابة نشهد الموقف
وندرك ابعاده .

ولا بد ان الامبراطور قد احس بهزيمة مخططة وانكشافه في
تلك اللحظات فعاد يصرخ ولكن بصوت مهزوم ..
- خلصنا يا حضرة المأمور .. دول مسئوليتك ..

ووقع المأمور على كشف البوابة .. ولكن بعد ان أكد
مسئوليته ..

وخرجنا الى الصحراء .. ترحيلة أخرى ..
المقاول همت ومعه قائد المعتقل « وفرقة الحفلات الشهيرة »
في عربات الجيب في المقدمة .. ثم طوابير « العمال والفعلة »
يحرسهم الحولية بمدافع سريعة الطلقات .. وفي الحلف فرقة
السجن تحمل المدافع والبنادق .

ورغم نسجات البرد اللافحة وذرات الرمل والحصى والشوك
التي كانت تنغرس في قدمي العارية .. ورغم كل الاحتمالات
التي كانت تدور في الذهن فيترصدها بين لحظة وأخرى ،
الا ان امتداد الافق امامي بلا أسوار كان شيئا طيبا في حد

ذاته .. ومع الخطوات السريعة المنتظمة التي أمرنا بأن نمشي
بها وشمس نوفمبر التي بدأت تفرض وجودها احسست بدفء
وحياة تسري في عروقي فتهمز ما كان يجتاحني من احساسيس
بالبرد والخوف .

واخيرا وصلنا الموقع ، على بعد اربعة كيلو مترات من
السجن .. كان المكان اشبه بوادي صغير يقع بين تلين من
الكثبان الرملية .. وكانت ارضه داكنة تختلط فيها لون
الرمل الاصفر مع تربة رمادية وانتشرت فيها بعض النباتات
الشوكية مما يوحي بأن ثمة حياة كانت هنا .

وحانت اللحظة وكان المسرح معدا بعناية .

صعد همت ومعه فرقته على الكنبان الرملية وأحاطونا بسرعة
من كل جانب بالمدافع الرشاشة .

وانتهبت كل حواسي ، وتبادل الزملاء نظرات ذات مغزى .

هذه اذن هي المقبرة التي أعدها لنا . . . وبدأ كل منا يعد
نفسه للمعركة التي توقعناها . . . فمع أول طلقة رصاص تصيب
أحدنا . . . علينا أن نتشب فيهم أظافرنا .
لحظات جريها ولاشك المسيحيون الاوائل حين كانوا يجمعونهم
فى الأخاديد ويعملون فيهم السيف .

وجريها ضحايا النازية والفاشية حين كانوا يطلقون
الرصاص على طوابير المعتقلين .

لم أفكر فى أنى قد أكون أول من أسقط ولكنى كنت افكر
فى كيف أنتقم . . . كان يجتاحنى احساس بأننى سأصل الى
همت نفسه ولن أرض بغيره ، بل وأخذت أتصور كيف
سأتصرف معه حين تمسكه يداى بكل الغضب والحقد والالم
الذى يجتاحنى .

ونادى همت على المأمور لكى ينسحب هو وضباطه وجنوده
وصاح الزميل المهندس سيد عبد الله قائلا :
— ياسيادة المأمور . . . نحن أمانة فى عنقك وستتحمل
المسئولية . . .

وانتفض المأمور كالثور الهائج يضرب سيد عبد الله بلكمات
عتيفة . . . ولكنه لم يتحرك ، ولم يتركنا بل أصدر أوامره
للضباط والجنود بالالتفاف حولنا والبقاء معنا . . .
وكان معنى ذلك ، وبفض النظر عن هياجه وتوتره ، ان
المأمور قد حسم أمره وقرر ان يتصرف فى اطار مسئوليته .

وعاد همت ينادى . . .
ووقف المأمور يصرخ فينا بصوت أعلا من نداء همت . . .

— : اسمع انت وهو . . . انا ممكن أقتلكم كلكم . . . حياتكم
عندى لا تساوى شيئا . . . عندى أوامر بضرب الرصاص عند

اى تمرد .. فاهمين .. مش عاوز اى تمرد .. فاهمين ،
دلوقتى الفئوس والغلقان والديوره هتتوزع عليكم .. مطلوب
انكم تنقلوا التلال الرملية دي .. اى تقصير فى العمل
ها اضرب بالنار فوراً .. مفهوم .

... مفهوم .. كان المأمور بجسده الفارع الممتلئ وصوته
العالى المنفعل وهو يهدد ويتوعد وفى نفس الوقت يتجاهل
نداءات همت أقوى من أى شخصية درامية رسمها اسخيلوس
أو شكسبير .

كان من الواضح أن الرجل قد أخذ موقفه ليس دفاعاً عنها
وعن أرواحنا - بل عن نفسه ، فهو لا يريد أن يتحمل مسؤولية
مجزرة قد يسأل عنها فى المستقبل .. ولعله لا يختلف عن
همت سوى فى ذلك الامر .. انه يعرف أن هناك غداً آخر وقد
يكون له حسابات أخرى .

وبدأ الضباط والشاويشية يقسموننا الى «مصالب» أى فرق
عمل ويوزعون علينا الفئوس والغلقان وأدوات العمل الأخرى .
وهم لا يكفون لحظة واحدة عن استخدام ألسنتهم وعصيهم .. .
هذا بينما سعد المأمور إلى همت فوق التل .
وكان الموقف كله أشبه بمسرحية غريبة .

على المستوى الاول ، وفوق التل ، صراع بين نمطين أنتجتتهما
مدارس التعذيب والعذاب للإنسان ، النمط الاول أصبح مسعوراً
متعطشاً للدم بأى شكل وعلى اية صورة مثله مثل النمر المتوحش
الذى يسعده البطش بالفريسة حتي ولو لم يكن جائعاً .

والنمط الثانى أشبه بالثعلب الذى يجرى دائماً حساباته
بين رغبته فى الفريسة وخوفه من المفترس .. اذ انه يدرك
فى النهاية انه يمكن ان يصبح هو الآخر فريسة لمن هو أقوى
منه طالما ان الذى يسود هو شريعة الغابة .

كان هذا الصراع الوحشى ، يدور على التل .. ونسمع
بعضاً منه مثلاً فى صرخه هائلة للنمر ومحاولات التهدة التى
يقوم بها الثعلب .

بينما على المستوى الآخر للمسرح ٠٠ وتحت التل ، نروح ونجىء محملين بمقاطف الرمل تحت وابل من ضربات الحيزران والشوم الذى لا ينقطع بينما عقولنا وقلوبنا وآذاننا كلها مع هذا الحوار الدموى الذى يجرى بين النمر والنعلب حول مصيرنا ٠

ويبدو أن نغمات الضرب المتواصل الذى ينهال علينا مع صورتنا ونحن فى خرقنا البالية نحمل الرمال والصخور مهرولين قد أمتعت عين وسمع النمر وبدأت تشدد انتباهه بل وأخذ يروح ويحيى فوق التل متأملا لوحة فنية رائحة تشبع أحاسيسه الحيوانية ٠٠ بل وأخذ يلقي ببعض أوامره للضباط والعساكر الذين يقومون بدور الايقاع الصوتى بعصيم وكرابيجهم ويرسمون فى نفس الوقت ظلال القسوة والهمجية المطلوبة ٠

وكأى ما يسترو أصيل ينفع مع اللحن خرجت أوامره الى الجوقه ٠

— : العساكر تشد حيلها شوية فى الضرب ٠ المقاطف تتملى كويس ٠٠ الاولاد الى هناك دول ماشيين على مهلهم ، بيتفسحوا ولاد الب ٠٠٠ ضرب الكرابيج أحسن ٠٠٠ عاوز اسمع صراخهم ٠٠ مغيث رحمة بيهم ٠٠ اضرب زى ما بتضرب كلب ٠

وبالطبع كانت أوامر اللواء «المايسترو» تنفذ على الفور ، فيزيد صغير الكرابيج ووقعها على الاجساد كما ترتفع ذبذبات العصي وهى لا تكاد تتوقف لحظة فى أيدي العساكر ٠٠

أما صراخنا فلم يسمع منه اللواء المايسترو شيئا لاننا كتمناه فى الاعماق ٠٠ وحينما نفخ البروجى لى النفير يودع السيد اللواء النمر وهو يركب عربته وخلفه فرقته يفادر الموقع بل والواحات كلها الى القاهرة ، تمثل وداعنا له فى بصقات على الارض خرجت من كل واحد منا وبدون اتفاق سابق ، بل وشاركنا فى توديعه «بالبصقات» بعض العساكر وهم يخرجون بعض تنهيدات الارتياح ٠ وبالرغم من أن الضرب ، وربما بنفس الوتيرة ، استمر طيلة

اليوم الا أن رحيل همت وفرقته قد أزاح من الموقف عاملا خطيرا. ومتوترا كانت فيه أعصابنا ، بل أعصاب قوة السجن بما فيها المأمور ، مشدودة متحفزة •
ولاشك ان همت وهو يتجه بعرباته الى أسبوط ثم القاهرة لم يكن سعيدا مثلما تصور وهو يأتي الى الواحات •

حقيقة مارس كل ابداعاته الفنية في الضرب والتعذيب طيلة ٢٤ ساعة ، ولكن حقيقة أخرى لابد وقد أحس بها هو أنه لم يستطع أن ينزع منا آدميتنا وعقولنا •
فلقد كان ختام حفلته الليلة الماضية ، ضحكات تنطلق من صدورنا تسخر منه ومن حيوانيته •

كما كان ختام مؤامرتة في الجبل ، بصقة جماعية تودع هيلمانه الزائف وهو يتحرك ••
واجتاحنا احساس بالانتصار الصامت ، عكسته نظرات انقة التي أخذنا نتبادلها وبعض الابتسامات التي ارتسمت على وجوهنا •

حقيقة ضربنا واهنا بل ومازلنا نضرب ونهان ونعامل بنفس الدرجة التي يعامل بها الحيوان ، ولكننا استطعنا ان نؤكد عظمة الانسان وقدرته حيث لا يملك ان يدافع عن نفسه الا بالعقل والعقل وحده في مواجهة كل حيوانات الغابة المفترسة •

بل اننا استطعنا أن نكسب من بين صفوف العساكر والضباط الذين دربوهم جيدا وشحنوهم بشحنان حيوانية حاقدة ، لقد أيقظنا عقول بعضهم وأثرنا في نفوسهم مشاعر وأحاسيس انسانية مرة أخرى واكسبتهم فيما بعد ، وباعتراف كثيرين منهم ، احتقارا شديدا لكل ما كان يمارس معنا ولدورهم فيه •

وكانت الساعة قد قاربت الرابعة ، حينما أمرنا بالعودة الى السجن •

وشمس الاصيل تفرد ظلالنا طويلة ممدودة على الرمال ، وكل منا يحمل فأسا او مقطعا يعلقه بكتفه •

وتمضى طوابير «الشغيلة» مقتربة من أسوار السجن بعد
يوم طويل من العمل الشاق والجهد النفسى .. يوم لن ينساه
ولا يجب ان ينساه كل أبناء وبنات مصر الطيبين .

ولسعت حواسى رائحة العدس عند دخولى من البوابة ..
ولم ألق بالا لحارس البوابة الذى أصر على أن يختتم كل منا
بعضاه وشتائمه لتعويض بعض مما فاته فى الجبل .. كنت
جائعا ، وكانت رائحة العدس أجمل رائحة شممتها فى حياتى
بل اننى لم أجرب أشهى وأطعم من وجبة العدس فى ذلك
اليوم .

- ١١ -

لحل الدين بلا خوزه
عزل شرفاء •
بلا أحذية ، بلا قفازات •
يتألق شعاع من النور في
عروقنا •
بول ايلوار - قصائد المقاومة

ديسمبر ١٩٥٩

- : لماذا ؟

كنت أسأل أبي وعيني غارقة في بحر من الدموع وشهقات
البكاء الخانق تأخذ بصوتي وهو يحكي لي ولاخوتي استشهاد
الحسين بن علي •

- : لماذا ... لماذا ...

نعم ، لماذا وقد حوصر الحسين من قبل جيوش الفاسق يزيد
بن معاوية ، ومنع الماء في كربلاء ولم يبق معه سوى أهله •
لماذا لم يستسلم الحسين انقاذاً لحياته وحياة أبنائه وأهله ،
لماذا لم يبايع في تلك اللحظة والموت يطل عليه من كل ناحية
في أرض الكرب والبلاء ممثلاً في آلاف السيوف المشهرة، تريد
رأسه طمعاً في المال والسلطة والجاه •

وكان أبي يضمني اشفاقاً ويهديء من بكائي •

- : كان الحسين عظيماً ، فلم يكن يخشى في الحق لومة لائم
ولا ننسى انه ابن علي بن أبي طالب و «فاطمة الزهراء» وسيد
شهداء أهل الجنة ... ولكن الامر لم يكن مقتعاً لي تماماً وكان
هناك شيء ما يكبر معي ، وكان يتساءل :

ما الذي يدفع الإنسان لان يرفض ان يقول كلمة يمكن أن
تنقذ حياته وحياة أهله ؟ كلمة واحدة كانت مطلوبة من شهيد
كربلاء لينذهب طليقاً ومعرزاً •

- ١٠٢ -

لقد طلب الحسين من قائد الجيش أن يخلى بينه وبين الماء ،
ثم يتركه يفكر . . ورفض طلبه .
وطلب أن يعود بأهله الى المدينة ليتقلب الامر . . ورفض
طلبه . . كان المطلوب كلمه أو الموت . وحمل الحسين سيحه
وظل يقاتل ويقاتل حتى خر صريعا وبينه وبين الماء الذي حرم
منه بضعة أمتار . . ولم يقل الكلمة . . لم يقل بالبيعة
المفروضة ، بل اندفع الى مصيره المحتوم وهو يقول بالسيف
وتحت التهديد :

فان عشت لم أندم وان مت لم ألم
كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

وكان على أن أنتظر فترة طويلة لامر بتجربة عملية لأعرف
الجواب الصحيح على السؤال الذي عذبنى صغيرا اشفاقا منى
على حياة الحسين .

ان الانسان الذي يحمل فكرة او عقيدة ويؤمن بها ايمانا
حقيقيا لا يمكنه تركها او هجرها تحت وعيد السيف ، ان
أصحاب الأفكار الانسانية دائما ما يكونون أكثر تفتحاً على
الحياة أكثر تفتحاً على الأفكار والآراء الأخرى ولكنهم أمام البطش
والسيف أكثر قوة ، على عكس من لديهم نزعات اربابية
وفردية ، فان مثل هؤلاء ينكسر بل ويتحطم عند أول عصا
ترفع عليه .

وفى موجة الارهاب الدموي واليومي الذي كنا نتعرض له
فى الواحات ، كنت أحس بأن الفكرة التى دخلت بها المعتقل
تتحول فى داخلى الى يقين غريب ، كنت كلما تلقيت ضربة
شومة او لسعة كرباج أقاومها بمزيد من الايمان بالاشتراكية
والانسان ، بقيم الحب والعدالة والكراهية العميقة لكل ماهو
حيوانى واستغلالي ، كل مايمتهن الانسان . . كل من يرفع
عصا أو بندقية فى مواجهة فكرة أو رأى . . بل وكان يجتاحنى
احساس بالقوة ، ليس فقط ازاء العساكر والضباط الذين
يمارسون التعذيب ، بل وازاء من أمرؤهم بذلك . وكان هذا شعورا
جماعيا بين كل الزملاء فى تلك الفترة ، ربما فيما عدا زمرة
قليلة ممن يتعمدون أن يدسوهم بيننا لاشاعة جوا لاستسلام

والضعف فى مثل تلك الظروف . . . وحتى هؤلاء لم يكن
ليستطيعوا أن يلعبوا دورهم وسطنا فى تلك الفترة .
وكان الامر غريبا بالطبع بالنسبة للشاويش محمود
والشاويش متى وغيرهم من العساكر .
فبينما كنا نقوم بأعمال السخرة اليومية فى الصحراء
نادانى الشاويش محمود ، ودار حوار غريب :
- : بتشتغل ايه ؟

- : صحفى .
- : عاجبك الضرب والاهانة الى بتشوفه كل يوم . . .
دانتو بتعاملوا ولا الكلاب .
- : طبعا مش عاجبنى
- : طب ماتخرج .
- : ايدى على ايدك .
- : تسيب الى اتقى دماغك .
- : قصدك أسيب دماغى .
- : يا ابنى اخرج ، وانت صغير ، وعيش ، واتمتع بالدينيا ،
وبلاش حكاية الدماغ دى بيودى فى داهيه .
- : آهو لو حصل كده ، ابقى كلب بحق وحقيقى .
- : يا خرابى . انتوا دماغكوا دا ايه . . مصفح . . حجر
.. روح . روح . الظاهر انتوا غاويين شقا . .
ولقد كان هذا الحوار أو المناقشات تتكرر كل يوم بين أحد
العساكر وبين أحد الزملاء . . وخلال شهر واحد ، كانت الغالبية
العظمى من العساكر وحرس السجن اما متعاطفين تماما معنا ،
أو على الاقل غير قادرين على تنفيذ التعليمات المشددة التى
يشحنونهم بها كل يوم بزيادة جرعات الضرب والتعذيب ، بالرغم
أنهم - كما علمنا - كانوا يختارون لنا أكثر الحرس شراسة
وكانوا لا يرسلون للوحدات سوى من يتوسمون فيهم القسوة
بالإضافة الى أنهم كانوا يعدونهم فى مراكز تدريب خاصة
حيث تلقى عليهم محاضرات خاصة عن التعذيب وشحناتهم
بشحنات عصبية حاقده بتصويرنا على أننا « كفرة وملحدون
» وخونه وعملاء . . . الخ .
ولكن العصى دائما تنكسر فى مواجهة العقول « المصفحة » . .

كما ان اليد المرتعشة والتي لانؤمن بما تفعل بل ولا تعسرف
مبررا معقولاً لما نفعل تكون خطراً أكثر على من سلمها البنادق .
وهذا ما بدأت بواقده ، وما كان من السهل علينا وعلى قيادة
المسفل أن ندركه . وفى الجبل حيث كنا نعمل من السابعة
صباحاً حتى الرابعة ، بدأ كل حارس يتخذ لنفسه صخرة عالية
ويجمع حوله بعض المعتقلين يتبادلون الاحاديث والنكات فى حين
يستمر العمل بوتيرة هادئة وبطيئة .

وقلت بل وكادت تنعدم الشتائم وضربات الحيزران والشوم
.. وأصبح هناك عقد غير مكتوب بيننا وبين الحرس فى
الجبل . هو ان نهض فقط للعمل وبسرعة اذا لاح فى الافق
عربة تقل أحد لضباط أو قائد المعتقل .

اخترنا لهذه المهمة زميل خفيف الدم والحركة نحيف الجسم
هو عبد الملك خليل كان يقبع فى قمة تل عال فاذا لمح عربة
متجهة نحونا يصيح .. بلوهام .. بلوهام .. فينهض الجميع
الى الفأس وحمل الرمال والصخور .

ولقد ظل الشاويش متى مشغولاً فترة طويلة بمعنى كلمة
بلوهام .. حتى أنه اقسام « بالعذراء أم الشهيد » بأن يجلد
عبد الملك خليل حتى يبوح له بسر كلمة بلوهام .. ولم يقتنع
الشاويش متى ربما حتى الآن بأنها كلمة لا معنى لها
على الاطلاق تفتقت عنها قريحة عبد الملك
الساخرة .. على أن الامر لم يكن يخلو فى
هذه الايام بأن نفاجأ فى الصباح وقبل ان نصطف فى طابور
الجبل بالعنابر تفتح علينا وبالعساكر ينهالون علينا ضرباً
بالقايش والحيزران .. وعرفنا أن قائد المعتقل كان يحرض
على هذه الغارات الصباحية الدامية كل اسبوع او عشر ايام لكي
يظل الجو ملتهباً وليبعث فى عملية التعذيب « تنشيطاً وحيوية »
وكذلك كان يحرض على ان يأتى كل اسبوع الى الجبل فيتحول
الجبل يومها الى حركة سريعة تقطع الانفاس وتصفر الكراييح
والعصى على اجسادنا ، ونعود فى مثل هذا اليوم وكل منا يحمل
أثراً احمرار على جسده أو دماء متفجرة على جبهته ورأسه ،
وفى بعض غزوات القائد كان يعود بعضنا برجل دامية من ضرب
الفلة اوضلع مفقوداً وجسد ممزق نتيجة الجلد على العروسة .

وفي اليوم التالي نتلقى الاعتذارات الخفية من العساكر والشاويشية بل ان احدهم اقسام بالطلاق يمينا لارجعة فيه انه لن يضربنا مرة ثانية حتى لو كان الوزير هو نفسه الذي يأمره . وثمة معركة اخرى كنا نشترك فيها جميعا ، عساكر ومعنقلين ، فبالاضافة الى الاحساس بالغربة في تلك الصحراء القاحلة والبعد عن حيث الزوج والام والابن والاب كانت المناطق التي نعمل بها مليئة بالثعابين والحيات الخطرة والعقارب . . . وقد كادت نحدث مآسى كثيرة حيث كنا نعمل حفاة الاقدام ، وكثيرا ماينفض الانسان قدمه فجأة بعد أن يحس بأن هناك شيئا يزحف عليها ويكتشف انها عقرب من النوع الخطر ، كذلك فإن حية الطريشة « الحية ذات الاجراس » كانت تمثل لنا انزعاجا شديدا وخاصة فقد اكّد الزملاء الاطباء مختار السيد وعبد المنعم عبيد وحمزة البسيوني وشكري عارز وغيرهم أن لدغتها بالقبر .

وحين يصبح احد الزملاء « طريشة » يسارع الجميع بأنفؤوس ليقضوا على تلك الحية الخطرة . . . لقد كانت حصيلة اليوم الواحد حوالى اربعة حيات وعشرون عقربا وأكثر من خمسين ثعبانا مختلفة الاشكال والاحجام . . . وبدأنا ندرك ما كان خافيا عنا أو على الأقل لم لكن نعتبره مقصودا في البداية .

فالقأنا في هذا المكان بالذات الذي عرفنا فيما بعد أن السكان يسمونه وادي العقارب ، خفاة الاقدام شبه عراه في عمل لاجدوى منه ولا منفعة لايمكن الا ان يكون فيه من الرسم والعمد بحيث تقوم الحشرات السامة بما لم يستطع أن يقوم به همت وزبانيه التعذيب .

واكد لنا بعض العساكر هذه الفكرة وخاصة بعد ان كان اول ضحية بلدغة الطريشة هو واحد منهم ، ولقد عمق ذلك الاحساس بالسخط وبدأت الحواجز تنهار بيننا وبينهم في كل لدغة عقرب يصاب بها زميل أو يصاب عسكرى بلدغة ثعبان . . . ووبدأنا نبلور مطلبا محددا هو ان نذهب للعمل بالآخذية . . . وحينما نطق الزميل المهندس سيد عبد الله بهذا المطلب امام قائد المعتقل ونحن في طابور الصباح استعداد للخروج

انهال عليه القائد ضربا بعصاه اخذها من احد العساكر وهو
يصرخ كالثور الهائج .

- : أنا معنديش مسجون يطلب حاجة .. ازاي تتجرا
ياكلب .. كويس انكم لسه عايشين .

كانت مفاجأة للمأمور انحصا مازلنا آدميين
لم نتكيف بعد اكثر من شهرين على معاملة
« الحيوانات » التي ارادوها لنا .. وأعطى اوامره في ذلك
اليوم بأن تزيد جرعات العمل وأيضاً جرعات الضرب واختار
أحد ضباطه المقربين والمغرمين بالتعذيب لكي يصحبنا كل
يوم الى الجبل ليشرّف بنفسه على الشغل .

ولحسن الحظ ، وربما لأول مرة يكون للبيريوقراطية بعض
الفوائد ، فإن الضابط المدلل الذي يضيق بوجوده في الواحات
بعيدا عن القاهرة ونواحي الخمر والقمار . بعيدا عن راقصة
الكبارية التي كان مولها بحبها لم يستطع أن يمارس المهمة
فيمرط نفسه كل يوم معنا في الجبل وسط الاتربة والرمال
والشمس المحرقة وايضا وسط العقارب والطريشة والنعاين .
فسرعان ما نفّض يده من المهمة بعد اسبوع مارس فيه معنا
كل عقده وغبائه وحاول أن يغرق احساسه بالغربة في ذلك
المكان بمنزلة من الضرب والتكيل بنا .

فكان يكتفي بعد ذلك بالمرور لمدة قصيرة ثم يذهب بالحبيب
الى مدينة الخارجة التي تبعد عشرون كيلو ومترا عن موقع
العمل ، حيث كان هناك ممرضة جديدة في مستشفى الخارجية
يقال ان الجميع كان يتنافس عليها من ضباط السجن الى
حاجم المدينة وطبيبيها والمهندسين العاملين فيها .

ولقد أتاح لنا ذلك « راحة » منه على أي حل .. وعادت
الامور في الجبل الى ما كانت عليه .. حركة شكلية ومجموعات
الزملاء تجلس في حلقات تحت شجيرة خروج أو في ظلال تل
تستمع الى قصة أو الى محاضرة سياسية أو ثقافية أو فنية ،
والعساكر هم الآخرون ينضمون احسانا الى بعض الحلقات
أو يكونوا لهم حلقة أخرى من بعض الزملاء القادرين على تبادل
التكات والدردشة معهم .

وحين نسمع صوت عبد الملك خليل الصاروخ في البريه
« بلو هام » تذب الحركة والنشاط في موقع العمل فلا نسمع

والحصى • وكان الباشاويش منى وهو قائد العمل ممثلة بالرمال والحصى وكان الباشاويش فتحي وهو قائد العمل فى غياب الضابط قد أدمن الجلوس الى الصحفي محمود السعدنى والاستماع الى نكاته وحواديته الساخرة والاذعة المعروفة عن السعدنى • • وكان ذلك فى صالحتنا بالطبع وخاصة حين يجلس منى فوق صخره كالملك ويقبع السعدنى بجانبه مضحكا للملك وتنطلق ضحكات متى الضخمة ويعزم على السعدنى بسيجارة ونجز كاملة •

ولقد سافر الباشاويش متى الى بلدته بجوار أسيوط فى اجازة لبضعة ايام وعاد يمارس عمله وجلساته مع مضحك الملك • • الا اننا فوجئنا فى يوم من الايام بالشلويش متحى بجسده الضخم يجرى وراء السعدنى الذى اخذ يهرول ويتدحرج على التسلال كالغار الصغير ومتى يقسم « بأمر المخلص » ليحطمن رأسه بالشومة • • وتدخلنا بالطبع فى محاولة لتهدة الشاويش متى ومعرفة السبب فى هذه القطيعة التى لم تكن متوقعة بين الشاويش الهائج والصحفى المذعور •

كان الشاويش متى منذ اليوم الاول لعودته من قريته مهموما حزينا الامر الذى جعل محمود السعدنى يحاول ان يهون عليه ليعرف سبب حزنه •

— أصل الواد ابني اخذ الإعدادية

— طيب ودى حاجة تزعل يا حضرة الصول دا ابنك يبقى عبقرى

— أصل الى مضايقتي ياسعدنى ان الواد عاوز يكمل تعليمه والحال زى ما أنت عارف يدوبك عاقلد •

— ياراجل واحد عبقرى زى ابنك لازم يكمل تعليمه وأهو التعليم بالمجان وربنا يساعدك لحد ما يأخذ التوجيهية

— طيب وبعد الثانوية يا سعدنى • • يروح فين

— يروح الجامعة يا حضرة الصول •

جامعة ايه انت راخر • • هو انا معايا صلدى واحد • •

د أنا بستلف على ماهيتي قدها مرتين علشان أمشى حالى • • تقولى يروح الجامعة •

— طبعاً لازم يروح الجامعة ولد عبقرى زى كده ماتحرموش من أنه يكمل تعليمه ويروح كلية الطب والا الهندسة والسلا

الحقوق واللا الآداب ويبقى مثقف .
 - مثقف .. يافرحتى .. طب وبعد كده
 - يجى هنا معنا يا شاويش .
 ثم أشار السعدنى آلىنا وهو يقول :
 - أهم كل الى انت شايفهم دول جم هنا علشان بقم
 مثقفين .

وهنا بالطبع لم يتحمل الشاويش متى سخرية محمود
 السعدنى فلم يكن الرجل يتصور أن ابنه العزيز والعبقرى
 يأتى الى هذا المكان ليعامل « كالكلاب » مثلما نعامل .
 وقام وراء السعدنى يقسم ليحطمن رأسه .. ولكن الامور
 عادت الى مجاريها بعد يومين بين الشاويش متى ومحمود
 السعدنى ، وبذلنا كل ما فى وسعنا لأرضاء الشاويش وقام
 السعدنى ومعه جوقته المكونه من القاضى أحمد البدنى والكاتب
 أحمد شوقى عبد الحكيم وعامل ماتوسيان نصر عبد الرحيم
 باغراق متى مرة أخرى فى بحر من النكات والقفشات الخفيفة
 التى انسته جريمة السعدنى .. ولكن الامر لم يقف عند هذا
 الحد .

فلقد عرفنا عن طريق السجانه أنهم سيرحلون الى سجون
 أخرى لان فرقة جديدة فى طريقها الى الواحات .
 ولم يكن من الصعب أن نعرف السر وراء هذا التغير فلقد
 ادركوا أنه بالرغم من التدريب الخاص للعساكر وبالرغم من
 النوعيات الخاصة التى يتم اختيارها وبالرغم من كل الاجراءات
 التى اتخذت معنا وائتى تحرمنا من كل شىء يمكن التأثير به على
 العساكر ، الا أن عقولنا المصفحة قادرة على النهاية على أن تهز
 أعماقهم فتكسر فى أيديهم ادوات التعذيب وتذوب كلمات الإهانة
 فى حلوقهم ، ويضيع كل شىء مصطنع ولا يبقى فى القلب
 سوى الود والتقدير أو على حسب تعبير أحد العساكر الذى
 كان معروفًا بقسوته الشديدة معنا .

- : كنت أضربكم بحرقه كنت أريد لكم الموت ، فأنتم كفار
 وخونة وعملاء .. هكذا قالولى .. ثم اكتشفت بعد ذلك أنكم
 أكثر الناس إيماناً وأكثرهم إخلاصاً وأكثر الناس حباً لمصر
 ولشعب مصر .

- ١٢ -

كانوا يصعدون ويصعدون
نحو الجلجثة والمسيح في الامام
وركبته تلتويان تحت ثقل
الصليب والعذراء خلفهم وآلاف
مؤلفة من العيون تبكي .
ومن أحشاء الأرض خرج
صوت .. لا تبكي ياسيدتنا ..
تشجعي لتعطي الشجاعة
للعالم .

(الانجيل)

٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٩

الساعات الاخيرة من عام ١٩٥٩ والشمس والتلال والصحراء
لا تدرك ولا تعي أن حدثا كبيرا قد هن الانسان على مثل تلك
الذكرى حين ولد مسيح البشرية ومخلصها الذي جاء يرفع
سيف الحق والعدالة في وجه الظلم والاضطهاد والتعسف
يرفع سيف الفقراء والرعاة والصيادين والمضطهدين في وجه
القيصر والحاكم والكنيسة الفريسيين الذين عاثوا في الارض
فسادا وملاؤا من عرق المتعبين قنينة النبيذ .

والشمس والتلال الصحراء ومعها هؤلاء الجنود الظالمين
والمظلومين لا يدركون أن هؤلاء الحفاه والعراء الذين تمتزج في
جبهاتهم حبات العرق والتربة والرمال ، وتنحل أجسادهم
وتغور آعينهم ويستبد بهم الجوع ما زالوا يؤمنون ، مثلما آمن
المسيح بالانسان المتحرر من الخوف والاضطهاد واستغلال اخيه
الانسان يحملون مثلما حمل المسيح صليبهم كل يوم في رحلة
العذاب وبدر كون ايضا مثلما بشر المسيح بأنه لا يفيد الانسان
إذا كسب العالم وخسر نفسه .

والعساكر الجدد جاءوا منذ أيام ما زالوا منجهمي الوجه لا يدركون مثلما أدركت الدفعة السابقة انهم امام تلامذة المسيح المخلصين ووارثي كل قيم العدالة الاسلامية الذي نادى بها سيدنا محمد وطبعا حلفاؤه الراشدون واستشهد الحسين بن علي من اجلها .

ولدى عودتنا من المعتقل بعد يوم عمل شاق كان كل ما يشغلنا هو كيف نحتفل بهذه المناسبة ، والحقيقة انه طوال العشرة ايام السابقة على رأس السنة كانت تجري استعدادات حافلة وعلى قدر الامكانيات المتاحة للاحتفال في وقت واحد بعيد الميلاد وبمرور عام على بدء اعتقالنا .

فبدأ الزملاء المسجونون يخزنون لنا بعض السكر والشاي لتذوق هذا المشروب الذي لم نره منذ حفلة اللواء همت الدموية الا في ايدي الضباط في الصباح ، كما اعدت لجنة الحياة العامة التي كانت تتولى تنظيم حياتنا الداخلية بما في ذلك الاتصال بالادارة وتدليك العساكر ، مفاجأة عظيمة تمثلت في كمية من السجائر استطاعت ان تحصل عليها بوسائلها الخاصة لكي يمكن توزيع سيجارة على كل معتقل في تلك المناسبة ، وتم ترتيب كل شيء بدقة بالغة .

وعندما أغلقت بوابة العنبر الرئيسية بدأت الاحتفالات على الفور . وفي كل غرفة أشعل الموقد - التوتو - ووضعت « أكواز » الشاي لتعطر الغرفة وجلسنا نتأمل التوتو والشاي تباهيا باحساس الانسان الاول حين يجد النار تشتعل فجأة حين ضرب زلطة بقدمه فاصطدمت بأخرى . كما وزع على كل فرد سيجارة وينجز كاملة . وأسندت ظهري ورأسي الى جدار الغرفة وبجوازي الشاعر محسن الخياط وعامل الستيج مصطفى درويش واشعلت سيجارة . وأخذت نفسا عميقا غريزيا موجيا لم أجربه قبل ذلك . كانت رائحة الدخان والكبريت والشاي والعينون المتحفزة التي تنتظر دورها لترشفت قطرات الشاي مع دخان السجائر تشكل صورة رائعة وحزينة ، وناولت السيجارة الى مصطفى درويش الذي كان في وضع شبه راقد فوضع ساقا على ساق ووضع السيجارة في فمه بشكل ارستقراطي ثم اخذ

نفسا طويلا كاد ينهى به السيجارة .. ونطق محسن بالشعر
وهو يشبه رالى مصطفى
شوف مصطفى درويش
لما تبرجز شرب الوينجز .. فين مصطفى درويش
وأخذنا نردد كلنا الاغنية بصوت جماعى بينمنا مصطفى
يكتفى بان يهزقمه على اللحن .

ثم بدأت الغرف الأخرى ، وكان العنبر يتكون من عشرين
غرفة فى كل غرفة حوالى ١٥ فردا ، تدخل فى حالة الانسجام
والاحتفال .. فكان على كل غرفة أن تقدم عملا جماعيا ، أغنية
أو نشيد أو تمثيلية . وقدمت غرفة واحد اغنية « فى يوم فى
شهر .. فى سنة »
تخلى السجون وتنام .
وعمر سحنى انا اطول من الايام .
وقدمت غرفتنا اغنية
فوق الشوك مشانى زمانى .

وغرف اخرى قدمت بعن التمثليات المضحكة او بعض
القفشات والنكت ، وغرف قدمت اغاني سيد درويش . وماج
العنبر كله بحياة متدفقة مليئة بالامل والضحكات . وانقضت
ساعات الليل الاولى ، ولاول مرة فى سجن الواحات ، سريعة
خفيفة وتلاشت الاسوار وفقدت تماما الاحساس بالسجن
وصاح احد الزملاء .

- عنبر كله يسمع .. بعد عشر دقائق هيبدا اول يوم فى
السنة الجديدة تحية حب منا لكل أبناء وبنات مصر ، لأولادنا
ولأبنائنا وأمهاتنا وزوجاتنا ولأصدقائنا وصديقاتنا ، لكل طفل
ولكل شيخ لكل ولد ولكل بنت .. ولصر أمنا وأختنا وحبيبنا
وانطلق يغنى بصوت أجس .

بلدى يا بلدى وأنا نفسى أروح بلدى
يا عزيز عيني السلطة خدت ولدى
وانطلقنا كلنا نغنى الاغنية التى كان يشدو بها اجدادنا حينما
اخذوهم الى الصحراء حيث ضاعت حياتهم دفاعا عن المستعمر
وأذنا به .. وأخذت أغنى بانفعال صوتى ، وتجددت صورة
أبى وقد اكتسى وجهه الاسمر حزن وأخذ صوته یرن فى آذانى

يا عزيز عيني .. السلطة خدت والدى
انتباه .. انتباه ..

صوت آخر فجر الضحكات لدى الزملاء .. كان تقلدا متقنا
لصوت حارس مأمور السجن ولكن الصوت عاد يتكرر ولم يكن
فى الامر تقليد اذ فتح باب العنبر فجأة ودخل العساكر فى
خطوات سريعة وخلفهم المأمور وعدد من الضباط وهم
يوزعون شتائمهم البذيئة علينا وعلى ابائنا وامهاتنا بل والبلد
التي قدمنا منها .. مسكينة مصر .. !!

وفتحت الغرف غرفة غرفة وهجم التتار علينا بالعصى
والقايش وأوامر مشددة .. كله يبص للحيط ..

وصمت العنبر الا من صوت المأمور وشتائم وأوامره
للعساكر بتشديد الضرب وبعض التاوهات المكتومة وأرتطام
الاجساد بالحائط أو بالقايش والعصى ..

وتحول الموقف كله الى نكتة سخيفة ومقززة فى نفس الوقت
.. فبعدما انسحب المأمور وزبانيته بعد أن أوسعونا ضربا فى
الدقائق الاولى للعام الجديد ، اكتشفنا ان هناك دفعة جديدة من
المعتقلين قد وصلت الى السجن وقام المأمور بحملته الهمجية
لتوزيعهم على الغرف وكان نصيب كل غرفة اثنين او ثلاثة ..
كانت الدفعة الجديدة ممن قضوا السنة الماضية فى السجن
الحربى نظرا لان معظمهم من المجندين والضباط ومعهم ايضا
عشرون من ابناء قطاع غزة المعتقلين منهم الشاعر الفلسطينى
معين بسيسو وعبد القادر ياسين وديب الهر بيطى ومدير
التعليم فى قطاع غزة ..

وبسرعة استعدنا مبادرتنا بعدما اغلق العنبر مرة اخرى
وكانت الحسائر بعض الكدمات والجروح البسيطة وأخذنا
نرحب بالزملاء الجدد وبفرحة حقيقية .. فهم قادمون من
القاهرة الحبيبة ، القاهرة البعيدة .. ولاشك ان لديهم الكثير
من الانباء وخاصة انهم نجحوا فى عزلنا تماما طوال الاشهر
الماضية عن أى اخبار او انباء وبدأنا نمطر الزملاء بالاستئلة ..
كيف الحال فى القاهرة هل قرائتم الجرائد واخبار زملائنا
المعتقلين الذين تركناهم فى اليوم والقلعة ، والعلاقة حاليا
بين مصر والعراق .. وبين مصر الاتحاد السوفيتى ..

وبدأ محمد طه ، المجند والذي قضى فى السجن الحربى ثمانية شهور يحكى وفى كل كلمة قالها كانت هناك اكثر من مفاجأة .

عرفنا أن هناك خلافا نشأ بين قادة حزب البعث وبين الرئيس عبد الناصر وأن أكرم الحوراني وصالح البيطار وغيرهم من قيادات الحزب قد قدموا استقالتهم احتجاجا على ما سموه انتهاك الديمقراطية ، وأبتسمنا كلنا فى سخرية وخاصة ان الحوراني والبيطار وكان احدهما يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية كانا منذ شهور فقط أكثر الناس هستيرية فى الهجوم على الشيوعيين وأتهمهم بأنهم « معادون للقومية العربية » لمجرد انهم كانوا يتصورون ان الاسس الديمقراطية هي وحدها الكفيلة بدعم الوحدة .

هكذا أخذت قيادة البعث درسا بعد أن كانوا يقيسون الديمقراطية بمدى قربهم أو بعدهم هم عن السلطة .

وعرفنا ايضا ان هناك اتفاقا مصرية سوفيتية ببناء المرحلة الثانية للسد العالى وأبتسمنا كلنا فى رضى هذه المرة فلقد كنا ندرك انه ليس فى صالح مصر ولا فى صالح الاتحاد السوفيتي أن تنشأ خلافات بينهما تلك الخلافات التي عملت القوى الاستعمارية والرجعية على تعميقها وتوسيعها طول العام الماضى والتي كانت تريد ان تجنى ثماره فى ابعاد مصر عن عمليات التصنيع والتنمية لى تظل مجتمعتنا استهلاكية اسيراً للمجتمعات الصناعية الغربية .

وعرفنا ايضا ان يورى جاجارين رائد الفضاء السوفيتي قد حلق بمركبته فى الفضاء معبرا عن قدرة العلم فى تحقيق أحلام الانسان من أجل مزيد من الخبرة والاستكشافات وليس من أجل الاستعمار والقهر . وصففنا طويلا للنبا وقام أحد الزملاء العمال يرقص وسط الغرفة ، وشرع محسن الحياط ينظم قصيدة شعر بتلك المناسبة .

جاجارين يسافر الى القمر والفضاء رمزا لانتصار الانسان ونحن نسافر الى غياهب القرون الوسطى ، ولكن محمد طه كان يحمل أخبارا أخرى قتلت الابتسامة على الوجوه وحملت معها

عند البوابه وتجريده من ملابسه وجره من قدمه للمستول أمام
قائد المعتقل حسن منير .

وتقدم الضباط يونس مرعى لاعب الكره الفاشل والذي
عرف عنه انه يفتقد شيئين العقل و !! وسأل فريد حداد .

- اسمك ايه يا ولد
- الدكتور فريد حداد
- دكتور ايه يا بن القحبة - اديله يا عسكرى
- انت شيوعى يا ولد
- أنا مصرى أو من بالاشتراكية
- يعنى شيوعى ، مصنوع فى روسيا
- أنا مصنوع من طين مصر ومعجون من عرق العمال
والفلاحين

- بترد على يا ولد يا بن الـ . .
انهال يونس مرعى ومعه بضعة عساكر بالمصى ودبشك
البندقية يحطمون رأس وجسد فريد حداد ، وصاح فريد
فى وجه يونس مرعى .
انت كلب فاشيستى
وبصق فى وجهه ويقال انها مازالت بقعة مائلة على وجه الكلب
الفاشى حتى الان بالرغم من كل المحاولات التى قام بها لازالة
أثارها . . . ثم سقط فريد شهيدا .

وخيم الصمت ، ذلك الصمت المشحون بأسى الانفعالات ،
وتساقطت دموع ساخنة ، وانتخب بعض من عرفوا الشهيد عن
قرب بينما راح محسن الخياط يردد قصيده للشاعر الفرنسى
بول ايلوار الذى مات فى سجون النازى وهو يدافع عن باريس
الحبيبة .

- باسم العيون التى انظر اليها
- من أجل اليوم وللايد .
- باسم الامل فى المسجون .
- باسم الدموع فى الظلمة .
- باسم الرجال فى السجن
- بأسم جميع الرفاق

الشهداء والقتلى
لأنهم لم يقنعوا بالظل
دعوني أنفس عن غضبي
وأستثير الحديد
لنحفظ الصورة العالية
للأبرياء الكادحين في كل مكان
والذين سينتصرون في كل مكان
والذين سينتصرون في كل مكان

- ١٣ -

الظلم يضرب في كل مكان
يضرب الأبرياء والأبطل
والمجانين ، ولكنى سمعتهم
يضحكون في الشقاء والتعذيب
يضحكون للفرد ويولدون في
الفضح .

(بول ايلوار)

٨ يناير سنة ١٩٦٠

كنت ومازلت متيما بالشاعر الهندي رابندر نات طاغور .
ولقد قيل عنه وعن شعره الكثير فهو شاعر الحب والسلام وهو
المؤمن بالإنسان المقدس للمرأة المناضل من أجل المتعبين .
ولكن شيئا آخر كان وما زال يخاطب أعماقي وأنا أقرأ
أشعاره ، تلك هي جذوة الحزن الكامن والذي يحوله الى طاقة
غريبة يمكنها أن تشع فيضاً من الأمل والاحلام .
ذلك الحزن الحصب القادر على الخلق والابداع هو الذي
جعله يغنى للحياة .
لا أريد ان أموت في هذا العالم الجميل
أريد ان احيا مع البشر .
في ضوء الشمس
في الحديقة المزهرة
وسط القلوب الحية دعني اجد مكانا
دعني ازرع صباح مساء زهور من أغاني جديدة .
ولقد كان علينا أن نزرع زهور أغاني جديده وسقط تلك
الصحراء القاتلة ومع كل تلك الانبياء الحزينة عن زملاء آخرين
لنا يعيشون في القرون الوسطى في غابة أوردي أبي زعبل على
بعد ثلاثين كيلو مترا من القاهرة . .
الطريق . . الطريق . .

- ١١٨ -

مجلة تسمع ولا تقرأ ٠٠ بعد خمسة دقائق في عنبر واحد
٠٠ وولدت أول مجلة صوتية في ردهات عنبر (١) تقدم الصورة
والخبر والكاركاتير والتحليل السياسي والنقد الادبي والقصّة
والشعر .

كل ذلك يقدمه رؤساء التحرير بأفواههم .
ونجحت التجربة وتكررت وبات المعتقلون ومعهم الزملاء
المسجونين ينتظرون الساعة الثالثة من يوم الخميس كل
اسبوع ليسمعوا اخر اخبار مصر والعالم الخارجي مع كل
الابواب التي يمكن ان تصدر بها مجلة اسبوعية مكتوبة مع
فاروق واحد انها مجلة منطوقة تسمع ولا تقرأ .

وقد كنت واحدا من ثلاثة يرأسون تحرير المجلة التي
اشترك فيها بعد ذلك عدد من كبار المثقفين المصريين
والفلسطينيين من أمثال الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله
وأبو سيف يوسف وأديب ديمترى وأير اسكندر والدكتور
فؤاد مرسى والدكتور عبد العظيم انيس ومعين بسيسووطا
عبد الحكيم وحمدى عبد الجواد ومصطفى طيبة وعبد القادر
ياسين وسعيد عارف والدكتور فوزى منصور ٠٠ ولم تمض
اسباح قليلة حتى ظهرت مجلة اخرى من نفس النوع هي مجلة
الهواء واشترك فيها أيضا بعد ذلك عدد آخر من كبار الكتاب
والشعراء من أمثال محمود امين العالم وإبراهيم عبد الحليم
وصلاح حافظ والدكتور شريف حتاتة ورفعت السعيد وعادل
حسين ٠٠٠ وكان من الواضح أن كلا من مجلة الطريق والهواء
كانت ردا فكريا على الواقع المر الذي حاولوا فرضه علينا سواء
فى الواحات أم فى أبى زعبل .

وقد بدأنا نكسر الكثير من الحلقات التي كانت تعمل على
عزلنا عزلا تاما عن الحياة خارج سور الصحراء الواسع والممتد،
وبدأت تصلنا الجرائد - سرا - كما بدأنا فى استخدام العساكر
فى ارسال الخطابات الى ذويها واستلام خطاباتهم سرا .
وحاول مأمور السجن والحق يقال ان يقاوم كل ذلك فبدأ
بحملات تفتيشية مكثفة بحثا عن الاوراق والاقلام التي كانت
تعتبر أم الكبائر بالنسبة لنا ، كما حرص على أن يراقب بنفسه
العمل فى الجبل ولكن ارادتنا كانت أقوى ، كما أن هناك حدثا

آخر كان بمثابة الطعنة القاتلة التي اصابت غطرسه المأمور
وتعسفه ٠٠ فذات ليلة فوجئنا بالعنبر يفتح واستيقظنا على صوت
المأمور وهو يصيح ملتاغا ٠٠ عاوز دكتور من فيكم دكتور ٠٠
وخرج له ليلتها الدكتور حمزة البسيوني والدكتور مختار
السيد والدكتور رزق عبد المسيح ٠٠ وذهب بهم الى الفيلا
المخصصة له على بعد ثلاثة كيلو مترات من المعتقل حيث كان
يرقد ابنه الصغير وقد استبليت به الحمى حتى قطعت انفاسه
وأيقن المأمور أن ابنه قد مات ٠

ولم تحدث المعجزة مثلما تصور بل ان الامر ببساطة أن
الاطباء الثلاثة الذين ذهبوا معه كانوا يعرفون عملهم جيدا
واستطاعوا بوسائل بدائية وبخبرة أن يعيدوا الى صدر الطفل
الصغير الهواء الذي كاد أن ينقطع بل وتمكنوا خلال عدة
ساعات تخفيض درجة الحرارة حتى استطاع الطفل الذي كان
يعتبره ميتا منذ ساعات أن ينهض من فوق فراشه وأن يتكلم
ومنذ تلك الليلة والمأمور الذي كان يتباهى بقدراته
الجسدية وقوته والتي كان يمارسها معنا في زهو وخيلاء ، قد
أصبح يتجنب دائما أن يلقانا بل أنه سرعان ما استجاب
لمطالبنا في أن نحول جهنما الذي نبذله في الجبل والصحراء
في عمل لاعائد منه الى عمل اخر يمكن ان يكون نافعا لنا
وللسجن كله ٠

وبدأت قصتنا مع « المزرعة »

فقام عدد من الزملاء المهندسين بمسح المنطقة التي تقع بين
السجن وبيوت الضباط وتقع في حوالى مائة فدان ووضعوا
مشروعا متكاملا لاستصلاح تلك الارض مستفيدين من وجود
بعض ابار المياه القريبة من بيوت الضباط وبدأت رحلة الخروج
اليومية تتجه نحو المزرعة ٠٠ وبخطة علمية مدروسة وبحماس
ذاتى من جانبنا بدأ تنفيذ المشروع ٠٠ والغريب اننا بدأنا نعمل
بجدية فلقد كان استنبات الزرع قلى تلك الصحراء يعني
بالنسبة لنا اشياء كبيرة ٠

فالفكرة فكرتنا والجهد جهنما وأيضا فائنا كنا في امس
الحاجة الى الكثير من الغذاء وخاصة الخضر والتي كنا نفتقدها
تماما ٠

فطوال العام الماضي وبالذات منذ بدأنا نخرج الى الجبل وهناك احساس بالجوع الدائم فارواته العدس والفول وقطعة الجبنة القريش والارغفة الثلاثة التي كانت تصرف لنا يوميا كنا نلتهمها فور عودتنا من الجبل ليبقى الانسان حتى الساعة الرابعة من اليوم التالى وهو يعيش فى حالة من الجوع الدائم .

ولقد كان هناك بعض الزملاء الذين يحرصون على ان يحتفظوا بكسرة خبز يتناولونها فى الصباح قبل الذهاب الى العمل وكم كانت تحسدكم الغالبية وانا منهم .

لقد كان بيننا ماهو مصاب بقرحة فى المعدة أو التهاب فى القولون . ولكن الجميع كانوا يلتهمون الفول والعدس بنهم والغريب أن الزملاء المرضى بالامعاء عاشوا ولفترة طويلة لايشكون ألما ولكن ذلك لم يكن يعنى أن المرض انتهى بل كان يعنى أن ارادة الحياة القوية لديهم كانت تمنحهم الرغبة والقدرة على تحمل الظروف الصعبة التي نعيشها .

وقد بان أثر ذلك بعد فترة حينما بدأ يتساقط عدد من الزملاء بأمراض قاتلة فى المعدة منهم من وصل المرض معه الى درجة لم تستطع أن تنقذه من براثن الموت .

ففى أول يناير ١٩٦٠ سقط على متولى الديب العامل فى مصنع الألياف بشبرا الخيمة بعد أن اصيب بدوسنتاريا قاتلة ، ومات العامل الشباب (٢٨ سنة) ونحن لانملك سوى أن نصرخ فى وجه الادارة العاجزة محتجين على سياسة القتل البطيء التي تمارس معنا .

وفى نفس الوقت تقريبا وفى زنزانة مظلمة فى معتقل ابى زعبل مات المهندس الشاب رشدى خليل (٣٠ سنة) بعد أن تمزقت أمعاؤه من الحمى .

وبدأنا نفيق على حقيقة مرة ٠٠ هي انه يبدو ان هناك حكما بالابادة قد صدر ضدنا فمن لم يمت بالتعذيب قتله الجوع والمرض .

ولهذا كله كان حماسنا للعمل فى المزرعة دفاعا عن الذات ومحاولة الانفصال من مخطط الموت البطيء الذى بدأ يؤتى ثماره وكان الانفعال الواضح على وجه المهندسين عبد المنعم شستة

وحسين طلعت وهم يستحثون الزملاء للعمل يحمل هذا المعنى ..

على أن الايام الاولى للعمل في المزرعة قد شهدت مأساة هزلية .. ففي فترة الظهيرة كنا نأخذ راحة لمدة ساعة نستنجد بظلال بعض شجر الخروج المجاور لبيوت الضباط من وطأة الشمس القاسية وكانت الاشجار وقتها محملة بشمار الخروج . وقال ظريف عبد الله المحامي وهو يلتهم ثمرة من تلك الثمار لجمع حوله

لديذ .. طعمه مثل اللوز .
وكان الجوع الشديد الذي نعاية كافيًا لاقناعنا بالتهام ثمار الخروج .. واشترك في المادبة اعداد واسعة حتى الدكتور مختار السيد أفتى بأن أكل الخروج صحي .
وضاعت صراخات عم نوح فلاح البحيرة وهو ينهر الزملاء ويحذرهم من أكل الخروج الذي « لاتأكله الحمير » ولكن الجوع المستبد وثناء ظريف عبد الله وفتوى الدكتور مختار اغرنا تناول ثمار الاشجار الموجوده .
الجميع بالتهام الثمار المحرمة .. وبعد اقل من ساعة كنا قد تناولنا كل ثمار الاشجار الموجوده .
وكانت ليلة مبكية مضحكة .

فبعد ساعة من اغلاق العنبر والغرف بدأ عدد من الزملاء يحسون آلام حاده في امعائهم وانتاب البعض اسهال شديد ثم قيء ، ثم بعد نصف ساعة اخرى كان من الواضح ان اعداد كبيرة من الزملاء قد اصبوا بالتسمم .. وبدأنا ندق الابواب بعنف نستنجد بالعساكر ليفتحوا الغرف ، وكانت كل لحظة تمر يسقط اكثر من زميل فاقد الوعي بعد أن انهكه الاسهال والقيء .. وقال البعض انها مؤامرة من نوع جديد تقتلنا .. اما الزملاء والاطباء فلقد بدأوا ينصحون ببعض الاسعافات الأولية لمن وصلت حالتهم الى درجة الخطورة والاعماء .

وحضر المأمور ومعه قوة السجن وفتح العنبر والغرف التي تحولت بسرعة الى مستشفى ميدان وبدأ الزملاء الاطباء وكانوا حوالي ١٢ بما فيهم الطلبة في السنوات النهائية في الكلية ، بأجراء بعض الاسعافات وذهبت عربة السجن الى مدينة

الخارجة لتحضر بعض الادوية المتاحة والغريب أن عم نوح الذي حظر الزملاء من أكل الخروج هو الآخر يتلوى من الألم ثم اعترف بأنه تناول بعض الحبات حينما اتنى الدكتور مختار بأنه صبحى أما الدكتور مختار نفسه والذي تناول أكثر من مائة حبة فلقد ظل يتكابر ويخفى الامه بينه وبين نفسه ليؤكد نظريته ثم سرعا ما انهار وسقط هو الآخر يتلوى .

وحتى الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم كان الموقف خطيرا فحوالى ثلث المعتقلين يواصل عملية القيء والاسهال ويصل ببعهم الى مرحلة خطيرة والثالث الآخر ممن تناولوا كمية محدودة - وقد كنت منهم يتحامل على نفسه فى محاولة لاسعاف الزملاء الآخرين فى حين كان هناك مجموعة أخرى ولحسن الحظ لم نخرج للعمل فى هذا اليوم للقيام بأعمال النظافة داخل العنبر .

وامتلاء العنبر بالحركة وصراخ الألم المكتوم تماما مثل أى مستشفى فى ميدان المعركة وقرر الاطباء نقل ٢٠ زميلا على الفور الى مستشفى الخارجة حيث كان نبضهم ضعيفا ودخلوا فى مرحلة الخطر بينما أجرى لعدد كبير آخر عملية غسيل للمعدة أو اعطاء بعض المضادات للتسمم .

وليتها لم ينم احد فى المعتقل ، سوى الزملاء الذين راحوا فى غيبوبة استمرت أكثر من يومين وامكن انقاذ حياتهم بعد جهود مكثفة ولكن الى حين .

فلقد تبين بعد ذلك ان الفنان أحمد البيكار الذى مات بعد عام نتيجة سرطان فى الامعاء والعامل على زهران الذى مات ايضا بعد حوالى عام ونصف نتيجة تسمم فى البولينا كانا يدفعان تمنا غاليا لتلك المأساة التى عشناها مع الخروج .

ولقد تصور مأمور السجن الذى أصبح أكثر انسانية أن من واجبه أن يرسل لحسن المصيلحي . مدير ادارة المباحث العامة فى ذلك الوقت ليخبره بما حدث ربما املا فى ان يأمر المصيلحي صاحب الامر والنهى فينا بتخفيف بعض الظروف التى نعيشها وخاصة حالة التجويع البطئ . . . واهتم المصيلحي برسالة المأمور وبعث له على الفور برقية يهنئ المأمور فيها بسياسته الحازمة ويعلم سروره بما حدث !!

- ١٦ -

ثم بدأوا يدقون المسيح
بالمسامير .
عند الدقة الاولى اهتزت
الفلك .
وعند الدقة الثانية نزلت
الملائكة من السماء يغسلون
جروحه .
وعند الدقة الثالثة فقدت
العدراء الوعي ومعها العالم
ايضا .
وغرقت الارض في الظلام
« الانجيل »

يونيو سنة ١٩٦٠

الطواريء

حتى الجو أعلن حالة الطواريء وتحولت الشمس الى بقعة
صفراء مختنقة ورياح خماسينية معربة تعصف بأطنان الرمال
المتوفرة ووسط كل هذا حركة في الادارة يشترك فيها المأمور
وانضباط والحرس تماما مثل حركة الرمال المتحركة التي تلقى
بها الرياح لتصل الى أعتاب العنبر والغرف .
كانت الساعة قد قاربت الثانية عشر ولم نخرج الى المزرعة
وكلمنا سألنا كانت الاجابة : الظاهر فيه حاجة ، وأخيرا فتحت
الزنائين وتجمعنا في فناء السجن وقد استبدت بنا الظنون
فمن قائل ان هناك ترحيلة ومن مؤكد ان حفلة تعذيب أخرى
تعد . أما الفارقون في أحلام التفاؤل فلقد راحوا يؤكدون أن
هناك افراجا ويستدلون على ذلك ببرقية عاجلة وصلت الى
المأمور أمس لم يعرف أحد محتواها وان كان شهود العيان من
العساكر يؤكدون ان ملامح المأمور وهو يقرأ البرقية كانت

- ١٢٤ -

تعكس اهتماما بالغا وحين تجميعنا. في فناء السجن المكشوف
نسينا تماما غصبة الرياح ولطحات الرمال في انتظار ما يمكن
أن يحدث أو أن يكون مديرا أن يحدث وأخيرا جاء المأمور ولم
يجلس على الكرسي الذي كان معدا له بل وقف يتأمل صفوفنا
المتراصة الجالسة القرفصاء لعله يشبع نفسه ببقايا مازالت
عائقة به حتى بعد ليلة مرض ابنه وهو يدرك انه النجم الذي
تنجذب اليه كل الانظار وانه القائد الأمر الناهي في عباد الله .

والواقع أن شخصية الرائد فريد شنيش يستحق بالفعل
أن تشهد اليها انتباه مخرجي المسرح لانه من السهل أن
يجد فيه تلك الشخصية الطبيعية دون أي انفعال أو تمثيل
شخصية المختال والمعجب بنفسه . خمس دقائق وقف فيها
ذلك الممثل الممتاز على خشبة من الرمل وأمامه جمهور من الحفاه
ليسوا على استعداد على أي حال أن يصفقوا له
وأخيرا ابتسم وانعكست تلك الابتسامة في شكل تنهدات من
الارتياح الصامت خرجت من بعض الصفوف وان كنت قد ظلت
أراقب المشهد بحذر شديد فلطالما تعودا من ذلك الممثل العظيم
أكثر الآلام والجروح بعد أمثال تلك الابتسامة أو حتى الضحكة
العالية المدوية . وتكلم بالفاظ مختارة جيدا على غير عادته
وبصوت متهدج على غير عادته أيضا وبنبهة انسانية لم نتعود
عليها من قبل حتى ليلة الازمة التي مرت بابنه الصغير . لقد
جاءت أوامر من القاهرة بتغير الظروف التي تعيشون فيها ومنذ
اليوم ويمكنكم ان نرتدوا أحذيتكم ويمكنكم أن تتسللوا
خطابات من أهاليكم بل (وقد سمح لكم أيضا التعامل مع
الكتنين وشراء ماتحتاجون له كذلك لقد أوقف العمل الاجباري
واختتم المأمور أخباره السارة قائلا : أنا سعيد لهذه الاوامر
وارجو أن تفهموا ماحدث في الشهور الماضية انه لم يكن
بأرادتي فلقد كنت انفذ التعليمات . وعماما انا سعيد وأتمنى
أن يكون ماحدث اليوم مقدمات للاراج عنكم .

ورفع نظارته السوداء ومر بمنديله الابيض يمسح شيء ما
في عينيه .
غريب أمر هذا الرجل الذي يستطيع ان يكون متكيفا مع

كل موقف فهو مع الضرب والتعذيب الشخصية القاسية التي تقطع صلاتها بكل ماهو انساني وخاصة حينما كان يضحك ضحكاته الشيطانية وهو يكسر زراع زميل لنا ويوجه لكلمات قوية الى وجهه وجسده ، وهو ايضا يمثل الدور تماما في هذه اللحظات ليكون حملا وديعا تفر الدموع من عينيه .
ولقد قرأت كثيرا مثلما قرأ غيبرى عن انقسام الشخصية وازدواجيته ولكنى لم أر شخصية أخرى ينطبق عليها هذا الوصف قولا وعملا سوى الراحل فريد شنيش ربما فيما عدا القصة المشهورة الدكتور ميكل ومستتر هايد .

وقبل ان يتركنا المأمور طلب ان يلتقى فى مكتبه بخمسة من زملائنا حددهم بالاسم . وعدنا الى العنبر لتبدأ عملية تسليم احديتنا وكم كانت عملية مثيرة . البعض احتضن حذائه وهو يبكي ، هؤلاء الذين لم يكونوا فى مواجهة أقصى أنواع التعذيب وتهديدات كلماتهم بالدموع وهم يأخذون من المخزن الحذاء ومعه بعض الحاجيات الخاصة والمتبقية بعد حفلة همت حين أخذوا منا كل شئنا وفرضوا علينا الملابس المجهزة لهذه المناسبة . البعض اخذ نظارته التي فرض عليه ان يعيش بدونها والبعض وجد علبة سجائر متبقية مضى عليها اكثر من ثمانية شهور والبعض صوراً لاولاده أو زوجته أو صديقته ووضعت قدمي في حذائي وخطوت ماشيا اول خطوات بعد شهور سبعة من الحفاء وتذكرت مرة أخرى أمنية المهرج فى مأساة الملك لير الذى كانت احلامه تتوقف عند حذاء يضع فيه قدمه ويرد عنه غائلة البرد والثلج .

وخفت الحركة فى العنبر تماما على غير العادة رغم الابواب المفتوحة فلقد انتحى كل زميل فى ركن من الغرفة او فى جانب من المرعى مع صورة فى يده قد تكون ابنه وقد تكون زوجة وقد تكون حبيبة يقلها احيانا ويتأملها بشغف واخذت احمق فى صورة سامح وأهداب أولاد أختى وأعيد تأكيده ملامحها ومعهما أعبر الصحراء الى ذكريات الحياة هناك بعيدا فى تلك الشقة التى تقع فى الدور الثالث فى شارع ٢٦ يوليو صراخهم وضحكاتهم ، شقاوتهم مع امهم الطيبة ، صراخات سامح

الصغير واصراراه على ان يمضى معى وعندما جاءوا للفيض على
فى فجر اليوم البارد منذ أكثر من عام ونصف ، كانت الحياة
تنحصر من جديد بعد ان كادت تضيع وتفرق قى تلك الوديان
الصحراوية القاحلة .

وجاء الزملاء الخمسة بعد لقاء طويل مع المأمور الذى
استمر ثلاث ساعات لم نحس به اذ كنا غارقين مع ذكريات
الحياة البعيدة خارج الاسوار وتجمعنا كلنا حولهم نسمع
تفاصيل الحوار مع المأمور الذى كان يبدو وأنه كان مشحونا
ووقف فخري لبيب يحكى وقبل ان ينطق بالكلمة الاولى كانت
الدموع قد سبقت الى عينيه ثم بدأت تنهار وهو يقول لقد
مات شهادى عطية أول أمس فى اوردى ابى زعبل . . اذن فهذا
هو الثمن .

كان شهادى واحد من المع المثقفين المصريين ورائد من رواد
الفكر الماركسى ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وهو يناضل
بقلمه وفكره دفاعا عن العمال والفلاحين المصريين وهجويا على
الاستعمار والاقطاع وعمل رئيسا لتحرير مجلة الجماهير التى
أغلقها الدكتاتور اسماعيل صدقى سنة ١٩٤٨ . ثم اعتقل
ولكنه منذ قيام الثورة وقد كان احد المبشرين لها وتحول الى
احد المدافعين عنها وخرجت له عدة مؤلفات من أهمها تاريخ
الحركة الوطنية المصرية وسجل بها تاريخ الشعب المصرى من
أجل الاستقلال والديمقراطية وعدالة التوزيع وحتى حينما القى
القبض عليه عام ١٩٥٩ وقدم للمحاكمة بالاسـكندرية اخذ
يحذر من هؤلاء الذين يعملون على تفتيت وحدة القوى الوطنية
ويرفعون شعار العداء للشيوعية .

كانت تلك آخر الأخبار التى وصلتنا عن شهادى قبل أن
نسمع عن استشهاده فى ابى زعبل وقد كان علينا ان ننتظر
يومين لنسمع تلك التفاصيل عن مقتل شهادى وعن الجو الذى
عاش فيه زملائنا فى ابى زعبل طوال ثمانية اشهر ولقد وصل
الينا هؤلاء الزملاء بعد ان تقرر اجراء تصفية اوردى ابى زعبل
أكثر من ثلثمائة رفيق كل منهم يحمل قصة تصل الى حسد

الاساطير عن ذلك المعتقل الذى مورست فيه اكثر الاساليب وحشية وربما تلك التى لم تخطر على بال .
وكنا قد سمعنا بعضا منها منذ ثمانية شهور وخاصة بعد أن عرفنا بوفاة الزميل الطبيب فريد حداد ولكن الذى لم نتصوره أن يستمر هذا الجو الهيستري طوال تلك المدة لتنتهى بمأساة اغتيال شهيدى .

ان ما استطعنا ان نفرضه فى الواحات وقد ساعدنا عليه البعد عن القاهرة من ناحية وبالتالى البعد عن الاجهزة المعنية بالتعذيب وايضا ذلك الاحساس الذى تفرضه الصحراء الشاسعة المحيطة والتى تملأ الكل بأحاساس الغربة والوحشة سواء كانوا سجانا أم سجناء ان ذلك لم يتوفر لزملائنا فى ليان ابى زعل الدين زاقوا الكأس حتى الثمالة .

ثمانية اشهر يضربون طوال الاربع وعشرين ساعة فى طابور الرياضة فى العنابر فى منتصف الليل فى الفجر حينما يتسلمون « الجراية » أو حتى حينما يشكو احدهم من مرض . . صورة بشعة لا يمكن أن يتصورها الا مخببول نزع عقله . فراح يعربد حرا طليقا من اى منطق ومن أى ذرة انسانية . . . واذا كان التعذيب علما أو فنا فلابد وان يعترف الانسان أن قائد أو ضباط أوردى ابى زعل يستحقون لقب اساتذة هذا العلم ولست مبالغا اذا قلت انهم تفوقوا فى بعض الامور على اساتذة النازى فى معتقلات دخاد وبوخنوالد واشسفيتز أن الصورة التى سمعناها عن يونس مرعى وهوايته المفضلة فى أن يقف على تل عال ليقتنف الزملاء الذين يعملون تحت الجبل بالدبش متعمدا أن يصيب رؤوسهم تلك الرؤوس التى تحوى عقولا كانت تفيظه وتستفزه وهو الذى لم يقرأ فى حياته سوى روايات ارسين لوبين ولم يعرف متعة فى حياته سوى الخمر والعريضة والفجر مع النساء .

وعبد اللطيف رشدي وكيل المعتقل الضخم الجثة الذى لا يعرف سوى ان يضحك ويقتل وحسن منير قائد لمعتقل ذو الصوت الشعبانى الذى كان يصفق كالطفق وهو يأمر بجلد زميل او سحبه على الارض .

ولقد اخذت اتصور الدكتور لويس عوض المثقف المصرى
والعالمى ويونس مرعى يلقيه على الارض ويضربه بحذائه مثلما
يضرب حشرة والدكتور فؤاد مرسى استاذ القانون بكلية
الحقوق وملابسه تخلع عنه ليضرب على المناطق الحساسة فى
جسده والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله وقائد الاوردى
وزبانية يتسلون عليه وهم يأمرونه بأن يدور فى حلقة كالثور
لتنهال عليه الكراييج والشوم ٠٠ والمئات من خبرة أبناء مصر
الطبيين من عمال ومنقفين وفلاحين وطلبة وضباط وهم يعاملون
تلك المعاملة الوحشية ٠٠ ثمانية اشهر وكان الدكتور لويس
عوض مثلما سمعت يفزع من النوم ليلا ليصبح أين نحن ٠٠
لا يمكن ان نكون قد رجعنا ألف عام الى الوراء ٠٠ « ولم يهدأ
الزبانية ولو يوما واحدا »

وحين انتهت محاكمة شهدى عطية وزملائه فى الاسكندرية
ورحلوا الى معتقل ابى زعبل فى يونيو كان اللواء همت وفرقته
التي لا تختلف عن فرقة العاصفة الهتلرية ينتظرونهم على باب
المعتقل ٠٠ ويومها اقام همت حفلته الهمجية باستمتاع شديد
٠٠ الضرب المستمر حتى الوصول الى البسابة ثم خلع كل
الملابس وحرقها ثم جر المعتقل من ارجله الى داخل السجن ٠٠
ويقول شهود العيان أن همت كان فى اوج نشوته فى ذلك
اليوم ولذلك اخرج حفلة فريدة من نوعها فاقبت كل حفلاته
المشؤومة السابقة .

وبعد انتهاء المرحلة الاولى من الحفلة التي قام بها همت خارج
أسوار السجن بدأت مرحلة اخرى على يد حسن منير قائد
المعتقل .

فلا بد هو الآخر بأن يرحب بالوافدين الجدد وعلى طريقته
الخاصة ٠٠ وحينما وصل الى شهدى عطية بأدره .
- انت بقى شهدى عطية ٠٠ عملى علم ٠٠ انت شيوعى ياولة
قول أنا مرة .

وسكت شهدى فلم يكن هناك مجال للرد على مثل تلك
الاسئلة .

فأمر حسن منير بأن يقلب عن ظهره ويضرب بشدة على
بطنه .

ثم رفعوه بعد ذلك ليمشي ولكن شهدي سقط فعاد الزبانية
ينهالون عليه بالضرب . . ولكن شهدي كان قد فارق الحياة . .
ويروي الدكتور اسماعيل صبري هذه اللحظات التي كان
شاهدا عيانا لها « كنا قد أمرنا بأن نقف داخل العنابر ووجوهنا
للحائط وكان الضرب شديدا على الوافدين الجدد وسمعنا اسم
شهدي يتردد مع صوت الشوم والكراييج ثم خيم الصمت
المفاجيء ولم نعد نسمع الا أصوات متباعدة بعضها يتنادى: فين
أمين التمورجي ، وتركنا واقفين ووجوهنا للحائط ولم نخرج
الى الجبل فزاد احساسنا بأن شيئا غير عادي قد حدث وحاولنا
الاتصال بزملائنا الجدد والذين ادخلوهم عنبر (٢) . وعرفنا
منهم أن شهدي لم يدخل العنبر وان أربعة آخرين سحبوا من
العنبر لخطورة اصابتهم وزاد قلقنا وحاولنا من خلال الشبابيك
الاتصال بالزملاء في كل العنابر ان نعرف ماذا حدث .

وعرفنا المأساة ، لقد كان جسد شهدي عطية ملقا في احد
زنازين التأديب بعد ان وضع قائد المعتقل عليها يافطة
«مستشفى» مات شهدي مثلما مات فريد حداد بنفس الاسلوب
ومثلما مات رشدي خليل وعلى الديب . . وقبلهم مات محمد
عثمان في أحد ردهات مبنى المباحث العامة في طنطا . .

وبقدر ما فجع حدث شهدي الدمع والالم في عيوننا وقلوبنا
بقدر ما فجع المأساة التي نعانيها . .

ففي تلك الاثناء كان الرئيس عبد الناصر في زيارة
ليوغوسلافيا ووصلت أنباء استشهاد شهدي عطية واثارت
ضجة في الرأي العام العالمي لما لشهدي من سمعة واسعة ككاتب
مصري تقدمي .

ومن بلغراد أرسل عبد الناصر برقية يطالب فيها التحقيق
في مقتل شهدي . . وكان ذلك يعني وقف التعذيب البدني
الذي كان يمارس علينا .

ووسط الدموع بل وشهقات البكاء ونحن نسمع من زملائنا
ملحمة التعذيب في أبي زعبل وموت شهدي قام محسن الحياط
الشاعر ذو الصوت المبحوح ليقول قصيدة مرتجلة ..
مستقتلين .

ولا عمرنا نرمي السلاح من بدنا .
هستموتين .

نضعك لايام الجراح الى ارتوت من دمنا .
وأحنا كده .

من صنع أوجاع الجياع المحرومين من شعبنا
وأحنا كده
من صنع أهوال النضال عد السنين من عمرنا
نبدر حياتنا ع الطريق
ترويهها ايام الضنا
تطرح هنا
لا جلادين
ولا سفاحين

هيفيروا طعم الكفاح من بقنا
طعمه جميل .. ذيك يانيل
والشمس رامية شعرها وراء ضهرها
زى الغدير الى انسكب منه الذهب
وانت تسيل .. وانت يانيل ..
تاخدى وتدى أرضنا

فأمر حسن منير بأن يقلب على ظهره ويضرب بشدة على بطنه .

ثم رفعوه بعد ذلك ليمشي ولكن شهدي سقط فعاد الزبانية ينهالون عليه بالضرب . . . ولكن شهدي كان قد فارق الحياة . . . ويروي الدكتور اسماعيل صبرى هذه اللحظات التي كان شاهدا عيانا لها « كنا قد أمرنا بأن نقف داخل العنابر ووجوهنا للحائط وكان الضرب شديدا على الوافدين الجدد وسمعنا اسم شهدي يتردد مع صوت الثوم والكراييج ثم خيم الصمت المفاجيء ولم نعد نسمع الا أصوات متباعدة بعضها ينادى: فين أمين التمورجي ، وتركنا واقفين ووجوهنا للحائط ولم نخرج الى الجبل فزاد احساسنا بأن شيئا غير عادي قد حدث وحاولنا الاتصال بزملائنا الجدد والذين ادخلوهم عنبر (٢) . وعرفنا منهم أن شهدي لم يدخل العنبر وان أربعة آخرين سحبوا من العنبر لخطورة اصابتهم وزاد قلقنا وحاولنا من خلال الشبابيك الاتصال بالزملاء في كل العنابر ان نعرف ماذا حدث .

وعرفنا المأساة ، لقد كان جسد شهدي عطية ملقا في احد زنازين التأديب بعد ان وضع قائد المعتقل عليها يافطة «مستشفى» مات شهدي مثلما مات فريد حداد بنفس الاسلوب ومثلما مات رشدي خليل وعلى الديب . . وقبلهم مات محمد عثمان في أحد ردهات مبنى المباحث العامة في طنطا . .

وبقدر ما فجع حدث شهدي الدمع والالم في عيوننا وقلوبنا بقدر ما فجع المأساة التي نعانيها . .

ففي تلك الاثناء كان الرئيس عبد الناصر في زيارة ليوغوسلافيا ووصلت أنباء استشهاد شهدي عطية وأثارت ضجة في الرأي العام العالمى لما لشهدي من سمعة واسعة ككاتب مصري تقدمي .

ومن بلغراد أرسل عبد الناصر برقية يطالب فيها التحقيق في مقتل شهدي . . وكان ذلك يعنى وقف التعذيب البدنى الذى كان يمارس علينا .

ووسط الدموع بل وشهقات البكاء ونحن نسمع من زملائنا
ملحمة التعذيب في أبي زعبل وموت شهدي قام محسن الحياط
الشاعر ذو الصوت المبحوح ليقول قصيدة مرتجلة ..
مستقتلين .

ولا عمرنا نرمى السلاح من بدنا .
هستموتين .

نضحك لايام الجراح الى ارتوت من دمنا .
واحنا كده .

من صنع أوجاع الجياع المحرومين من شعبنا
واحنا كده
من صنع أهوال النضال عد السنين من عمرنا
نبدر حياتنا ع الطريق
ترويهها ايام الضنا
تطرح هنا
لا جلادين
ولا سفاحين

هيفيروا طعم الكفاح من بقنا
طعمه جميل .. ذيك يائيل
والشمس رامية شعرها وراء ضهرها
زى القدير الى انسكب منه الذهب
وانت تسيل .. وانت يائيل ..
تاخدى وتدى أرضنا

كانوا يتوارثون الخوف ..
وكانوا يطلقون على هذا الخوف
اسم الحياة وفي يوم جاء رجل
ضئيل الحجم .. لم يقل لهم
شيئا غير عادى .. قال اشياء
يعرفونها من قبل ولكنهم
نسوها .

قال انهم اذميون وان لهم
روحا ، انهم جوعى وايضا ان
هناك شيئا اسمه الحرية
وشيئا آخر اسمه العدالة .
وشيئا ثالثا اسمه الثورة .
كانتاكس الاخوة الاعداء

سبتمبر سنة ١٩٦٠ :

غرقت في الألوان وأخذت استكشف الوادى مرة اخرى
وكانى اراة لأول مرة .
منذ عام مررت من هنا وذهبت بعيدا .. بعيدا فى اعماق
الرمال الصفراء ، عام طويل طلى بلونين هما الاصفر والكاكي
لون الصحراء وبدل العساكر والضباط واحيانا خضرة باهتة
شاحبة اما أحداثه فتبضى متنوعة حقا ولكنها داخل نمط واحد
.. العنبر والمزرعة والبرش .

لكل هذا كان قلبى ينبض بحياة متدفقة وأنا اقف على رصيف
محطة المواصلات مرة اخرى ومعنى ضابط وثلاثة عساكر فى
انتظار القطار القادم من أسوان فى الطريق الى أسيوط .
كانت الشهور الماضية والتي أعقبت وقف التعذيب البدنى
والعمل الاجبارى ومجئ الزملاء من معتقل ابى زعبل قد
اوضحت الى اى مدى كنا نعانى قبل ذلك .. فعندما أصبح

هناك وقت للنقاط الانفاس اكتشفنا ان الكثيرين قد بداوا يضيّقون على امراض غريبة ، ربما كانت كامنة طوال تلك الفترة الماضية ، وربما كان الجسد يستوعبها بأحاساسه بالخطر الذي كان يهدده كل لحظة ، ولكنها بدأت تظهر وتطفو على السطح حين بدأت تقل المخاطر الخارجية التي يتعرض لها الجسد .

كنا كمن ظل ولعدة شهور يصارع الامواج العالية والقاسية لتظل رأسه تطل من فوق المياه ، وحينما خرج الى الشاطئ بدأ يحس بالانهك والالم للجهد الخارق الذي بذله .

حقيقة اننى كنت معتاد قبل المعتقل على ذلك المصعب الذى ينتابنى أحيانا ليذيقنى مرارة الالم ليوم أو يومين ٠٠ ولكنه كان قد اختفى تماما منذ الاعتقال حتى بدأت اعتقد اننى قد شفيت منه ٠٠ وفجأة عاودنى المصعب وبشكل عنيف .

ولقد احترت مثلما احترأ الزملاء الاطباء فى تشخيص المرض وعبنا حاولنا ان نعالجه أو نسكته ببعض الادوية المتوافرة فى المعتقل فلقد كان يصمت لبضعة أيام ثم يعاود هجماته المريعة تماثل ليلة كاملة أتولى من الالم والصراخ المكتوم .

ولم تكن حالتى هى الوحيدة ، فلقد كان هناك الكثير من الزملاء الذين بدأوا يسقطون تحت هجمات امراض غريبة كالاعماء المفاجيء وآلام العظام والالتهابات المختلفة مثل تورم الركبتين وتساقط الاسنان والهزل الشديد الناجم عن انيميا حادة .

وكان الزملاء الاطباء يعالجون من يستطيعون علاجه ، ولكن بعض الحالات وخاصة تلك التى تحتاج الى اشعة أو تدخل جراحى فقد كانت تعرض على طبيب السجن ليقرر ترحيل صاحبها .

ومن الطبيعى فى الظروف الجديدة وبعد استشهاد شهيد عطية ووقف التعذيب أن توافق الادارة على ترحيل الحالات المرضية الشديدة اما الى مستشفى اسبوط أو الى القاهرة .

وعلى هذ الأساس رحلت الى اسبوط لاجراء اشعة على الكلى . وطوال الرحلة من الواحات الى اسبوط كنت أستعيد

الكثير من حواسي التي نام بعضها أو تأقلم بعضها على مرئيات معينة ومحدودة .

كانت رؤية الاولاد الصغار والنساء والرجال العاديون دون زى رسمى وكذلك نسيمات الوادي ومياه النيل اشياء عظيمة تعيد الخضة الى القلب والنفس .

وفى انقطار وبالرغم من اننى ومعى الحراس جلسنا فى ديوان مستقل الا اننى كنت امارس حرية الحركة فى الانتقال ففى ردهات القطار وخاصة بعد ان اكتشفت أن الضابط المكلف بترحيل كان زميلا لى فى المدرسة الابتدائية ، وقد تركنى امرح كالطفل فى هذا العالم الجديد بشرط واحد « هو أنه عند أى محطة يقف عليها القطار لابد وأن أعود الى السيوان لان هناك دائما عيون تنتظر وتراقب » .

وقد كان يجتاحنى احساس بالزهو حين يقف القطار فى أحد المحطات لارى صفا من المخبرين والعساكر يقفون على الرصيف فى انتظار الضيف الخطير الذى يقله القطار ويظل بعضهم يتطلع فى الدواوين حتى يقع بصره علينا فيطمئن قلبه ويومى للضابط برأسه تأكيداً للقيام بالواجب .
وقد علق الضابط المرافق ونحن نغادر محطة قنا .
« ابسط ياعم .. فى كل محطة تشرفيات .. ولا رئيس الوزراء » .

ولكنى لم اكن احفل بهذه الاحتفالات وكان كل ما يهمنى أن يتحرك القطار لاستأنف تراشق الكرة مع أحد الاطفال - وهو ابن مهندس يعمل فى السبد العالى كان عائدا مع امه الى القاهرة .

اربع أو خمس ساعات عشت كل دقيقة فيها أملاً عيني وصدرى فى كل حواسي بالحياة التى يعج بها القطار ولا اترك الفرصة تفوتنى لكى ارفع رصيده الحياة المخضرة بداخلى بعد أن استنزف هذا الرصيد طوال عام ونصف فى السجون والمعتقلات وقبل أن تطوينى الزنازين مرة أخرى .
وحين وصلنا الى محطة اسيوط كان بانتظارى فى المحطة فرقة كاملة مدججة بالسلاح تسلمتنى من ضابط الترحيلة

ومضت بى وسط صفين من الناس الذين تجمعوا ليرقبوا هذا المنظر الغريب شاب يلبس بدلة عادية وفى يده قيد حديدى ويحمل شنطة سفر ووراءه وخلفه وحوله جيش من العساكر شاهرين اسلحتهم .

كنت أمضى مبتسما بل وأقول سعيد وأنا اسمع التعليقات المختلفة من الصفوف .

دا معتقل .. شيوعى .. لا اخوانجى .. والله ظلم .. ربنا معاه .. بكره يخرج دالسة صغير .

وانطلق بنا البوكس من المحطة الى سجن اسيوط .. عالم آخر .

كنت قد تنقلت من القلعة الى الفيوم الى الواحات .. كما كنت قد جربت الحجز فى الاقسام .. ولكن سجن اسيوط كان اول تجربة لى فى سجن تقليدى .

ومن الواضح أن سجن اسيوط مثله مثل معظم سجون مصر قد شيد على النظام الانجليزى فهناك ثلاث أو اربع مباني يضم كل مبنى اربعة أو خمسة ادوار ويشمل كل دور مابين اربعين الى خمسين زنزانه .

ومن اللحظة الاولى التى دخلت فيها بوابة السجن ادركت اننى امام عالم آخر .. وجديد .. عالم يختلف عن المعتقلات التى عشت فيها .

وبالرغم من أن الزنازين كانت مغلقة فى هذا الوقت الا ان الضجة الهائلة داخل العنبر أوحى الى على الفور بأننى اعيش فى سوق أو فى مولد يمتزج فيه الاصوات الى الدرجة التى لاتستطيع أن تميز منها صوتا منفردا .. وقادنى شاويش العنبر الى الدور الثانى وفتح لى زنزانه جدرانها مكسوة بالفلين والكاوتش وقال لى وهو يحاول أن يستظرف معى « زنزانه لوكس علشان خاطرك .. » وعرفت بعد ذلك ان ادارة السجن وضعتنى فى الزنازين المخصصة للمحكوم عليهم بالاعدام تنفيذا للاوامر بأن « يعزل المعتقل عن الاختلاط بالمساجين » .

الاعدام مرة واحدة !!!

وبدأت رحلة الاستكشاف داخل السجن الغريب .

عشرون يوما قضيتها داخل سجن اسيوط خرجت فيها مرتين الى المستشفى ، مرة للكشف واجراء الاشعة ومرة لاستلام النتيجة ، ورفضت اجراء العملية في الكلى بعد أن اكتشفوا بعض الرواسب القليلة وانها يمكن أن تذوب أو تخرج مع البول مع استخدام بعض الادوية دون الحاجة الى عملية ، الامر الثانى اننى عرفت انهم يضعون المريض في غرفة مغلقة في المستشفى بل ويضعون القيد في رجله .

لكل هذا فضلت العلاج في السجن عن اجراء العملية في المستشفى ، رغم اغراءات ممرضة حسناء حاولت اقناعى بانها ستسهر على راحتى وتمسكت بقول يوسف (رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه . .) وفي سجن اسيوط تعرفت بنهاذج ونوعيات جديدة . . بل وأقول واكتسبت بعض الصداقات التى مازلت اعتز بها . . فبالرغم من الاوامر الخاصة بعدم اختلاطى بالمساجين وبالرغم من عنبر الاعدام الذى وضعت فيه الا أن ذلك لم يقيد حركتى داخل السجن وخاصة وأن المساجير كانت متوفرة لدى بعد ان ارسل لى والدى حوالة بريدية بعشرة جنيهات على سجن اسيوط بناء على توصية من زميلى ضابط الترحيلة .

وبعد عدة ايام كنت اعيش « ملكا » فى سجن اسيوط .

الزنزانة مفتوحة طول النهار ولدى حرية الانتقال من عنبر لآخر ويجيبنى الجرائد بانتظام كما كان لى الحق فى استعارة الكتب من مكتبة السجن . . امارس كل ذلك بعلبة مسجيرات وينجز يلحفها شاويش العنبر كل صباح للتفااض عن التعليمات الخاصة بعزلى .

ولقد اكتشفت أن سجن اسيوط لا يحوى مجرمين بالمعنى المعروف بالرغم من أن هناك من يمضى فترة عقوبة مؤبدة . . فعالية المساجين هنا جاءوا اما للقتل من أجل الثار وللشرف أو النزاع حول الرى . . قليلون هم الذين دخلوا السجن لسرقة

أو اختلاس .. وبمعنى آخر لقد وجدت داخل سجن أسسيوط
 أبناء مصر الطيبين ومعظمهم من الفلاحين والمزارعين ما زالوا
 يحملون كل بصمات المصرى الطيب الذى يناضل مع الارض
 بحثا عن الزرع والقوت ويناضل دفاعا عن هذه الارض ضد أى
 مستغل يحاول أن يمنع عنه المياه أو يسلبه أرضه ، ولازلت
 اذكر «أمير» فلاح موشى الاصيل الذى قضى أكثر من عشرة
 اعوام فى السجن الخمسة الاولى فى ليمان طرة ثم جاء الى
 سجن أسسيوط ليقتضى بقية العقوبة (٢٥ سنة) ، أن كل جريمته
 أن احد البهوات من أبناء الاسر الاقطاعية قد حاول أن يسلبه
 الفدانين اللذين يملكهما واجباره ليبيعهما ، فما كان من « أمير
 الا أن حمل بندقيته ووقف على رأس الغيط يقسم أن يطلق
 الرصاص على كل من يحاول أن يعتدى على أرضه ، وقد
 اطلق الرصاص فعلا على اثنين .. سعادة البية ومهندس
 الرى اللذين لم يحفلا بتهديدات « الواد الفلاح » ومات احدهما
 على الفور وأخرجوا أربع رصاصات من صدر الآخر .

:- واين الارض الان يا أمير .

:- بيزرعها ابنى .

ويكبرون ويتسلطون .

وهناك عبد الدايم .. دخل المسجن وعمره ١٩ سنة ..
 كان يدرس فى الثانوية ولكن امه وضعت فى يده البندقية ذات
 ليلة وقالت له « لقد كبرت وأن تعرف أن اباك مات مقتولا وان
 الذى قتله .. » وحددت له اثنين ولم تترك له فرصة للتفكير
 بل وأخذته من يده من نفس الليلة ليقتص لايه ..

وهناك « عبد الكريم » الفلاح الفقير الذى يعمل بالاجر عند
 اصحاب الاطيان اكتشف يوما أن ابنته التى تعمل عند واحد
 من « الكبار » تنتحب طوال الليل وحينما سألها اعترفت له بأن
 « الكبير » اعتدى عليها وانها حامل ، وكان لابد وان يفعل
 شيئا ويبحث عن « الكبير » فلما لم يجده اخذ
 يدق على بطن ابنته ليقتل « ابن الكبير » فى بطنها ..
 وقتل الاثنين معا الام والابن ، وحكايات كثيرة كلها تدور حول
 النار والشرف أو الدفاع عن الارض .. يرويها أناس طيبون

مازالوا يحتفظون بالاصالة المصرية ولا يمكن الا أن يكونوا ضحايا للمجتمع وعلاقته بقيمة .

ولقد وجدت نفسى اعيش معهم اغلب ساعات النهار اسمع حكايتهم واحاول أن احكى لهم من جانبى أن المجرم فى هذا كله هو التخلف والفقر الذى يفرضه علينا هؤلاء الذين يصرون ويكبرون ويتسلطون .

وأصبحت جلسة « العصر » فى زناينة امير موعدا هاما أحرص عليه كما يحرص عليه عدد كبير من النزلاء تماما مثل جلسة المصطبة فى القرية نسمع الحكايات ونشرب الشاى الاسود فى أكواب من البلاستيك ونتحدث فى أحوال القرية الليل ويصمت الراديو المزعج المنبعث من ميكروفون داخل وحين تغلق الزنازين وتهدأ الاصوات فى الساعات الاولى من الليل ويصمت الراديو المزعج المنبعث على ميكروفون داخل العنبر فلقد كنت اعكف على أحد الكتب التى أعثر عليها فى مكتبة السجن ، وكم كانت مفاجأة لى ان تكون مكتبة السجن عامرة بمؤلفات جيدة .

وفى تلك الليالى قرأت غالبية روايات ديستوفسكى « الابله » و « النائب العام » ومؤلفات طه حسين « شجرة البؤس » و « المعذبون فى الارض » ومع ابى العلاء المعرى فى سجنه « وكتاب الاب عروط » الفلاحون والحضارة الهلينية للدكتور غلاب ، بل وأعدت قراءة كل مسرحيات شيكسبير وبرنارد شو .

أما فى الصباح وحينما يذهب الرجال للعمل فى المرافق المختلفة فى السجن ، سواء فى المزرعة أو المطبخ كانت جلستى المفضلة مع جارى العزيز فى الزناينة المجاورة . وهو واحد من المحكوم عليهم بالاعدام .

وقد سمعت عنه الكثير قبل ان اراه ، فلقد حرص الجاويش ان يحكى لى فى ليلتى الأولى فى سجن اسيوط عن رجل الجبل الذى عاش لمدة عشرة اعوام هو ورجاله فى جبال اسيوط مرهوب الجانب يكفى ذكر اسمه لكى تقشعر له الابدان .

وحسب روايات الجاويش قتل الرجل العشرات وظل بعيدا عن ايدى السلطات رغم انه كان يتجول فى وضح النهار

فى شوارع اسبوط نفسها ، وكم من حملة جردت ضلله
وعادت فاشلة ، ولكنه فى يوم من الايام ذهب الى قسم
البوليس وسلم نفسه لانهم قبضوا على زوجته وابنته .
ومن الطبيعى ان اسعى وفى صباح اليوم التالى للتغرف
على جارى العزيز . . وكانت مفاجأة لى فالذى اراه أمامى ورغم
البدة الحمراء التى يرتديها لايمكن بأى حال ان يكون مجرماً
خطيراً مثلما صورده الجاويش ، كان الضيف أو خليفة الحفل
شاباً وسيماً فى العقد الرابع من عمره أميل الى الطول تشع
من وجهه وملامحه المحددة براءة طفولية وتلمع عيناه المصريتان
بالأمل الحزين ويكتسى وجهه بعض الشحوب الذى يمتزج
بسفرة خفيفة .

وكان من السهل ان نتعارف ، بل ونصبح اصدقاء ، وهذا
ما أحسست به من اللقاء الثانى حينما بدأ الضيف يحكى
حياته ومغامراته . . وسمعت منه نفس القصة التى كنت
اسمعه فى القرية عن أدهم الشرقاوى والحط وغيرهم من
الخارجين على القانون .

فلاح مصرى تلقى العلم فى المدارس الابتدائية ثم لى نداء
الحقل ليعمل مع ابيه لتوفير لقمة العيش للأسرة الكبيرة .
كان يحلم بأن يصبح مهندساً زراعياً ، ولكن ما باليد حيلة
فالفدان الذى كان يملكه والده ويشقى عليه طوال العام لايمكن
ان يحقق الحلم ، وأكتفى الصغير بالعمل فى الحقل وبسخط
طبقى ينمو داخله وهو يرى عربة « الباشا » تمر على الحقل
فى طريقها الى العزبة ، ويكون نصيبه « تراب كثيف » يغطى
وجهه . . وكان المتمرد الصغير يقرأ الكتب والجرائد . . وربما
هذا هو الفرق بينه وبين أبيه وأخواته وأهل قريته ، وعرف
أنه واحد من ملايين الضحايا الذين يولدون وهناك حكم مسبق
وأبدى بالشقاء .

ولكن سخط «الضيف» ظل محصوراً فى اطار كلمات عنيفة
كان يقولها على القهوة أو بين مجموعة من الاصدقاء يلحن فيها
الباشا والأمور . . الى أن جاء يوم كانت الأرض عطشى . وكان
المفروض أن نوبة الري ستصيب الحوض فى ذلك اليوم ولكنه

عوجىء بأن المياه لم تفتح بناء على أمر ناظر العزبة تحت دعوى
أن أراضى العزبة ما زالت فى حاجة الى يومين آخرين .
وذهب « الضيف » مع مجموعة من الفلاحين يرجون الناظر
بأن يفتح المياه لحوضهم الذى طال عليه الجفاف وبدأ الزرع
يذبل ويجف .
ولكن الناظر الذى تعود أن يأمر فيطاع أنهى المناقشة بكلمات
خشنة .

— : روح ياواد أنت وهو لسه قدامكم يومين

— : والزرع ياحضرة الناظر .. هيموت .

— : يموت واللا يتهب واحنا مالنا .

وصاح الضيف :

— : مالك ازاي .. دا قوت ناس .. احنا مش بنى آدمين

— : لا مش بنى آدمين .. انت هتداقر ياوله .. امش ..

ومشى الضيف . ولكن ليفتح بفأسه مجرى المياه للحوض ..
وحينما لطمه الناظر على صدغه وانهال عليه ومعه بعض الحفراء
بالضرب بالشوم « دافع عن نفسه بالفأس .. وقتل الناظر
وفر الآخرون .

أما أهل القرية الذين شاهدوا الحادث فلقده أعجبوا بما فعله
الضيف فلقد كان كل منهم يتبنى أن يفعل ذلك ، ولكنهم
انسحبوا الى منازلهم يوصدون عليهم الابواب خوفا من بطش
الباشا والبيه المأمور .. وترحموا على الضيف .

ولجا الضيف الى الجبل .. وبدأ حياة الطريد .. وانضم
اليه بعد ذلك بعض المتحمسين وأيضاً بعض المنتفعين .

وطوال عشر سنوات كانت كلمة الضيف مسموعة لدى
الجميع .. كان يفرض على كل أصحاب العزب «أتاوات» ومن
يرفض ينهب ماشيته ويحرق قصره وأحيانا يعثرون عليه
مخنوقا او مقتولا او مشنوقا .

— : ألم تندم

— : ولماذا أندم كنت دائما مع المظلوم ، أما اصحاب العزب
فلقد رأينا منهم الويل .. ولقد قتلت بيدي اثنين من جماعتي
لأنهم تعرضوا لفلاح فقير وأخذوا منه جاموسته ..

- : لماذا لم نترك الامر للقانون من البداية .
 - : أى قانون .. ان القانون دائما مع الاغنياء ولكن الله
 دائما مع الفقراء لقد كنت أطبق عدالة السماء .
 وحاولت أن أقنع «الضيف» بأن «تمرده» لن يفيد فالقضية
 ليست قضية البعض من أصحاب العزب ولا يمكن أن تحل
 بالقتل والارهاب .. ولكن «المتنرد الصغير» لم يكن على استعداد
 لأن يفهم البعد الواسع لمشكلته ومشكلة أهل قريته .
 كنت أقول له : - ان الارض المملحة هي التى تنبت الشوك
 .. ولا بد من اصلاح الارض .
 وكان يقول : لقد عملت على نزع الشوك على قدر ما
 أستطيع .

كان الحوار يجرى بيننا عبر باب الزنزانة الحديدى والذي
 صمم بشكل خاص لكى يظل «الضيف» فى كل تحركاته
 مكشوفاً لحارسه .

وفى الليلة السابقة على ترحيلى من سجن أسبوط . جلست
 بجوار زنزانته أكثر من ساعتين أودع صديقا عزيزا ..
 لم يعرف كيف يثور فتمرد بطريقة الخاصة .
 كنت قد عرفت أن التصديق على الحكم قد وصل الى السجن
 وأنهم بصدد الاعداد لشنقه فى صباح الغد ..
 ولكن الضيف الذى لم يكن يعلم ، كان متعلقا بأمل أن المفتي
 لن يصدق على الحكم وأن مذكراته لرئيس الجمهورية ستقبل بل
 انه فى ذلك اليوم كان أكثر مرحا وأكثر اشراقا وهو يؤكد لى
 انه رأى حلما جميلا وعاش وسط أولاده .. فى الحلم ...
 وسألنى الضيف وهو يودعنى بحرارة :

- : متى سيفرج عنك .. لا بد أن نلتقى فى الخارج
 قلت :

- : لا أعرف .. فليس لسجنى فترة محدودة .. قد يكون
 غدا وقد يكون بعد عشر سنوات ..
 - : ياه .. أنا ظروفى أحسن .. يمكن اطلع قبلك ...
 ولقد خرج هو قبلى فعلا ففى السادسة صباحا كانوا يقتادونه
 الى غرفة الاعدام فى السجن ، وبعدها ببضعة دقائق كانوا
 يقتادوننى خارج سجن أسبوط فى الطريق الى الواحات .

- ١٦ -

أيها الانسان البائس ،
تستطيع أن ترفع الجبال
وتصنع المعجزات . . . ولكنك
تمرغ نفسك في الوحل والتخمول
. . . الله في داخلك تحمله دون
أن تدرك . . .

أما نحن الذين نعرفه
فستشمر عن سواعدنا ونرفع
أصواتنا عسى أن ننجح

الاب يانايوس - الاخوة الاعداء

يناير سنة ١٩٦٦

ربما للمرة الاولى منذ سنتين تبدأ الساعات الاولى للعام
المجديد بضحكات الآمال الصائفة . . .

في العام الماضي احتفلنا بمثل هذا اليوم بغزوة ساخنة قادها
المأمور واشترك فيها العساكر بشومهم وكرابيجهم وشتائمهم
وفي العام الذي سبقه كان زائر الفجر ورجاله يجمعنا في
عرباته السوداء وينزعنا من وسط الاحضان الدافئة للام والأخت
والزوجة والحبيبة . . .

وبالرغم من أن الكثيرين وعيونهم تغرورق بالدموع الضاحكة
كانوا يضعون أيديهم على قلوبهم مخافة أن تتكرر العادة
ويتمتمون : « اللهم أجعله خير » . . . الا أن الليلة مرت بسلام
فعلا . . .

ليس هذا فقط بل وشهدت احتفالات عديدة ومتنوعة
استطاعت أن تكسر هذه العزلة والصحراء وننتقل بالكثيرين
منا الى عالم الحياة المتجدد الصاحب
ومنذ أن عدت من سجن أسبوط كان الجو قد تغير تماما في
الواحات . . . ليس فقط لان التعذيب قد أوقف كما أوقف

- ١٤٢ -

العمل الاجبارى . ولا لاننا تجمعنا كلنا أخيرا فى مكان واحد
بعد اغلاق أوردى أبى زغيل المشنوم . . وليس فقط لبعض
الظروف النسبية الأفضل التى بدأنا نعيش فيها سواء بالنسبة
للمعاملة او فتح الزنازين ليلا . . ولكن ثمة رياح تغيير كانت
تحتاج الصدور نفسها وتعطينا المزيد من الثقة بالنفس والمزيد
من الاحساس بانفراج الازمة وقرب انتهائها بيننا وبين السلطة
. . وبالتالى الاحساس باننا عن أعقاب الخروج الى الحياة
الواسعة مرة أخرى .

كانت الصحف وأيضا الاذاعات المتعددة التى نستمتع
اليها من خلال الترانزستور تؤكد انتهاء أو على الأقل التخفيف
بدرجه كبيرة من حدة العداء والهجمات المتبادلة بين القوى
الوطنية العربية . وخاصة بعد أن بدأت الرجعية العربية
تتحرك ومعها الاستعمار والصهيونية . فى محاولة لجنى ثمار
المعركة التى استغلوها بين القوى الوطنية العربية . . وكان
الموقف الذى أخذته القيادة المصرية فى مواجهة المؤامرة
الاستعمارية ازاء مقاطعة الباخرة المصرية كليبواترا موقفا وطنيا
حازما ، كذلك فان بعض الاجراءات الداخلية التى اتخذت مثل
تأميم بنك مصر وتنظيم ملكية الصحف والحديث عن التغيرات
والحد من سيطرة رأس المال على الحكم . . كانت كلها يودر
مشجعة توحى بأن الرئيس عبدالناصر قد بدأ يستوعب الدرس
أو على الأقل قد بدأ يدرك لمن يوجه مدافعه الرئيسية .

كانت الانفراجة فى الداخل والابخار الواردة من الخارج
تضيق الجو كله بلون متفائل ، وراهن البعض على أننا سنخرج
فى فترة لاتتعدى شهر واحد فى حين ان البعض الآخر الأكثر
تشاؤما تصوروا ان المسألة تحتاج الى عدة شهور أخرى . .
وحينما استدعى حوالى ٧٥ زميلا الى الادارة وأبلغوا بأن عليهم
أن يرتبوا أنفسهم للرحيل فى الغد الى الفيوم تهيدا للانفراج
عنهم لم يعد هناك شك فى أن الطريق الى تصفية المعتقل قد
فتح . .

وحتى هؤلاء الذين لم يروا فى هذا الاجراء سوى محاولة

خلق جو نفسى مصطنع اضطروا لأن يسلموا بأن هناك شيعة
جديدا وان كانوا قد تحفظوا بأن علينا أن ننتظر لنرى .

وقد انتظرنا شهرين ..

كانت المجموعة التى اختيرت محيرة وغريبة ، حقيقة كان
بينهم البعض من هؤلاء الذين لم يتحملوا قسوة الظروف
الماضية لسبب أو لآخر فإرسلوا عدة بيانات وتقارير
« يستعطفون فيها السلطات » ويعلنون استعدادهم للكف عن
اى عمل سياسى .

ولكن كان بينهم أيضا عدد من الشخصيات القوية والمتوازنة
والتي واجهت ظروف التعذيب بشجاعة وببساطة ولم تخفض
رأسها من أمثال الدكتور فوزى منصور والدكتور فايق فريد
ونبيل زكى وأمير اسكندر وحوده سعد الديب .

وعدد آخر من المثقفين والعمال الذين كانت لهم مواقفهم
البطلة وعوفوا باعتزازهم بأنفسهم وبأفكارهم ولذلك كان من
الصعب على الانسان ان يتصور انها دفعه للضعفاء والمنهارين
كما كان من الصعب أيضا أن اقتنع بأن الامر بعيد عن لعبة ما؟
وبالرغم من اننى فقدت فى هذه الترحيلة عددا لا بأس به من
الاصدقاء بل واثنتين من اكثر المقربين الى قلبى الا اننى كنت
موقنا انه فى اللحظة التى سيفرج فيها عنهم فسيكون ذلك انهاء
للمعتقل كله ..

وعشنا فى الواحات شهرين اعتبرهما من اقصى الشهور
التي مرت بنا جميعا .

الكل يسأل عن اخبار الفيوم .. وماذا حدث للرفاق هناك؟
.. هل أفرج عنهم حقا .. أم انهم مازالوا رهينة المباحثات
العامة هناك تمارس معهم أساليب مختلفة للضغط عليهم .
وتتسرب اليها بعض المعلومات .. بعضها حقيقى وبعضها كان
مدسوسا .

وفى يوم من الايام أكد المسئولون فى سجن الواحات ان جميع
الزملاء الذين رحلوا الى الفيوم قد أفرج عنهم .. وعمت الفرحة
جميع المعتقلين .. وبعد ذلك بأسبوع تاتى رسالة من الخارج
لتنفى أن أحدا قد أفرج عنه ولتؤكد ان المجموعة التى وصلت

الفيوم مازالت فى المعتقل ٠٠ وتسرى بعض الاشاعات بأنهم يتعرضون هناك لنوع من التعذيب شبيه بذلك الذى تعرضنا له فى الواحات وأبى زعبل منذ فترة .
 واشاعة اخرى بأنهم قد نقلوا الى معتقل القلعة وانهم يكتبون اقرارات بعدم الاشتغال بالسياسة وباستنكار أفكارهم ومعتقداتهم .

ثم تأتى رسالة أخرى من الخارج لتؤكد ان زميلا آخر قد استشهد فى الفيوم هو عبد القادر مفتاح المدرس ببنى سويف وهم يرغمونه على فك اضرابه عن الطعام .
 موجات غريبه ومتناقضة ومتلاحقة أيضا من الاخبار والاشاعات تعصف بنا وبأفكارنا يمينا ويسارا ٠٠ فنعيش يوما يملؤنا التفاؤل ونعيش أياما نمضغ الحزن والحيرة .

ولأول مرة تنوء منا الحقيقة ونعيش فى جو ينعدم فيه التوازن بل ولاأكون مبالغا اذا قلت ان التعذيب النفسى والمعنوى لتلك الفترة كان أشد خطرا واكثر قسوة منه فى مرحلة سابقة حين كان التعذيب ماديا ملموسا تستطيع أن تواجهه وتحدد معه علاقة واضحة كانت دائما هى الرفض والاصرار .
 ولكن حمامات «الساونا» الفكرية التى وجدنا أنفسنا غرقى فيها لننتقل من ماء ساخن يقارب الغليان الى ماء بارد يقارب درجة التجمد كادت أن تعصف بتماسكنا .
 افراج أو مساومة أو تعذيب ٠٠ أم ماذا ؟

وانعكس ذلك الموقف بوضوح فى طرقات العنبر ليلا .
 فتحتى الواحدة بعد منتصف الليل ، قليلون الذين كانوا ينامون اما الغالبية فهى اما راقدة فوق الابراش تسرح مع أحلام فتجده عن قرب الافراج ، أو مجموعات تجلس فى بعض أركان الطرقة تتسامر وتحكى ٠٠ أيضا حول الافراج ٠٠ أما عم نمر حسنين وهو عامل فى أحد المطاحن فى الاسكندرية يبلغ حوالى الخمسين من عمره فقد كان لا يكتف طوال الليل عن زرع الطرقة فى خطوات وثيدة واضعا يده خلف ظهره وفجأة يسألنى حين يلمحنى أمام الغرفة :
 - : الساعة كام ٠٠

- : اثنين بعد نص الليل

- : بالضبط

- : اثنين وربع

أكثر من أربع ليالى متكررة يسألنى عم هذا السؤال
وأجيبه بنفس الاجابة الى أن انفجرت فيه ليلة
- : جرى ايه يا عم نمر ٠٠ يعنى ايه بالضبط ، القطر
مستنى وخايف يفوتك .

أكثر من عامين ونحن نعيش فى زنازين وغرف مغلقة تضيق
فيها معنى الايام بل والشهور والسنوات فما بالك عن الساعة
.. بالضبط ..

وأحس الرجل المجوز بما يجول فى خاطرى فاقترب منى
مبتسما :

- : معلش يا بنى .. دى يمكن أول حبسه ليك لكنها
الثالثة بالنسبة لى ، ولعلك لاتعرف تلك الايام التى تسبق
الافراج .. انها تساوى فترة الحبس كلها .
- : من قال انه سيفرج عنا .
- : أعرف أنك من حزب المتشائمين .. ولكن كل الاخبار
تؤكد الافراج ..

هكذا سيطرت الفكرة على عقلية ونفسية الجميع . . أما
المتشائمين أو المستمتعين بالمعتقل على حسب تعبير بعضهم وقد
كنت واحدا منهم فقد كنا نبني تحفظاتنا على بعض الظواهر
السياسية ، وربما كنا نتحصن بذلك التشاؤم خوفا من
العواقب الوخيمة التى يمكن أن تسببها «روح الافراج» اذا
ما أسفر الموقف عن وجه آخر .

حتى «عاشور» زميل الجامعة ونزيل عنبر الاخوان كان هو
الآخر ممن يؤكدون اننا سيفرج عنا وشيكا مؤكدا وجهة نظر
الاخوان فهم أن عبد الناصر «شيوعى» واذا كان قد اختلف معنا
فذلك ذرا للرماد فى العين ولفترة قصيرة ١٩٩

ودخلت فى رهان مع عاشور ..

وفى يوم من أيام يناير الباردة عاد الزملاء من الفيوم ..
عادوا ولكن ليس كلهم فلقد خلفوا وراءهم فى الفيوم حوالى ٣٣

ممن استسلموا تماما لكل ماطلب منهم مقابل الافراج .
 وحين تجمعنا حول الزملاء العائدين نسمع قصصهم وما
 تعرضوا له في الفيوم تأكدت مثلما تأكد الكثيرون اننا بازاء
 حملة تعذيب أخرى ومن نوع آخر .
 تعذيب لا يستخدم العصا والبندقية والكراباج والعمل
 الاجباري ولكنه تعذيب معنوي ونفسى يحاول ان يحطم الشخص
 من الداخل ..

حينما ذهب الزملاء الى الفيوم وجدوا جوا آخر وظروفا
 تختلف تماما عن تلك الظروف التي عشنا فيها في نفس
 المعتقل منذ عام ونصف .. سرائر نظيفة معدة .. ابواب
 مفتوحة طول النهار التغذية جيدة كل وسائل الراحة متوفرة
 الراديو والجرائد والتعامل مع الكانتين بالاضافة الى زيارة
 الاهل ..

وبعد اسبوع بدأ «الشغل» .. وانتقل المصليحي ومعه
 اركان حربه الى المعتقل .. وأخذوا يستدعون كل واحد على
 افراد .. لماذا تبقى في المعتقل .. لماذا لا تخرج .. يمكنك
 ان تخرج الى اهلك فوراً .. فقط مطلوب منك ورقة صغيرة
 اعترف بانك كنت مخطئا في افكارك وتعهد بانك لن تعمل
 بالسياسة بعد ذلك .. ليس هناك أكثر من ذلك ..

والراديو يذيع كل يوم ، بل واسطوانات خاصة تبث أغاني
 الشوق والضعف .. زيارات مفاجئة من الابن او الأب أو
 الزوجة او الحطبية .. والحياة مخضرة في كل مكان .. بعد
 سنوات الصحراء والعذاب والتعذيب .. والباب المفتوح ..
 مجرد اعتراف وتعهد .

المسألة تستحق .. الحرية مقابل ورقة .. هكذا رأى
 البعض .. ولكن آخرين رأوا المسألة كلها لا تستحق .. بل
 رأوا فيما يعرض عليهم اذلالا وامتهانا لانسانيتهم .. فالحرية
 التي يدعونهم اليها بورقة الاعتراف والتعهد لا يمكن أن تكون
 حرية ولكنها تحطيم للانسان واحدا لا آدميته .. ، لأبسط
 ما يميزه .
 كانسان .. فكره .. عقله ..

قال أمير اسكندر للمصليحي :
- : أنا مصرى .. وكاتب سياسى .. رغما عنك وعمما
تعرضه ..

قال الدكتور فوزى منصور :
- : كيف تطلب منى هذا الطلب الغريب .. ومن تكون
أنت حتى تطلب من أستاذ الاقتصاد السياسى فى الجامعة
المصريه أن يكتب هذا الهراء .
وقال نبيل زكى :

- : الموت ابنى الواحات أفضل ألف مرة من الحرية الملوثة
التي تعرضها

وقال رمضان شامبوليه (وهو ميكانيكى سيارات من الفيوم)
- : يا عم يا حرية بحق وحقيق يا بلاش .. يفتح الله ..
حوالى أربعون زميلا من مجموع الدفعة (٧٥) .. سخروا من
أساتذة غسيل المخ .

عزلوهم فى عنبر خاص وسحبوا منهم كل الامتيازات التي
أغدقت على الآخرين واستخدموا معهم أساليب التهريب
والترغيب . جاءوا للبعض بزوجه تبتهل اليه بأن يسمح
الكلام ليخرج لها ولأولاده .

وجاءوا للبعض بخطابات من زوجة أو خطيبة تهدد بطلب
الطلاق أو بفرخ الخطبة .
وجاءوا بأولاد صفار ليبكوا أمام أبيهم ويشكون مر العيش
واحتيالهم البه .

ولكن المدافعين عن الحرية الحقيقية .. حرية الانسان ان
يفكر ويدع ويعول رأيه . صمدوا فى مواجهة كل الهجمات
الحبيثة التي قام بها سماسرة «حرية الخوف والانهيال الانساني»
وبقدر ماكانت سوذة الزملاء صدمة لكثيرين ممن تصوروا
أن باب المعتقل قد فتح وأنها أيام لكى يكونوا وسط الاهل
والاحباب وهيثوا أنفسهم لذلك بقدر ماكانت قصص البطولة
والصمود التي يحكيها الزملاء العائدون توحى بالفخر والعزة
وتعيد اصلاح الكنبر مما أفسدته روح الافراج الكاذبة داخل
النفوس .

وانفعل معين بسيسو الشاعر الفلسطيني وألقى قصيدة
اعتبرها من أهم قصائده وأكثرها صدقا ..
اكتب .

واركع للورقة .
وأغرس قلمك فى عينى طفلك
واكتب ماشاء لك السجنان بأن تكتب
ومضى معين بكلماته الشعرية كالسياط الحقيقية يلهب ظهر
هؤلاء الذين يكتبون ماشاء لهم السجنان بأن يكتبوا .
أما محسن الخياط فلما فعل هو الآخر بفنوه حلوه

أنا عارف طريقى فين
وأروح له منين ..
أنه شايفه قصاص العين
بدايته شروق وآخره شروق
مفيش فى الدنيا دى مخلوق
يوقفنى فى طريقى يوم وأنا سارى
حاخلى الريح جناح ليه
وأنا زاحف بأعصارى .. ومهما الحر هاج بيه

هايسجد يوم لتيارى
ومهما هدوس الثوب برجليه .. ديجرحنى
واخلى الجرح يسقيني
ألم يفضل مصحيني
يفكرنى

بطول حرمانى وشجونى
وحرمان الى عاش فى جوع
وآه ودموع ..

وزملاء آخرون انفعلوا باللمحة وألقوا بقصائد وكلمات .
وتحولت عودة الزملاء الى مهرجان امتلا بالحماس والانفعال
والثقة ..

وتركت العنبر يمتلىء بالتصفيق وبالشعر والثقة ، وخرجت
وحدى أمشى بجوار السور ، ودموع غريبة تتجمع بهدوء فى
عينى . ربما انفعالا بالشعر وبالموقف ، وربما تنفيسا عن

أحلام خفية كنت أسمح لها بأن تعبت بداخلي أنا أحيانا .
وناداني «عاشور» قرب المطبخ
— : مالك .. دانت سرخان قوى .. على أى حال
كسبت الرهان ياعم ..
طلع عندك بعد نظر ..
وابتسمت .. ابتسامة تساوى الدموع التى كانت تتجمع
فى عيني ..
حقيقة كسبت الرهان ، ولكن كنت أود من أعماقي أن
أخسر هذا الرهان .. بالذات ..

- ١٧ -

إذا كنت تريد أن تكون
شهيدا ، فما عليك الا أن تنظر
داخل نفسك .. ثم قل ماتراه
يصدق .. وتذكر . أن المسيح
يقتل نفسه ولكنهم قتلوه .
بيتر بروك - مسرحية . يو . اس .

يوليو سنة ١٩٦١

حينما يكون الجسد هو الذي يتهدهد الخطر ، تنحصر المعاناه
فى القدره على تحمل بعض الآثار والآلام الجسدية .
ولكن اذا كان المستهدف روحك وعقلك كانسان هنا يكون
الخطر فادحا وتكون المعاناه قاسية ومريرة .
ولقد مررنا بفترة المعاناه والآم الجسدية وسقط ضحايا
نتيجة الضرب والتعذيب ، ولكنهم سقطوا كآدميين وكمفكرين
وكمناضلين ولكن التعذيب الذى بدأ مع ترحيلة الفيوم كان
تعديبا أشد خطرا وأقسى للنفس والعقل .. تعذيب يطلق
عليك وحشا داخليا يعربد ويجول مع كل اندفاع فى جسدك .
فمنذ عودة الزملاء من رحلة «التعذيب النفسى» ومنذ سقوط
عدد آخر من الزملاء نفى نفس الرحلة تفتحت شهية الاجهزة
للاستمرار فى هذا الاسلوب وتعميقه .
أكتب .. وأخرج .. مفتاح سجنك فى يدك . ماعليك
الا أن تكتب «عريضة» الى المسئولين تلعن فيها نفسك وأفكارك
السابقة ولا بأس من ان تلعن زملاءك .. وعلى الفور ترحل الى
الفيوم حيث ستبقى فترة تتراوح بين أسبوعين الى شهر .
لنكتب مرة أخرى تلعن فيها نفسك وأفكارك السابقة بتفاصيل
أكثر ، ثم تنتقل بعد ذلك الى القلعة او السجن الحربى حيث
تتلقى بعض المحاضرات من أساتذة دربوا جيدا على عملية غسيل
«المنح» .

فاذا ماكنت مطيعا ومستوعبا لكل ما يطلب منك فتح لك الباب
على مصراعيه لتخرج .

هذه اللعبة التى درست جيدا من أجهزة متخصصة تلقت
التدريب عليها فى الولايات المتحدة الامريكية بدأت تمارسه
معنا بعنف .. وداخل المعتقل .

وجاء عدد من الضباط المتخصصين ليقوموا معنا ليل نهار
بمارسون فيها عملية «تحويل المتحرد والنائر الى خرقة بالية»
فأقده الثقة فى النفس وفى كل شئ،

خطابات موجهة تصل من الاهل .. كلها تطلب من الابن
أو الأب الخروج «وسماع الكلام»
زوجات يطلبن الطلاق .. وأخريات يكتبن يشرحن لازواجهن
كيف ضاقت فى وجههم الحياة حتى اصبحوا على أبواب
الانحراف هكذا .

وطفلة ترسل لوالدها « أخرج من أجلى ومن أجل ماما ..
قالوا لى انك لاتريد ان تخرج لانك تكرهنا .. أنا اكرهك »
والده مسن يكتب لابنه :-

لماذا لا تريد ان تخرج .. اننى على مشارف الموت وكم كنت
أود أن أراك قبل أن أموت .. اخرج من أجلى كفاك عنادا ..
وما زلت اذكر هنداوى الصادق العامل بشبرا الخيمة ، وكم
كان مناضلا صلبا ومصريا تعزز به الطبقة العاملة المصرية ..
تعرض مرات عديدة للضرب وللجلد أيام التعذيب البدنى ولكن
لا يمل والاصرار لم ينطفئ فى عينيه بل كان يخرج من كل
«علقة» وهو يقول ساخرا :

زعلانين ليه .. ولا يهكموا .. دانا زى القلط بسبع
أرواح .. «أقبل فجأة بدأ ينطوى على نفسه ويخرج كئيبا
ليجلس وحيدا بجوار السور ويظل هناك لساعات طويلة ..»
لقد أصاب السهم كعب اخيل والتقيت به يوما فى عزلة :
- : مالك يا هندوى ..
- : ولا حاجة ..

- : احنا صحاب .. فيه حاجات كثيرة .. قوللى
وبكى هنداوى .. بكى كطفل صغير وهو يرمى لى بخطاب

وصله من زوجته .. كان الخطاب كما هو واضح كتبه خبير
التعذيب النفسى .

وابنك هدى أصيبت بالتهاب رئوى ، اذهب بها كل يوم
الى القصر العيني، بعث كل شيء ولم يعد عندي الا أن أبيع نفسي
.. ولا بد ان ألقه هدى .. أما انت فالله يسامحك ..؟

ويومها احتضنت هنداوى وأخذت أخفف عنه وأؤكد له ان
زوجته تبالغ فى الكلام بناء على توجيهات الاجهزة وأن ابنته
بخير وان زوجته لن تعدم بوسيلة شريفة لكسب العيش . أما
هم فلن يسامحهم الله .

ولكن مثال هنداوى أخذ يتكرر وبصور أخرى .. أحدهم
صرخ فى وجهى وأنا أخفف عنه
- : يدك فى الماء البارد .. فأنت لست أب ولا تعرف .
وأخر قال ساخرا :

- : لماذا نعانده وأهلنا فى الخارج يعانون .. من أجل
الفقراء والمظلومين .. طظ .. لأحد يحسن بنا .. أولادى
يجوعون تلك هى القضية الآن .. لا بد ان أخرج ..
- : قلت له فى هدوء

- : تستطيع ان تخرج ..

قال لى فى انفعال :

- : كيف .. كيف .. ان اكتب ما يريدونه .

- : ألسنت تريد ان تخرج ..

- : ولكن أريد ان أخرج مواطننا شريفا .. وليس خرقة
بالية .

هكذا كانت معركة قاسية ضارية تدور فى اعماق كل
واحد منا وان تفاوتت مظاهرها وفقا لحجم المشكلة الخاصة التى
يواجهها كل واحد ووفقا لمدى نضج ووعى الانسان بمثل هذه
الاساليب .

واحساس ذاتى بالدفاع عن النفس ، وبادراك لابعاد معركة
« التصفية السلمية » التى بدأت تشن على المعتقلين بعنف ،
نفجرت الطاقات والابداعات الفنية والفكرية .
فانشئت جامعة شعبية تدرس جميع ألوان العلوم والفنون

وكانت هيئة التدريس تتكون من مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية مثل الدكتور فؤاد مرسى أستاذ القانون بحقوق الاسكندرية والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله أستاذ الاقتصاد بحقوق القاهرة والدكتور فايق فريد الأستاذ بهندسة القاهرة والدكتور عبد العظيم انيس الأستاذ بكلية العلوم والدكتور عبد المنعم عيد المدرس بكلية الطب - القصر العيني والدكتور حسين كمال الدين الأستاذ بعلوم الاسكندرية والدكتور فوزى منصور الأستاذ بكلية التجارة وعدد آخر ممن بتصميم بناء مسرح روماني في حوش السجن واستمر العمل اساتذة الجامعات والمختصين في الفلسفة والفن والحق بهذه الجامعة عدد كبير من الزملاء وخاصة العمال والفلاحين كما أقيمت المعارض الفنية للنحت والرسم واشترك فيها فنانون مثل حسن فؤاد وداود عزيز ووليم الملك وصبحي الشاروني وسعد عارف .

وعقدت المسابقات والندوات حول القصة والشعر اشترك فيها معين بسيسو ومحمد صدقي ومحمود أمين العالم ومحسن الحياط ورؤوف نظمي وشوقي عبد الحكيم وأمير اسكندر . وابراهيم عبد الحليم وزكي مراد وصلاح حافظ وفتحى خليل وصنع الله ابراهيم وكمال القلش .

كما بدأ نشاط مسرحي واسع وقام المهندس فوزى حبشى بتصميم بناء مسرح روماني في حوش السجن واستمر العمل فيه لأكثر من شهرين وجاء في حد ذاته تحفة فنية رائعة. وافتتح بمسرحية جديدة لأفريد فرج هي «حلاق بغداد» ثم «الحيز» لصلاح حافظ ثم توالى عليها العروض المسرحية التي كانت كلها تأليفا وتمثيلا وإخراجا من المعتقلين فقدم لشوقي عبد الحكيم مسرحية العتمة وقدمت مسرحيتين «الكوبري» و«الفنائب» ومسرحيات أخرى للويس بقطر ومحمود أمين العالم . كما تقدم على المسرح عدد آخر من المسرحيات التي كانت تعد في الخارج مثل «عيلة الدوغري» لنعمان عاشور والسبنسه لسعد وهبه وبعض مسرحيات شكسبير وبرنارد شو ونجيب الريحاني .

كما زاد الاهتمام باثراء المكتبة .. وقام كثير من الزملاء باستجلاب كتب من مكتبتهم الخاصة حتى وصل مجموع الكتب عندنا الى حوالي ١٠ آلاف كتاب كلها من النوع الجيد وتضم احسن وأحدث المؤلفات فى الثقافة والفلسفة والقصة والمسرح والتربية وعلم النفس والاقتصاد .

وهكذا ماج المعتقل بحركة ثقافية وفكرية واسعة لى مقابل حملات التصفية التى كانت تواجه ضدنا

كان سلاحنا فى مواجهة عمليات «للتخريب النفسى» هو مزيد من الثقافة والفكر ومزيد من الوعى والادراك بواقع بلدنا والعالم الذى نعيش فيه .

الفكر .. سلاح الانسان الجديد انسان المستقبل فى مواجهة كل اساليب التعسف والاضطهاد وامتهان الانسان سواء كان امتهانا جسديا أم تعسفيا .

وكان سباقا شاقا ومجهدا .

على الطرف الآخر أساتذة لا يقيمون وزنا للانسان كل مادرسوه وعرفوه هى النقاط نقاط الضعف وتضحيتها بكل الوسائل والامكانيات المتاحة يمارسون خبراتهم فى مجموعة من المعتقلين المعزولين عن الحياة فى صحراء قاحلة .

وآخرون يؤمنون بالانسان ،بطاقته بقدراته بغد مشرق تذوب فيه الفوارق الطبقيه فتحاصر فيه نقاط الضعف وتطور فيه كل ملكات الانسان من أجل أن يعطى ويبتكر ويبدع لخير ولخير شعبه ..

ولا سلاح فى يدهم الا ذلك الايمان بالفد وفى اتون هذه المعركة ، الهادئة من السطح المستعمره فى الاعماق يسقط بعض الضحايا .

فقد ثلاثة من الزملاء عقولهم فى المعركة بعد أن اختلطت عليهم الامور وتجاوزتهم الرغبة فى الخروج الى الاهل والرغبة أيضا فى الاحتفاظ بأدميتهم فتاهت عقولهم ..

وزملاء آخرون ، وثقوا مثلما وثق الأب ياناريوس فى رواية الاخوة الاعداء للكاتب اليونانى كازانتزاكس يعرفون أين الحق والخير والعدالة ولكن ضعفهم يجعلهم يقفون على قمة الجبل الفاصل بين رجال الكابتن الاحمر وجيوش الكومندان الابيض

.. لا يجدون مخرجاً من كل هذا الا بمزيد من اللجوء الى الله
تماماً مثلما كان يلجأ الأب ياناروس الى المسيح والعذراء ليبيكي
الليالي الطوال في المذبح وتحت الايقونة المقدسة «يجب أن
أحصل على جواب .. أريد جواباً واسم الله .. آه لو كان
الانسان يستطيع أن يرقص على الجحش الملتهب ، آه لو كان
يستطيع أن يسير في هذا العالم دون أن يسقط في اليأس
والخوف واللعنة .. ولكن ياإلهي ماأقسى مايحتمل الانسان من
الصراع والألم قبل ان يبلغ ذلك ..»

وكان رزق مكارى وهو واحد من الزملاء الذين تاهت عقولهم
وهم في خضم معركة الذات القاسية ، يعذب كل منا ونحن نراه
يمضي في فناء السجن أو في طرقات العنبر يردد منولوجاً
طويلاً وبصوت عال أحياناً وينخفض أحياناً أخرى وكأنه هملت
حينما لم يكن قادراً على الحسم بعد .

- : أخرج أو لاأخرج .. عملت ايه ولا حاجة ، كل الخير
لكل الناس .. كفاية قتل كفاية ضرب .. مراتى أولادى ..
أنا جاي .. لا لأ .. استنوا اصبروا .. ها .. ها .. يحيا
الوفد .. يحيا كل حاجة ويسقط السمك في الماء .. ها .. ها
.. ولقد طلبنا بأن يذهب رزق والزميلان الى المستشفى او
يخرج عنهم ولكنهم رفضوا .. وكان مغزى الرفض واضحاً هو
أن يظل رزق والزميلين الآخرين بيننا كنوع من الاشباح المعذبة
تلعب دور الساحرات والمنتبآت في المسرحيات الاغريقية لكي
يظل شبح المأساة معلقاً أمامنا وكأنه قدّر لا مفر منه .

وجاء حسن المصيلحي نفسه ومعه أركان حربه الى أرض
الواحات ولأول مرة ليشن معركة مباشرة (وليضع شعاعاً) :
«أما الموت في الصحراء» «وأما الجنون» وأما كتابه مايملى
عليك» وارتكب قائد التصفية بذلك خطيئة عمره ، فلقد كان
مجرد وجوده في الواحات حافظاً لاطلاق طاقات هائلة من القوة
والصلابة في اتجاه معاكس تماماً لاغراضه .

لقد حسب المصيلحي وفقاً للتقارير التي وصلته عن حالة
بعض الزملاء وصمت بعضهم وفقدان البعض للعقل ، ان البذرة
قد تأكلت من الداخل وانها نزهة المنتصر الذي سيقلع البذور
بضربة فأس واحدة ..

وحينما بدأ يستدعى في الليل ، وبعدما تغلق العنابر ،
مجموعات من الزملاء يساومها على الإفراج بشروطه كان
مأسمعه من هؤلاء الزملاء معاكساتها لكل أحلامه وتصوراتها .
كلهم رفضوا عروضه ومزقوا الورق الذي قدمه لهم ورموه
في وجهه ، وألقوا في وجهه أيضا بكلمات لا يمكن أن ينساها
طيلة حياته .

أنت عميل للمخابرات الأمريكية وعدو لمصر وشعب مصر .
قالها له عامل بسيط هو هندواي الصادق الذي اختاره
المصليحي بعد تجربة الخطاب الذي أرسلته زوجته ،
بل أن رزق مكاوي استعاد عقله معه ، وجرى وراءه وهو
يصر أنه كلب مسعور لا بد من التخلص منه . . . وقيل له . .
أنت فاشي صغير . . وسيأتي يوم تحاسب فيه على كل جرائمك
البشعة . .

ولم يتحمل المصليحي أكثر من ليلة ثانية غادر بعدها المعتقل
وهو الذي كان قد أعلن عقب وصوله أنه سيبقى أسبوعا
ليصفي المعتقل بشروطه ،
ولابد وأن مرارة الفشل هي التي جعلته يقسم أن أحدا لن
يخرج من هذه الصحراء الاثنى حالتين . . . أما محبولا على أربع
أو صاغرا لأوامره ومنفذا لتعليقاته .
ومرة أخرى نكسب معركة الثقة بالنفس والقدرة على مواجهة
أساليب التعذيب النفسي .

ليس هذا فقط بل لقد كان لزيارة المصليحي جانبا ايجابيا
آخر فلقد أوضحت على الأقل ان هناك رغبة في تصفية المعتقل
وأمكننا بالخيط ، ودارت مناقشات واسعة بين كل الزملاء .
هل نبقى مدافعين فقط ، تمارس علينا كل الأساليب
المختلفة من التعذيب البدني والنفسي والضغط الخارجي
والداخلي لنواجهها الواحد تلو الآخر . . أم ان علينا أن نبادر
بالهجوم وبكل الامكانيات المتاحة .
وكان لابد من عمل شيء . . شيء أكثر حسما . . . وكان
القرار . . . الاضراب عن الطعام . . حتى الموت أو الإفراج . .
وكان قرار خطير .

- ١٨ -

يا ايها الشرفاء لاتهنوا اذا
 طفت الذئاب، لاترهبوا طرق
 الهدايه ان خلت من عابريها ،
 سيروا بنا نستخلص الانسان
 من عار العذاب
 الحسين نائرا - عبد الرحمن الشرقاوي

يوليو ١٩٦١

اقى اليوم الاول حماس
 فى اليوم الثانى احساس جارف بالجوع
 فى الثالث بعض الآلام فى المفاصل وكان صواميل الجسم
 تفك .

فى اليوم الخامس والسادس مرحلة انتقالية غريبة تحس
 فيها كما لو كان شيئا آخر منفصل ينمو داخل شرنقة الجسد
 وابتداء من اليوم السابع انتقال تام الى مرحلة أخرى الذهن
 فيها صاف وهائم والجسد نائم متبلد والأحلام كلها تدور حول
 موائد فيها ماله وطاب ، ثمانية عشر يوما منذ بدأ الاضراب عن
 الطعام الذى دخله أكثر من ٣٥٠ معتقلا بعد أن استبعد الاطباء
 عدد كبير ممن لا يستطيعون تحمل مشقة الاضراب نتيجة
 مرضهم أو هزالهم .

وقد أصرت مثلما أصر عدد آخر من الزملاء على الدخول فى
 الدفعة الاولى فى اليوم الاول بالرغم من التحفظات الشديدة
 التى أبداه الدكتور عبد المنعم عبيد فلقد كان الاحساس
 الجارف اننا وصلنا الى مرحلة يمكن أن يضحي الانسان فيها
 بحياته حفاظا على قيمة وانسانيته . . . كان المطلوب فى البداية
 ١٥٠ متطوعا وتطوع ربمائة وتدخل الاطباء يختارون ؛ وفى
 اليوم الاول أعلن مائتين الاضراب عن الطعام ، وفوجئت ادارة

السجن وحاولت فى البداية اقناعنا بالعدول، ولكنها فى النهاية بعدما أدركت اصرارنا بدأت تتخذ الاجراءات المتبعة فى مثل هذه الحالة وهى عزل المضربين والكف عن تقديم الطعام أو أى شىء آخر فيما عدا المياه .

وبعد الدفعة الاولى بيومين أعلن مائة آخرون انضمامهم للاضراب .

وفى اليوم الرابع دخل خمسون آخرون .

وأدركت الادارة انها بازاء معركة أكبر من طاقتها واستنجدت بالقاهرة . . . فمرور أكثر من خمسة أيام على الاضراب يعنى أن هناك جدية ويعنى أيضا ان حياة المصريين يمكن أن تكون فى خطر . . .

وانقضى الاسبوع الاول فى مهرجانات من الاحتفالات النضالية والاناشيد . . . كانت كل ذقعة جديدة تدخل الاضراب تلهب المشاعر وتضرم نار الصدور المتلهفة والتي ترى فى معركة الاضراب أول تحد كبير من ناحيتنا فى مواجهة اهدار القانون والحريات واهدار انسانية الانسان .

كان احساسى مثل احساس كل زملاء الذين يشاركونى الغرفة اننا فى معركة حقا واننا نقاتل بسلح لا يستطيع أن يملكه الا من هانت عليه الحياة دفاعا عن الحياة .

وكانت لبعض الاناشيد تأثير خاص وأنا أسمعها بعد اسبوع من الاضراب وخاصة ذلك النشيد :

ثبتونا فى المنامى	واملاوا منا السجون
سوف تأتیکم لىالى	ظلمها حتف المنون . .
انعمیم وبنوکم	فى المنامى تائهون . .

وكنت اضيف على قدر ما استطيع أن أرفع صوتى . . .
جانعون . . جانعون . وفى اليوم العاشر جاء الحاكم العسكرى

لمنطقة الوادى الجديد ٠٠ والتقى بعدد منا وطلب فك الاضراب مقابل مزيد من المكاسب مثل فتح السجن ليلا ونهارا وزيادة مخصصات الاكل والسماح بالزيارات ورفضنا ٠ كان مطلبنا الموت أو الافراج ٠

وبعد ذلك بيومين جاء مندوب من القاهرة ليعرض بالاضافة الى المكاسب السابقة أن يحمل مذكرة بأرائنا مشفوعة بطلب الافراج ورفضنا ٠ وكان مطلبنا الموت أو الافراج ٠

وجاء الكثير من المسئولين ٠٠ وكان موقفنا ثابتا ، بالرغم من أن حالتنا الصحية بدأت تسوء ، ودخل عدد من الزملاء فى حالات اغماء خطيرة ومع ذلك رفضنا فك الاضراب ٠ وفى اليوم الخامس عشر كان من الواضح اننا على وشك ان تقدم ضحايا فلقد ساءت للنساية حالة زميلين هما الدكتور رؤوف نظمي والمهندس عبد الله كامل ٠

وجاء نائب الاحكام العسكرى فى المنطقة ليسجل الحالة وليفتح محضرا بأقوالنا وشهادتنا وملا أكثر من مائة وعشرون صفحة ستظل واحدة من أهم وأنصح الوثائق فى تاريخ نضال الشعب المصرى من أجل الديمقراطية ٠٠ حاول الرجل والحق يقال ان يخلى مسؤوليته فسجل شهادتنا بالكامل ٠

وفى يوم ٢١ يوليو أى فى اليوم السادس عشر للاضراب جاءنا مندوب من الرئاسة ليتحدث الينا بتفويض من الرئيس جمال عبد الناصر ٠

وأكد الرجل ادانته باسم الرئيس جمال عبد الناصر لكل ماتعرضنا له من تعذيب وانه يجرى حاليا محاسبة للذين نفذوا هذه السياسة ٠٠

كما أكد أيضا أن الظروف التى أدت الى اعتقالنا قد انتهت وأن هناك بحثا جديا على أعلى المستويات للافراج عنا وأن الرئيس عبد الناصر ومعه عدد آخر من مجلس قيادة الثورة مقتنعون تماما بضرورة الافراج ولكن بعض أعضاء المجلس مازالوا معترضين وأن هذ الاعتراض فى طريقه لأن يزول ٠ وقال كلاما كثيرا ٠٠ بل وقال انى موفد لأقول لكم انه لن

يفرج عنكم فقط بل اننا محتاجون لكم وبشدة فى المرحلة القادمة .

وكان من الطبيعى ان نرفض فك الاضراب ، فحتى الآن لم نسمع سوى كلام ..

وطلب المسئول شيئا واحدا نأخذ بعده قراراتنا وهو ان نستمع لخطاب الرئيس عبد الناصر مساء غد (٢٣) يولو سنة (١٩٦١) ففيه تأكيد عملي لكل ماقاله لنا بل وعلى حد تعبيره فان هناك مفاجأة كبرى ستعلن غدا .. وهى الثورة الاشتراكية وليس من المعقول ان تعلن الثورة الاشتراكية فى حين يبقى الاشتراكيون فى السجون والمعتقلات .

وانتقنا للانتظار غدا لسماع خطاب عبد الناصر . وكانت المفاجأة ..

تاميم واسع للقطاعات الانتاجية فى الصناعة وتاميم البنوك والشركات والتأمين والتجارة الخارجية .. اعلان ماسمى بالاصلاح الزراعى الثانى ووضع حدا أقصى للملكية الاسيرة بمائة فدان ..

الهجوم على الرأسمالية المصرية الكبيرة وتسريحها . الدفاع عن مصالح العمال والفلاحين واشترك العمال فى مجالس ادارة المؤسسات والشركات وتوزيع نسب فى الارباح عليهم .. تبنى النظرية الاشتراكية فى التطور . باختصار كان الخطاب يبدو من الوهلة الاولى تحقيقا لغالبية الشعارات والاهداف التى كنا نرفعها فى السنوات الماضية .. وقررنا فك الاضراب على أساس أن هناك انتصارا سياسيا قد تحقق باعلان تلك الاجراءات الاجتماعية والوطنية الهامة . وعلى أساس أن الافراج عنا على ضوء تلك السياسة أمرا مفروغا منه .

فليس من المعقول ، كما قال مندوب الرئيس ان نبقى فى السجون فى حين أن الاهداف والشعارات التى دخلنا من أجلها السجن ، تتحقق وتتبنها الدولة وتعلنها بشكل رسمى . ولكن فك الاضراب لم يكن سوى بداية لمرحلة جديدة . مرحلة طويلة ومريرة لاتقل ، بل ربما تزيد قسوة عن

المرحلتين السابقتين .. فاذا كانت المرحلة الاولى هي ما يمكن أن نسميه بالتعذيب الجسدي وإذا كان المرحلة الثانية هي التعذيب النفسي والروحي فإنه يمكن القول انه بالنسبة لنا بدأت مرحلة الصراع السياسي العنيف داخل الاسوار . وفرق بأن تفكر وأنت حرا طليقا أو أن تفكر داخل الزنازين والاسوار فبعد السكرة الاولى في أعقاب الخطاب وأيضا في أعقاب انتهاء الاضراب والتي استمرت أكثر من أسبوعين لكي يسترد الكثير من الزملاء صحتهم وقدرتهم على استيعاب وهضم وتحليل ما حدث ، بدأت أعنف وأعنف مناقشات سياسية يمكن أن

تجرى .

وتبلور داخل المعتقل ثلاثة اتجاهات رئيسية :
اتجاه يرى في التأمينات الواسعة التي أعلنت نوعا من رأسمالية الدولة ودعما للنمو الرأسمالي في صورة جديدة حيث أن الرأسمالية المصرية ضعيفة وغير قادرة على مواجهة متطلبات مرحلة النمو فلقد قامت الدولة بالتدخل للاسراع في تنظيم ودفع التطور الرأسمالي .

واتجاه آخر يرى في اجراءات التأمين تحقيقا للاشتراكية وأخذا بالمنهج الاشتراكي في التطور وضربا للنمو الرأسمالي وذهب هذا الاتجاه الى القول بأنه توجد على قمة السلطة «مجموعة اشتراكية» يجب مساندتها بلا حدود وبدون تحفظ وبين هذين الاتجاهين برز اتجاه ثالث كان يرى في الاجراءات ضربا وتصفية للرأسمالية الكبيرة وقطاعات من المتوسطة وانه يفتح الطريق أمام نمو غير رأسمالي . ولكن هذه الاجراءات ستبقى عاجزه عن السير في هذا الطريق دون بومير المناخ والاسس الديمقراطية التي تساعد الحركة الجماهيرية والشعبية على اعطائها العمق والبعد الاجتماعي اللازمين وحول هذه الاتجاهات الثلاثة الرئيسية وعشرات التفرعات الاخرى دارت أعنف وأقسى مناقشات سياسية وأغناها في نفس الوقت ..

ولقد سافرت بعد ذلك كثيرا وحضرت ندوات سياسية وعلمية كثيرة في الداخل والخارج ولكنني ما زلت أزعج أن

كانت أغنى وأعمق مناقشة سياسية مرت بها ٠٠ فقط كان يشوبها ظلال السجن ٠٠ وظلال السجن يمكن ان تصفى على الآراء السياسية ٠ ابعادا قد لا تحس بها فاحيانا قد يكون متحمسا لفكرة ولكنك تخفى هذا الحماس الزائد أو على الأقل تخفف منه حتى لاتتهم أو يثور فى نفسك الاحساس بأن هذا جاء نتيجة خوف أو رغبة فى الخروج ٠

واحيانا قد تنبهر بفكرة ويكون هذا الانبهار نابعا ودون أن تدري من سنوات العزلة القاسية التى فرضت علينا وكانت هناك ثلاثة منابر أساسية يعبر كل منبر منها عن رأى من الآراء الثلاثة ، كان هناك مجلة الطريق اى اتخذت بغيرة ما الخط الاول وهو الذى يقول انها اجراءات رأسمانية متقدمة ولن يكون لها فاعلية حقيقية الا بتوافر المناخ الديمقراطى ٠ وكان هناك أيضا مجلة «الهواء» التى ذهبت الى اننا بصدد اجراءات اشتراكية وكان هناك أيضا (الافق) وهى التى أخذت موقفا وسطا بين الموقفين السابقين ٠

ولكن كان هناك البعض وأنا منهم يمسك ترموتر أساسى للحكم على أى اجراءات وهو انعكاس ذلك على الحركة الجماهيرية والسياسية وفى المحل الاول تصفية المعتقلات ٠

ولم نكد نفيق من مناقشة الاجراءات الاقتصادية والتى أعلنت ٢١،٢٢ يوليو حتى حدثت مفاجأة سياسية أخرى ربما كانت أبعد أثرا وهى الانفصال السورى فى سبتمبر من نفس العام ٠

وعشنا أياما نلتف فيها حول أجهزة الراديو ونتابع لحظة بلحظة مجريات الامور ومن جميع الاذاعات ٠٠ القاهرة - دمشق - لندن - صوت أمريكا - موسكو - بغداد ٠

وقامت «واس» اى وكالة انباء عبد الستار الطويلة بدور كبير فى نشر ملخص لما تقوله الاذاعات المختلفة حول ذلك الحدث مرتين فى اليوم ٠

كان الموقف خطيرا فى اليوم الاول وكنا نضع ايدينا على

قلوبنا وخاصة بعد ان سمعنا الرئيس عبدالناصر يأمر بتوجيه فرقة من المظليين الى اللاذقية للفضاء على الانقلاب .

ولم ينم أحد ليلتها . . فلقد كان الاحساس الاول انها ضربة من تخطيط استعماري رجعي مستفيدة من الاخطاء القاتلة التي صاحبت عملية الوحدة نفسها . . ولكن أن تصل الامور الى حد ارسال قوات فان ذلك خطرا أكبر ليس فقط على سوريا بل وعلى مصر نفسها .

ولكن سرعان ماساد العقل ، وفي اليوم التالي أذاع الرئيس عبد الناصر بيانا أدان فيه الانفصال ولكنه وفي الوقت نفسه أعلن ان مصر لن تستخدم السلاح في فرض الوحدة .

كان الانفصال السوري مفاجأة تامة لنا داخل المعتقلات ، وان كنا نحن قبل أى انسان آخر قد حذرنا منذ ثلاث سنوات من أن قيام الوحدة على أسس ليست ديمقراطية سيعطي الفرصة واسعة لاعداء الوحدة العربية من امبرياليين ورجعيين بالانقضاض عليها . . ولقد كان ذلك السراى الذى قلناه ، وانذى جر علينا متاعب كثيرة هو الذى دفع بالقطاعات الوطنية المختلفة فى ذلك الوقت لاتهام الماركسيين بأنهم أعداء الوحدة وأعداء القومية العربية .

بل ان جوهر المعركة السياسية سنة ١٩٥٩ كان يدور حول هذه النقطة . . وحدة فورية شاملة غير مدروسة وتقوم على أساس الغاء كافة التنظيمات السياسية الجماهيرية والوطنية . أم وحدة مدروسة تتم على خطوات وعلى أسس ديمقراطية سليمة وازعة فى اعتبارها الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لكل بلد . . فالقول بأن القوى الامبريالية والرجعية هى التى ضربت هذه الوحدة قول صحيح ولم تكن فى حاجة الى مزيد من الوثائق لفضح تأمر تلك القوى ولكن ان هذه القوى ماكانت تستطيع أن تضرب حلما جماهيريا لدى الشعوب العربية بتلك البساطة مالم تكن هناك ثغرات وأخطاء استطاعت أن تنفذ منها وتضلل .

ومن الصدف الغريبة ان أبو سيف يوسف كان سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى المصرى فى ذلك الوقت كان يحاكم فى

الاسكندرية أمام محكمة عسكرية خاصة برئاسة الفريق
الدجوى ، وكان ابوسيف يدافع عن آرائه وخاصة تلك التي
تتعلق بالوحدة العربية وكان مما قاله :

« ان الوحدة العربية على الاساس انذى نمت عليه بين
مصر وسورية فيها الكثير من الاخطاء التي يمكن أن تعطى
للقوى الامبريالية والرجعية القرص لضربها . . انى أطالب
نورا بدراسة هذه الاخطاء وبوضع حلول حقيقية لها وذلك
باعطاء الجماهير فرصة اوسع وباشاعة الديمقراطية وذلك حفاظا
على دعم أمنية غالية وسدا للطريق أمام محاولات الرجعية
والامبريالية لضرب هذه الامنية والا فهناك خطر الانفصال » .

وفى اليوم الثانى جاءت أنباء الانفصال ، ووقف أحمد مجاهد
المحامى عن أبو سيف يوسف ليسجل أمام المحكمة .

« اننى أطالب بالافراج الفورى عن موكلى الذى أثبت انه كان
أبعد نظرا وأكثر قدرة على فهم مشاكل العمل الوطنى
والوحدوى ، ولكن أبو سيف لم يفرج عنه كذلك لم يفرج على
أى منا .

وكان علينا أن ننتظر أكثر من سنتين ونصف .
لماذا ؟ .. سؤال محير ..

- ١٩ -

إذا أردتم نصيحة أيها الحملان
الصغيران فاقفوا من فوق سور
الخطيرة .
أخرجوا من قبوركم يا أولادى
المساكين .

كازاتراكس - الاخوة الاعداء

مايو سنة ١٩٦٢

لم يجف الصراع السياسى داخل المعتقل بل استمر يتخذ مجراه ولكن على أرضية أقل توترا وأكثر روية .
كانت المناقشات فى البداية ، وعقب اعلان الاجراءات الاجتماعية الواسعة فى يوليو ثم بعد ذلك الانفصال السورى فى سبتمبر ، تجرى كلها وهناك شبه قناعة بأن الافراج عنا مسألة وشيكة .

اليست الاجراءات الاجتماعية التى اتخذت من ضرب المصالح الرأسمالية الكبيرة وتأميم واسع للشركات والمؤسسات الاساسية هو انحياز لوجهة نظرنا التى طالبنا بها ودافعنا عن تحقيقها طوال السنوات الماضية وليس الدور الذى اتضح وقام به الاستعمار والقوى الرجعية من داخل الاتحاد القومى نفسه ، للعمل على مؤامرة الانفصال هى خير شاهد على صحة وجهة نظرنا التى سبق وأعلنها فى الوحدة .

ليس هذا فقط بل ان عبد الناصرلقى خطابا بعد الانفصال بعدة أيام فى جامعة القاهرة قدم فيه نقدا ذاتيا حول كثير من التصرفات والاجراءات التى تمت فى السنوات الماضية .

وكان مما قاله فى هذا الخطاب الكثير مما سبق ونبهنا اليه وحذرنا منه .

قال ان الرأسمالية الكبيرة المصرية حاولت ان تسرق الثورة

وتصوروا ان معركة الاستقلال التي خاضها الشعب المصري سنة ١٩٥٦ وما أعقبها من تمصير وتأميم للشركات الاجنبية هي فرصة لهم لزيادة كعكتهم على حساب الجماهير . وقال لقد نبت ان الرجعية تغلغلت داخل الاجهزة وكانت تعمل من أجل السيطرة الكاملة على الدولة وقال ان الذين تأمروا على الوحدة كانوا عناصر قيادية داخل الاتحاد القومي وداخل اجهزة الدولة . وأن مصر ستضع يدها مع قوى الثورة العربية والعالمية في كل مكان .

وقال انه لا طريق أمامنا سوى مزيد من الحرية للجماهير والاعتماد على حركة الجماهير من أجل بناء مجتمع تسوده الكفاية والعدل .

بتلك المقاييس التي قالها عبد الناصر نفسه بعد ثلاث سنوات تكون تلك المجموعات التي أُلقيت في السجون ولاقت مالاقت خلال تلك الفترة هي أصدق وأكثر الجباعات تعبيرا ودفاعا عن الحقيقة . . هذا الكلام الذي أصبح سياسة رسمية للدولة على لسان رئيسها عندما قبل منذ ثلاث سنوات صدرت الاتهامات المخجلة « بالحيانة والعداء للوحدة » على لسان المصفقين والمهملين وكذابي الزفة والمرتزة . . ويبدو أن هذا السبب بالذات كان وراء تأجيل الافراج عنا فإذا كان كدابوا الزنافة والمرتزة قد فضحوا في سوريا فانهم في مصر موجودون وقادرون على التلون والتكيف تماما كالحرباء . . وكانوا متخصصين داخل الاجهزة وجهاز المباحث العامة على وجه خاص . .

ولان رئيس الجمهورية نفسه قد اعترف بصدق الاقوال التي دخلنا من أجلها السجن والمعتقل منذ ثلاث سنوات ، ولان الافراج عنا كان يعني تلاحما بين أقوال عبد الناصر وبين القادرين على وضع هذه الاقوال موضع انتقيد ولان حسن المصيلحي ، ومنذ عدة شهور فقط ، قد أقسم بشرفه - وهو شرف تعرفه جيدا المخابرات الامريكية - اننا لن نخرج من هذه الصحراء الا محمولين على الاعناق ، أي موتى ، واما منفذين لما يطلبه ويريده .

للكل هذا ولأمور أخرى كثيرة اتضحت فيما بعد لم يفرج عنا ، ليس هذا فقط بل وواصلت أجهزة المصليحي معركتها القدرة في محاولة التصفية النفسية والمعنوية للمعتقلين .
وعرفنا فيما بعد انه عندما طلب عبد الناصر من المصليحي البدء في الإفراج عن المعتقلين طلب المصليحي مهلة للتصرف «حتى لا يخرجوا ولديهم احساس بأنهم أبطال» .

وكانت أول رسالة واضحة وصلتنا بهذا المعنى ، حينما أعيد الى المعتقل عدد من الزملاء المسجونين الذين كان قد حكم عليهم في أوائل الخمسينات (من سنة ١٩٥٢ الى ١٩٥٤) بأحكام متفاوت بين ثمانية وعشر سنوات .
كان هؤلاء قد أتموا سنوات الحكم كاملة رغم أن بعضهم كانت جريمته انه حاول اسقاط الحكم في أيام النظام الملكي .

وعندما رحلوا الى القاهرة للإفراج عنهم لم يكن يخالجنا شك في انهم خارجون وخاصة بعد كل تلك الظروف .
ولكنهم عادوا إلينا بعد أيام وقد تحولوا من مسجونين الى مفسدين أي أن ير تدوا الزى الأبيض بدلا من الأزرق ويقيموا في عنبر اثنين بدلا من عنبر واحد .

كانت عودة حمدي عبد الجواد وداود عزيز وزكي مراد ومصطفى طيبة ووديع وهيب ومحمد شطا بعد أن رفضوا عروض المصليحي والجلوس على كرسي اعترافه المهيمن ، تأكيداً لنا بأن ماتصورناه في البداية أمراً طبيعياً وهو الإفراج عنا ليس بتلك البساطة . . وكان تأكيداً في نفس الوقت لمغزى ظل ملازماً للمرحلة كلها وهي أن الهوة بين الأقوال والأفعال ستظل موجودة ومتسعة مهما تغيرت أفكار القيادات التي ترسم السياسة ، فالأجهزة المنقذة هي نفسها لم تتغير .

وقد ثبت كما تأكد بعد ذلك بسنوات ان الحديث عن تغيير جذري في المجتمع بنفس أجهزة الدولة القديمة يظل دائماً مجرد أمانى رومانسية قد تدور في عقل أحد القادة ولكنها لا يمكن أن تتحول الى واقع فعلي .
وفرض الواقع الجديد نفسه حتى على أكثرنا تفاؤلاً . .

ولكن الامور لم تعد مثلما كانت .. فلقد كانت التغييرات السياسية التي تجرى في الخارج تعطينا المزيد من الاحساس بالنقمة والغريب أيضا ان المزيد من الزهد في أى افراج يلونه أى شرط ..

ومضت وتيرة الحياة في الصحراء بعد أن استعادت نبضها الهادئ . الجامعة الشعبية تحتفل بتخريج أول فوج في جميع العروق والتخصصات .. والندوات السياسية والثقافية مزدهرة بل وبدأت تصدر كتب ومؤلفات ومجلات مكتوبة «بخط اليد طبعاً» . وحركة الترجمة تتسع .. ومكتبتنا عامرة . وبين الحين والآخر تقام سهرة فنية على المسرح الرومانى تقدم فيها عروض مسرحية جيدة ..

وفرقه العمل في المزرعة برئاسة المهندس حسين طلعت وعبد المنعم شنتلة تحفنا كل أسبوع بمنتجات المزرعة من طماطم وخيار وخص وبطيخ وأنواع من الحضر المختلفة لتعوض بعض الشيء النقص الواضح في التغذية وفى الكالسيوم والفسفور الذى نعاني منه . ولكن ظاهرة أخرى بدأت تبرز ..

فلقد بدأ عدد متزايد من الزملاء يسقطون فريسة أمراض مختلفة ابتداء من الدوسينتاريا حتى أمراض المثانة والكلية والمعدة .. والعيون .. ويبدو أن فترة الاضراب عن الطعام الطويلة قد قضت على بعض المقاومة لدى البعض فهاجمتهم الامراض بعنف .

ورحل العامل على زهران الى القصر العيني بعد اكتشاف بولينا حادة ولكن على فارق الحياة بعد يومين فى القصر العيني . وكذلك أسعف أحمد البيكار من نزلة معوية قاسية وأرسل الى القصر العيني ، ولكنهم أفرجوا عنه هناك بعد أن اكتشف الاطباء ان حالته ميثوس منها .. ومات البكار بعد أسبوع من الافراج عنه ..

ولقد أحسست فى تلك الفترة بشئ ما فى عيني ..

كان يحتاجني أحيانا صدادع عفيف اعانيه في صممت ثم يعقب نوبات الصدادع ضعف ملحوظ في ابصار عيني وقد كتبت المسألة بيني وبين نفسي لفترة ، فلقد حسبته مسألة عارضة لاتستحق وانها سرعان مانتهى فلم أكن لأريد أن أزيد متاعب الزملاء وخاصة ونحن نواجه كل يوم بعض حالات المرض انشديد ٠٠ ولكن الصدادع استمر كما استمر تدهور الابصار بشكل ملحوظ ٠٠ وفي هدوء توجهت الى أحد الزملاء الاطباء وشكوت له مما أعاني ٠٠ واستمع الزميل في هدوء ثم قام يكشف أولا على عيني وقال وقد امتثلت ملامحه بجسدية غريبة .

- : منذمتي تحس بذلك
- : منذ شهور
- : ولماذا سكت
- : أحسبها مسألة بسيطة

- : ان ضغط العين مرتفع جدا ٠٠ ولا بد من علاج سريع وفي اليوم التالي كنت أعرض على طبيب السجن الذي اتفق مع الزميل في التشخيص وفي خطورة الإصابة وكتب تقريراً بترحيلي الى مستشفى القصر العيني فوراً .

وطوال الاسبوع الذي انتظرتة حتى جاءت الموافقة بالسفر الى القاهرة كان يتزايد لدى الاحساس بخطورة الإصابة . . انعكس ذلك في اهتمام الزملاء الاطباء وفي نظرات الزملاء ورعايتهم وامرارهم على ألا أزاول أى عمل .

وكم كان ذلك يضايقني بل ويحز في نفسي كثيراً ، فحتى اسبوع مضى كنت واحد من المجموعات التي شكلت لخدمة المرضى ولرعاية الزملاء الذين يعانون من بعض الازمات النفسية وخاصة ٠٠ ولقد كنت سعيداً وفخوراً بهذا العمل الذي كان ينمي بداخلي قدرة هائلة وطاقة غريبة على هضم المشاكل ومحاصرتها حتى أن سيد البكار كان يقول دائماً انني أكثر الناس تفاؤلاً في أعمال وأن لدى قدرة غير محدودة على تحويل الدفعة الى ابتسامة .

لهذا كنت أتألم .. نيس فقط للصداق القاتل الذى يهاجمنى
يوميا وليس لآلام العين وتدهور البصر ، بل واكثر من هذا
لانى كففت عن الدور الذى كنت أقوم به باستمتاع بل وتحولت
أنا الآخر الى حالة .

وفى صباح ٦ مايو حملت أمتعتى ولبست بدلتى وودعت
الزملاء الذين حرصوا كلهم على الخروج لتوديعى واتجهت ومعى
الحرس الى الاتوبيس فى الطريق الى أسيوط ومنها الى القاهرة .

كانت الرحلة على الطريق الصحراوى الجديد الذى انفتح
هذا العام ويصل الواحات بأسيوط يستغرق حوالى ست ساعات
قضيتها كلها نائما او شبه نائم فطوال الليلة الماضية ظلمت
وسط الزملاء والاصدقاء الذين أصرروا على أن يقضوا معى تلك
الليلة ، ربما لاحساس بعضهم اننى قد لأعود ونظرا لخطورة
الحالة ، وربما لاشفاق بعضهم من التجربة .. وقضينا الليلة
كلها نروى ونحكى ونسترجع الذكريات ونحاول ان نتخيل
صورة الغد ..

ووصلنا الى أسيوط وانتظرنا فى المحطة بضع ساعات أخرى
حتى جاء قطار السابعة مساء واحتلت أنا وحراسى ديوانا
فاخرا .. كان هناك بعض المظاهر المتكررة التى رأيتها فى
رحلتى السابقة الى أسيوط .. الحرس الذين يملأوا المحطة
ليبعدوا أى انسان من الاقتراب منك ، ثم صف الحراس الذى
تقف عند كل محطة يمر عليها القطار ليطمئنوا الى أن الراكب
الخطير قابع فى ديوانه .

ولكن الرحلة هذه المرة الى القاهرة .. الحبيبة .

ومضى القطار يقطع الليل والارض مبدا سكون الوادى
بصفيره وعجلاته بينما التزمت بشباك فى الممر أطلع منه الى
الحقول النائمة فى حضن أضواء القمر للمكتمل .

ومرت ملوى ومنفلوط والمثيا وبنى سويف ، مدن لم أرها
من قبل ربما فقط سمعت بأننا مررنا عليها عندما رحلت من
الفيوم الى الواحات فى سبتمبر ١٩٥٩

وكانت علامات مضيئة ومشعة فى الطريق الى القاهرة •
لم أتم لم أستطيع ان أجلس لحظة واحدة ، كنت اجهز نفسى
لاستقبال القاهرة أكثر من ثلاث سنوات مرت على هذا الطريق
بعيدا عن القاهرة •

وحينما لمحت على ضوء القمر اهرامات الجيزة تطل من بعيد
كاد قلبى يذوب فى الدقات العنيفة التى اجتاحت •

نسيت عيني ونسيت الامل وكف الصداق أو لم أعد أحس
به شيء واحد كان يجتاحنى والقطار يدخل الجيزة ثم يدور
حولها من خلف الجامعة وبين السرايات وبولاق الدكرور وامبابه
ليدخل فى احضان قاهرته الدافئة •• مدينتى العظيمة • •
الصامدة ، الفارقة فى الاضواء •• هانا أعود •• وامتلات
عيناي بالدموع •

وبالرغم من اننا وصلنا فى ساعة متأخرة من الليل الا ان
ميدان المحطة كان كمادته حيا زائرا ، وألقيت نظرة على بوفيه
المحطة •• هو نفسه لم يتغير وكأني كنت أجلس عليه بالامس
•• وتعود الحياة كلها فى ثلثات على نفس المقعد كنت أجلس
أتناول افطارى أحيانا واقرا جرايد الصباح ، ومن هذه البوابه
كنت أخرج فى الطريق الى الجريدة •• وعلى بعد مئات الامتار
فقط يقبع بيتى •• أختى وأولادها •• وعلى بعد مئات الامتار
يوجد الآن الكثير من الاهل والاصدقاء والرفاق •• كنت أحس
بهم وبقربهم منى •• رغم أنهم ليس لديهم فكرة على الاطلاق
باننى هنا •• اخيرا •• فى القاهرة •

وكان البوكس فى الانتظار • وركبناه فى الطريق الى القلعة
حيث قضيت بضعة ساعات فى زناينة مغلقة
وفى الصباح كنا فى الطريق الى القصر العيني •
معتقل وضابط •• وثلاث عساكر •

- ٢٠ -

الموسيقى تأتي عبر النهر والمظلم
وتسادينى واحترق قلبى ألم
أوم ٠٠ دلنى على الطريق
طاغور الناسك

مايو سنة ١٩٦٢

النيل يجرى فى هدوء وعلى سطحه الرقراق ومياهه الصافية
التي لم تشبها بعد حمرة الفيضان ، تنعكس الانوار المنبعثة
من الجانبين .

ومن شرفة العنبر الواسعة تقف بعض العمارات العملاقة
على الجانب الآخر .٠ فى الحيزه . معظم نوافذها وشرفاتها مفتوحة
بعضها يغمره النور والبعض الآخر يكتنفه الظلام وبعض منها
غارق فى أضواء برتقالية خافتة .

وموسيقى تنبعث من مكان ما يصعب تحديده ، تتضح
أنغامها وتعلوا أحيانا ثم تخفت وتتوه الالغام أحيانا كثيرة مع
صوت احدى العربات التى تمرق فى خفة على كوبرى
الجامعة .٠

وتحت العين والقدم ، وعلى الشاطئ المجاور عنده كازينو
«البل فى» يضم ثنائيات عاشقة او رباعيات ساهرة تنعم بليل
القاهرة ونيلها وتصل الى اذنى احيانا ضحكة عالية متموجة
تثير داخل تيارا فائرا متفتحنا للحياة يوقظ مشاعر واحاسيس
مضى عليها وقت طويل دون ان تمارس حتى كدت انساها .٠
ودقت ساعة الجامعة المجاورة اثنى عشر دقة تتبعتها واحدة
واحدة .٠ كل دقة كانت تلقى بحجر فى بركة الداخل فتثير
العديد من التموجات المتلاحقة وتعصف بالسكون المفتعل الذى

- ١٧٣ -

كان يخيم ، ويمتد شريط الحياة متحركاً ملونا ٠٠ فى كافيتريا
الاداب ، والطريق لم يتضح بعد والعقل منفتح على استعداد
لان يفهم ويستوعب : وقضايا كثيرة نفرض نفسها عليه
ومناقشات صاخبة وهادئة فى البوفيه وفى المدرجات ومع
الاساتذة والبحث عن طريق لمصر الحرة مصر المستقلة مصر
الديمقراطية مصر التى هى ملك لكل ابنائها وبناتها ٠

وشاب ريفى يحمل فى عينيه ورأسه مأسى كثيرة رآها
وعاشها فى قرينته ، البؤس والفقر والتخلف ٠٠ والخوف ، ثم
يدرس الادب الاوروبى والفلسفة ويقارن بين أحوال قرينته وبين
كل كلمة يسمعها من أستاذ أو يقرأها فى مسرحية مقررة أو
قصيدة شعر يدرسها ويسأل ويناقش ويختلف مع بعض
الاساتذة ويعجب ببعضهم ٠ ويحك رأسه بعنف ويواصل
مسيرة الفهم والاستيعاب ٠٠ ويتضح أمامه الطريق ، انه مآجاء
الى الجامعة لكى يصبح مدرسا أو موظفا يتقاضى أجرا بمقدار
الليسانس بل يغمره وعى غريب بأنه مبعوث قرينته بكل
مشاكلها الى المدينة وأن عليه أن يقنع تلك المدينة بعدالة قضية
قرينته ٠٠ ويخطو خطواته الاولى نحو الادراك والوعى الحقيقى
٠٠ بذاته ومجتمعه ٠

— : حيلك ٠٠ دانت مش هنا خالص ٠

قالتها الحكيمة السهرانة التى كانت قد تسللت دون أن
أدرى ٠

ورميت بنفسى على كرسى فى الشرفة بينما وقفت «سحر»
بقوامها الممتد والمتناسق وقد أسندت ظهرها الى جدار الشرفة
وساهم ضوء القمر مع امتداد أضواء الشارع والكازينو فى رسم
صورة مجسمة لها لاتبين تفاصيلها مثل الهة الاغريق وعادت
تقول فى رقة أكثر

— : تشرد كثيرا ٠٠

ودون أن تنتظر ردا ، راحت كعادتها تحكى فى سخرية
ضاحكة عن «الحرس» الذين نام أحدهم على باب العنبر بينما

ارتقى الآخر على سرير خال ، وانها أصبحت الآن مسئولة عنى
 ليس فقط من ناحية العلاج بل ومن ناحية الحراسة ٠٠٠ ثم
 انتقلت من موضوع الحرس الى موضوعات أخرى كثيرة ، ابتداء
 من شكواها من ارهاق العمل الى ظروف والدتها المريضة الى
 الخطاب الكثيرين الذين ترفضهم الى قطة صغيرة سوداء فى بيتها
 الى استعراض ساخر للاطباء والذين تعمل معهم وكيف يغازلها
 كل على انفراد ويحذرهما من الآخر ، واقرحت سحر أن تشرب
 كوبا من الشاي وقامت تعده بنفسها ٠٠ كانت تلك الليلة
 الثالثة لوجودى فى عنبر ١٣ «عينون» فى القصر العينى بعد أن
 استقبلنى فى اليوم الاول الدكتور عصام توفيق الاستاذ المساعد
 للعيون وكتب لى بالدخول فورا «لأجراء عملية جلوكوما» وبالرغم
 من أن الدكتور عصام قد أبدى انزعاجه لتدهور الحالة الا انه
 طمأننى وفى عيونه بريق انساني وهو يتأمل القيد فى يدي .
 - : معلش ٠٠ جت سليمة لم تتأخر كثير ٠٠ ساجرى لك
 العملية بعد خمسة أيام ٠٠

وخلال اليومين الماضيين اللذين قضيتهما فى غرفة خاصة
 فى عنبر ١٣ كانت كل ساعة بل كل دقيقة مليئة بما يمكن أن
 يكون تعويضنا عن السنوات الثلاث فى الصحراء ،
 فى اليوم الاول ٠٠ جاءت أختي وأولادها ٠٠ وكانت واحدة
 من تلك اللحظات المليئة بالانفعال حين أخذت تضمنى وتبكي
 ومعها سامح الذى كبر واقترب منى فى توجس فى البداية ثم
 اندفع نحوى بعد ان تعرف على «خاله»

وفى اليوم الثانى . جاء أبى من القرية وعلى لسانه كلمة
 يرددها :

«الحمد لله ٠٠ رأيتك مرة ثانية ٠٠ الحمد لله ٠٠»

وبالرغم من الاوامر التى كانت لدى الحرس بمنع الزيارة
 أو الاختلاط بالمرضى الا أن ذلك لم يكن من الممكن تنفيذه
 فالعنبر مليء بعشرات المرضى الذين يزورهم ذويهم كل يوم
 كذلك كان من السهل تدبير بعض المظاهر الشكلية حتى لا يضار

أحد من الحارسين الذين كانا على استعداد لتقديم أى الخدمات .
كنت أقضى النهار كله غارقا مع مشاعر الأهل أحكى القليل
وأسمع الكثير . . . أخى الأكبر رشدى ويعمل مدرسا راح الى
مبنى المباحث بعد اسبوع من الاعتقال يسأل عن مكانى فكان
نصيبه علة محترمه مع حجز فى المباحث لمدة ٢٤ ساعة وأكبر
اخواتى تزوج ، وأختى أصبح لها أهذاب وهانى الى جانب
سامح . . وابنة عمى دخلت كلية الآداب قسم انجليزى . .
وابنة الجيران تزوجت وأهل القرية يبعثون السلامات الحارة .

وكان أبى يجلس النهار كله يتأملنى ويتحسنى كما لو كان
قد عشر على شىء أفقده منذ زمن طويل

والحمد لله . . رأيتك مرة ثانية . . »

وحكى أبى كيف انه بعد اعتقالى بفترة ذهب الى الاستاذ
محمد نصر - والد صلاح نصر مدير المخابرات - وكانا زميلين
فى الدراسة بالإضافة الى انه ابن قريتنا

وجاؤل الأب ان يدفع صلاح ابنه ليتدخل للإفراج او على
الأقل لنقل الى القاهرة بعيدا عن التعذيب الذى كانوا يسمعون
عنه .

ولكن صلاح قال :

مستحيل . . ان أمرهم فى يد الرئيس شخصيا ولا يمكن
لأحد منا أن يتدخل .

وأحيانا ماكان يمر الدكتور عصام ونائبه الشاب الدكتور
أحمد فيجلسان قليلا ليسألان عن صحة ماسمعه وقرأوه فى
الصحف الاجنبية والتعذيب الذى تعرضنا له .
ولكن الدكتور عصام كان يقطع الحديث فجأة وهو يتطلع
حواله قائلا :

- : المهم عينيك . . احنا هنا للعلاج
ويمضى بابتسامة جانبية ذات معنى . .

أما «الطيور الجارحة» من المباحث العامة فقد كانت تحوم

دائما حول الغرفة وقد كان من السهل على ان أكتشفهم بالحاسة الخاصة النى تمت عندى بعد طول معاشرتهم حتى اننى أزعم انه أصبحت لدى القدرة على ان أشم رائحتهم .

كانوا يكتفون بالمراقبة ورصد حركتى وحركة من يزورنى ولكن أحدا منهم لم يتدخل .

مرة واحدة فى صباح اليوم الثانى جاء شاب مهذب لم أستطع ان أشمه من البداية ، وقدم نفسه على انه ضابط المباحث العامة وأنه موفد من قبل «المصيلحي بك» للاطمئنان على صحتى وحالة عينى وللتأكيد بأن « المصيلحي بك » حزن جدا حينما عرف بمرض عينى وأنه يتمنى لى الشفاء سريعا .

وقال الشاب المهذب وهو يسلم
- : ان شاء الله تخرج من القصر على بيتكم .

وخرج . واعتبر أبى أن ذلك تأكيداً بأنهم سيفرجون عني . وتركت الرجل الطيب يملأ صدره بالآمال ولكنى أحسست بضيق غريب وأنا أسمع عبارة الضابط المهذب واجتاحنى احساس بأن وراء الكلمات معنى آخر .

وأحيانا ماكنت أنزل - ومعنى الحرس - الى عنبر المعتقلين فى الدور الاول ، حيث خصص لنزول المعتقلين القادمين للعلاج سواء من الراحات أو من زميلاتنا المعتقلات فى سجن القناطر أو من القلعة .

كان فى العنبر حوالى ثمانى معتقلين وستة من المعتقلات . ولقد كنت دائما أتساءل بينى وبين نفسى ، لماذا لم يدخلوننى

عنبر المعتقلين والمعتقلات فى القصر العينى .
ولكن سؤالا أكثر إلحاحا كان يشور .. ماذا يعجرى داخل الغرف الثلاث المغلقة على ١٤ زميلا وزميلة ؟
ولماذا يوضع الجميع فى مكان واحد .

ولم يكن من الصعب على أن أعرف السبب بعد أن نزلت إليهم مرتين وجلست الى بعضهم عدة ساعات .

كان عنبر المعتقلين فى القصر العينى أحد الخطط الذكية لأساتذة «القتل المعنوى» فلم يكن يسمح بالبقاء فى هذا العنبر

سوى لبعض من الزملاء «الذين أبدوا استعدادا للتفاهم» بعضهم كان يعاني مرضا خفيفا ولكن غالبيتهم كانوا من اصحاب الخطوة لدى الاجهزة كذلك فان ابقاء بعض الزميلات معهم يمكن أن يؤدي الى قصص تصلح بأن تكون سلاحا يستخدم ضد الاشتراكية والاشتراكيين .

حقيقة انه حدثت بعض التجاوزات ، ولكن الحقيقة الاكثر والمشرقة انه بالرغم من كل تلك الظروف الصعبة التي صنعت باحكام لانزلاق الزميلات الا أن غالبيتهن استطاع أن يتماسك بل ويقدم القدوة والمثل العظيمة لكيف تكون أخلاقيات الفتاة الاشتراكية .

وجاءت سحر بالشاي . .

ولكنها جاءت بشيء آخر اكثر سخونة . . فلقد غيرت ملابسها وارتدت روبا من الشيفون الاحمر لا يكاد يخفى شيئا .
وناولتني الفنجان وعطرها يملأ أنفى ومنبت النهدين يشدان كل ما لدى من ابصار .
- : شاي يعجبك قوى

هكذا قانت وهي تشد كرسى وتجلس جانبي .

- : أين الحرس . .

قلتها بدون وعى وأنا أشبه الكرسى بعيدا عنها .

- : واحد نام أمام العنبر . . والثانى نائم على سرير فى العنبر .

قالتها وهي تقترب بالكرسى منى ، وقبل ان احاول نا أبتعد بمقعدى أمسكت يدى بعنف
- : . . . كله نائم .

وتبت للمحطات . . كانت يدها أشبه بتيار كهربائى صاعق لم أكن لأحتمله . . بل لم أكن لأحتمل منذ رأيت سحر فى الليلة الاولى . . كانت ببساطة شديدة جميلة جذابة ، من النوع الذى يدعوك ويدفعك من أول لحظة لان تضمه بين يديك . . ولم يكن ذلك تخاريف معتقل قضى ثلاث سنوات فى

الصحراء فلقد أجمع على ذلك كل نزلاء العنبر وعلى رأسهم الشاويش عبد السلام الذي كان يقول لها دائما :
- : ليلة واحدة معاكى على سنة الله ورسولة .. وبعديها أموت وأنا مبسوط .

وكانت ترد بضحكة لينة وبخفة دم لاتبارى .
- : ياراجل انت عجزت .. متستحملش ساعة .

ومنذ ليلة أول أمس حينما مرت سحر على فى الغرفة وقدمت نفسها على انها «السهرانة» وأحاسيس جارية تنطلق وتعربد داخل ، مرت الليلة الاولى بسلام وبدردشات وتعاريف اشترك فى جزء كبير منها الشاويش عبد السلام وزميليه .

ومرت الليلة الثانية بسلام صعب .. فبعد ان انتهت سحر من توزيع الادوية ووضع القطرات فى العيون المريضة جاءت الى غرفتي وأخذنا ندردش بعض الوقت ثم قرأت لى فصلا من أحد الكتب وبعض المقالات فى مجلة روزاليوسف ، ونمت ليلتها مثلما نام شهر يار على صوت شهرزاد الذى كان ينفذ الى النخاع .
أما تلك الليلة فيبدو ان الامور لايمكن أن تمضى بسلام ..
نام العنبر من العاشرة كالعادة وأغلق الباب الخارجى ولم يبقى سوى أربع عيون سهرانة .

عينان يتهددهما الخطر لم تريا لمدة ثلاث سنوات سوى رمل الصحراء ووجوه ازملاء والعساكر المتكررة وعينان تلمعان بالجاذبية والدفء تنفذ نظرتهما - كاشعة اكس - الى الاعماق وتشهد كالمغناطيس بنبضات قلبك ورعشات جسدك ..
وتحججت بالذهاب الى التواليت .
وهرولت مذعورا ومسحورا الى الغرفة .. وارتميت على السرير .

وبعد قليل كانت خطوات الاميرة «السهرانة» تقترب من الغرفة وتدخل .. ثم جلست على الفسوتيل المجاور للسرير ووضعت ساقا على ساق فانفتح الروب وتعت ساقها تماما .

ياكل قوة فى الارض ويا كل قدرة على التماسك والمقاومة .
لقد واجهت الشومة الغليظة وهى ترتفع ثم تهوى على الجسد تلهبه وتمزقه وقاومت ، وواجهت الكرباج ينفرد ويطيرويلسع

وقاومت ٠٠ وواجهت الجوع ثمانية عشر يوما بلا طعام ، وكسرة
الحبز تعنى الحياة - ٠٠ وقاومت ٠٠ وواجهت قلما وورقة
يمكن أن يكتب شيئا يخرج بر من السجن . وقاومت ٠٠٠
ولكن الساقين اللذين تفتح عنهما غلالة الروب ، والجسد الملتهب
الذى يشع ويضيء من خلف الشيفون ، والشفة السفلى المكتنزة
والشعر الاسود المنسدل الى الخلف كموجات بحر أسود ٠٠
وذلك الصمت المنفجر الذى يلف العنبر بل والقصر العيني كله
ليكن خلف قنبلة متفجرة اسمها «سحر»

قالت فى ابتسامة هادئة :

- : عندك حق ٠٠ الغرفة افضل من الشرفة .
ياساحرات اوليس ٠٠ أيتها المنشدات الجميلات . . دعن
أوليس يعود الى أهله .

عادت تقول :

- : هل أقرأ لك ٠٠ اشرب الشاي انه ليس سماء ٠٠
- : أحس بارهاق ٠٠ سأحاول النوم .
- : تخدعنى أم تخدعك نفسك ٠٠ مش هتنام .
ياتايبس ، رفقا بالراهب ٠٠ لايملك الا ايماننا وعقيدة ٠٠
- : قوللى ٠٠ اوصف لى اول حب لك ٠٠
- : سحر ٠٠ اريد ان أنام ٠٠ عيني تؤلمنى وصداع قاس
فى رأسى ٠٠
- : ألف سلامة .

قالتها فى رقة وعذوبة ثم فتحت الكوميدينو وقامت تضع
بعض قطرات «البيلوكارمين» فى عيني
ولم أعبد أحتمل ونهديها يكادا يفران من فتحة الروب
ويلاامسان أنفى وأحتضنهما بعنف .
ولكنى سرعان ماعدت ودفعتها بعيدا وهى شبه مخدرة ، وقد
لمعت الفكرة فى ذهنى وتجلست فى سسور كبير يفصلنى
عنها . .

كانت تلك الفكرة هى التى جعلتنى أعانى الليلتين السابقتين

.. وهى التى أربكت كل تصرفاتى وجعلتنى أستطيع مرة أخرى ان أحاصر عواطف الحرمان والطبيعة التى كادت تنفجر . ومن يدري .. ربما دفعوا بها إليك للقضاء عليك .

ومن لم يسقط بالتعذيب البدنى والنفسى يسقط خسرقة بالية فى حضن امرأة .

وصرخت فى وجهها وقد تمثلت أمامى مثل « عروسة الجلد »
- : اخرجى من فضلك .. قولى لهم أنا مش مراهق ساذج .. أنا صاحب رأى وعقيدة .. اخرجى .

ونظرت إليها تماما مثلما كنت انظر الى ادوات التعذيب الاخرى . . ولا بد ان وجهى قد اكتسب بتغيرات حادة ، اذا ظلت سحر تنظر الى فى استغراب شديد ثم للممت نفسها وهى تقول فى صوت مبجوح مبلبل بمشروع بكاء :

: - انت مجنون .. مجنون .

وتكورت فى السرير أكاد أمزق الغطاء ، ثم نهضت الى الباب وكدت أصرخ اناديهما بكل الرغبة المتفجرة ، ولكنى عدت لأرتمي على السرير مرة أخرى وأنا أصارع « ذات » خطيرة جائعة بدرجة وحش بوهيمى لم يأكل لسنوات طويلة ، لقد طلب أوليس البطل المنتصر من حرب طروادة ان يقيد زملأؤه ويربطوه رباطا وثيقا فى صارى المركب وهو يمر بجوار جزيرة الساحرات الهامسات وللآن لم يكن ليستطيع أحد أن يقاوم اغراءهن وصرخ أو ليس وبكى وهو يطلب من زملائه أن يفكوا وثاقه فلقد كان السحر أقوى من ان يقاوم ولعل فى غمرة الصراع تهت أو نمت وربما فقدت الوعي لفترة . وكل ما أذكره اننى حينما فتحت عيني وجدت كل شئ ساكن هادئ وناثم ليس فى الغرفة وحدها بل وفى المنبر كله ، بل وأحسست بهدوء نفس شريب مع قطرات من العرق البارد على جبهتى ثم احساس شامل مبهج ، وفرحه داخلية هائلة .

لقد انتصرت فى معركة قاسية كان لابد وأن أخسرها بكل الشواهد المنطقية والانسانية .

وأخذت أستعرض الاحداث مرة أخرى ولكن بطريقة العرض

البطلي، وأحس بمزيد من الثقة بالنفس . قد أكون دون كيشوت
حاربت أوهاما وأشباحا لا توجد - إلا في ذهني .

وقد أكون قد تجاوزت الحقيقة وتصرفت بغباء .

وقد تكون « سحر » مظلومة من التهمة أنني تصورتها .

وقد أكون خسرت « ذكرى » جميلة كان يمكن أن تتحول إلى
نقطة مضيئة وسط سنوات من الظلام الكفيف مع الصحراء
والألم .

قد يكون كل ذلك صحيحا ، ولكني حينما أتذكر تلك الليلة،
فأني أتذكر على الفور أقصى معركة دخلتها كنت فيها معاديا على
طول الخط لذاتي ومشاعري ولغريزتي .

لقد كان انتصارا يساوي أن لم يفق بكثير متعة ليلة جميلة
مع أحلى امرأة انتهيتها في حياتي .

- ٢١ -

ليست العبرة فى قتل حسين
العبرة فيمن قتلوه . . ولماذا
قتلوه .
أنا ناز الله ان مت شهيدا
فاطلبوه
المسكين نائرا - عبد الرحمن الشرقاوى

يونيو ١٩٦٢ :

صاح الصديق محمد على عامر او شيخ العرب كما نسميه
وقد بانئت الدهشة على وجهه ، فلم يكن العم العجوز يتصور
أن يرى فى تلك الساعة المبكرة من الصباح حيث يحرص على
الخروج من العنبر ليشم هواء الصحراء قبل بزوغ الشمس .
كنت قد وصلت الى سجن الواحات بعد رحلة استمرت
خمسة عشر ساعة وكان الارهاق والمرارة لا يتركان فرصة
لمتابعة الاجراءات الروتينية التى تتبع عند حجرة البوابة كما
لم يكن عندى رد على الدهشة التى اكتست وجه الرفيق
الطبيب .

ودخلت العنبر وبعض الزملاء يتثايون ويتركون اعينهم
للتأكد من اننى أقف امامهم مرة أخرى . . والدهشة والحيرة
تملا العيون وتطرد النعاس بسرعة . . وعشرات الاسئلة
تحاصرني وتتجمع كلها حول البرش الذى ارتفعت فوقه . .
كيف حدث هذا ؟ لماذا عدت هكذا بسرعة ؟ وعينيك ؟ لم يمض
على رحيلك للقاهرة سوى اربعة ايام !! ماذا حدث ؟ وكلما
زادت الاسئلة وكلما تكاثرت الزملاء حولي يمطرونني
باستفساراتهم واحساسى بالمرارة والالام ويزداد ويعمق ،
فلقد كان اكثر ما يثيرني أن احس اننى أصبحت « حالة » تثير
الشفقة والاهتمام .
وكدت اصرخ فى وجه الزملاء بأن يتركوني وحدى ، بل

تكورت قبضة يدي وكدت الكم أمير اسكندر وهو يهزنى بعنف ويقول فى عصبية .

- : تكلم .. ماذا حدث .. لماذا عدت بسرعة .. وحالة عينيك .. ولكننى عدت أجتر الالم والمرارة ولما لم يكن هناك مقر امام مئات العيون المشغالة والاذان المتلهفة .. فلقد حكيت ماحدث .. كان قد مضى على فى القصر العيني ثلاثة ليلالى آخرها ليلة الحكيمه السهرانة وفى صباح اليوم الرابع جاء الضابط المهذب مبعوث مصيلحي بك مرة أخرى .. ولكنه فى هذه المرة كف عن ارتداء ثوب الرقة الزائف الذى كان يرتديه فى المرة السابقة .. حقيقة كان ناعما ولكن كلماته كانت موجهة بعناية كطلقات مسدس كاتم الصوت .

حدثنى فى البداية عن الزيارتين اللتين قمت بهما لعنبر المعتقلين والمعتقلات فى الكور الاول وحرص على أن اعرف أنه كل كلمة قلتها هناك وصلتهم بما فى ذلك كلمات التحذير التى قلتها لبعض الزميلات هناك من انقوع فى الفخ المنصوبه لهم وضبط تصرفاتهم .
ثم قال وهو يطلق رصاصته الاولى .

- اجدر بك أن تقبع فى عنبرك دون تدخل فى امور الآخرين .. هذا اذا كنت تريد أن تعالج عينيك .
وتركتها تمر فلم اكن ابحث عن معسارك .. ولكنه عاد يطلب أمرا غريبا .. فبعد أن أكد اهتمام الجهاز كله - وعلى رأسه مصيلحي بك بحالتى وحزنهم فى نفس الوقت اقترح .. أن اكتب انتماسا بالافراج نظرا لحالة عيني المتدهورة ..
والى هنا والامر مقبول .

واستطرد .. وإن يكون الالتماس مشفوعا بتأكيد من عندك بأنك لن تعمل بالسياسة ولن تعود مرة أخرى الى ماكنت تفعله .

واتسعت ابتسامته المفتعلة وهو يقول :

- بس ياعم .. تكتب الكلام ده دلوقتى وانشاء الله بعد يومين ولا اسبوع بالكثير تكون بره .. ومبروك مقدما !!
قلت وانا احاول قدر استطاعتى ان ابلور الكلمات واحدها حتى لاتخرج بانفعال أو عصبية .

— انا جاي اتعالج .. مش جاي اكتب استنكار .
وكسى وجهه بعلامات دهشة مصطنعة .
— استنكار .. بلاش الكلام الكبير ده .. وده برضه
معقول نطلب منك انت بالذات حاجة زى كده .. ده مجرد
كلمتين روتين مع الالتماس .

وصمت قليلا اضبط نفسى وايضا كلمات الرد فقد كنت
حتى هذه اللحظة لا أريد خناقة أو انفعالا .. ويبدو
— كعادتهم دائما — أنه فهم صمتى نوعا بين الحيرة والبلبله
.. فأخذ يزيد من طلقاته ..

— آيه .. مش كفاية اكثر من ثلاث سنين ضاعت فى
الصحراء .. احنا شباب ونفهم بعض .. صدقنى مقيش
حاجة تستاهل .. أخرج بجلدك وشوف عينيك ومستقبلك .
وأدركت أن عل أن أوقف على الفور هذا السيل ، فقلت
بحزم اكثر .

— لو سمحت انا جاي القصر علشان اتعالج مش علشان
اتناقش فى الخروج أو عدمه .. والمفروض انى هعمل
العملية بكرة .

وكانت لهجتى فيما يبدو قاطعة والعكس ذلك على وجه
الضابط المهذب بأحاساس بخيبة الامل ثم رمقنى بنظرة طويلة
غريبة وهز رأسه قائلا :

— انشاء الله تعمل العملية بكرة وتندج .
وخرج .

وعنده الظهر اخذت الممرضة أوراق علاجى من الغرفة بناء
على طلب الدكتور أمين زايد .

— ومن هو أمين زايد ؟

قالت التلميذة الطيبة :

— مدرس فى قسم ٢١ رمد .

وابديت دهشتى وخاصة واننى أتبع قسم « ١٣ » وهو
القسم التابع للدكتور عصام توفيق ..

ولم تستطع الممرضة أن تفسر لى السر وراء طلب اوراقى
ولكنها خمنت واعتقد انها لم تكن تعرف ، بأنه من المحتمل

أن يشترك الدكتور امين زايد مع الدكتور عصام فى اجراء العملية غذا .

وكنت على استعداد لتصديق ما قالته الممرضة فلم تكن هناك اى احتمالات أخرى ونسيت الامر كله حينما جاءت أختى بأكلة سمك طلبتها فطوال فترة المعتقل السابقة لم اتذوق هذا الطعام الذى كنت احبه ولقد سألت أحد الفلاحين من سكان الواحات الذى كان يساعد فى اعمال المزرعة عن السمك فقال الفلاح الفقير الطيب باللهجة السريعة المضغومة . .
— ما بنزرعش الشجره دى هنا .

وقبل أن انتهى من الوجبة الشهية جاءت الممرضة وطلبت منى أن اصحبها لأن الدكتور أمين زايد يريد أن يرانى .
وانتقلنا انا والممرضة ومعى الحرس — الى العنبر المقابل .
وكان يجلس فى غرفة الحكيمة . . وجه عادى مثل كل الوجوه ليس هناك ما يميزه سوى التواء بسيط فى الفك الاسفل وشد واضح فى عضلاتي الفك كما لو كان يقـرض اسنانه وبادرني فى صوت جاف :

— انت المسجون الشيوعى .

— أنا معتقل مش مسجون . .

هكذا وجدت نفسى ارد على الفور وقد اخذت بأسلوبه الخشن فى الكلام بالاضافة الى انه لم يكلف نفسه الرد على تحيتى .

وقام من الكرسى وانفرد امامى ماردا طويلا عريضا واخذ يتطلع الى بنظرات لم استطع تفسيرها . . واكتشفت حركة عصابية واضحة فى عينيه اليسرى ثم انفجر بصوت اعلا :
— متقرفش . . يعنى غلطت فى البخارى ياخى . .
مانتو معروفين دايمًا مسحوبين من لسانكم . . عارف افكاركم المهبية . . هذا الطبيب . . اهي قضية عين بتهددها الخطر أم افكارك مهبية كما يقول . ماذا يعنى ؟

وصمت ، فلقد تعودت ان استوعب أى استفزاز مقصود المهم العملية . . وعاد يقول وهو يشير بأصبعه كما لو كان يوجه اتهامًا .

— مينك سليمة ، مفيش حاجة ٠٠ ومفيش داعى لوجودك
فى القصر ٠٠
قلت فى هدوء ولم اكن قد ادركت ابعاد الموقف بعد :
— الدكتور عصام توفيق كشف على وقرر اجراء عملية
غدا لانى مصاب بجلو كوما حادة ٠
وانتفض امامى انتفاضة عنيفة وصاح فى صسوت غليظ
مشروخ :

— هتفهم فى الطب كمان هتعلمنى شغلى ، انا قلت عينيك
سليمة ٠٠ ادينى ورق سعادة البية الفليسوف ٠٠ اتفضل
خروج اليوم ١١ مايو ١٩٦٢ ٠٠ امضاء ٠٠ أمين زايد ٠
كان يكتب على اوراقى وهو يؤكد على الكلمات بغيظ شديد
وغير مفهوم !! أهو تاربايت ٠٠ ولماذا ؟ اننى لم أعرف ابدا
أحدا فى حياتى بهذا الاسم ، لم اسئ له ، ولماذا هذا الموقف
الغريب ٠٠ حقيقة أن صوته وكلماته جافة خشنة ولكنه على أى
حال طبيب ، وقد كنت حتى هذه اللحظة اعتقد ان احد لا يمكن
ان يمارس تلك المهنة العظيمة دون ان يكون انسانا أولا واهيرا
كما أنه ليس الطبيب المعالج ، فأنا فى عنبر الدكتور
عصام ولست فى عنبره والدكتور عصام استاذ مساعد وهو
مدرس ٠ انه لم يكلف نفسه بالكشف على ٠٠ ومع ذلك يكتب
بخروجى من المستشفى ٠٠ وبصرى الذى يذهب !! وعينى
التي دخلت مرحلة الخطر كما اجمع كل الاطباء الذين كشفوا
على !! ماذا يعنى هذا ؟ ماذا يهدف بالضبط الدكتور أمين زايد ؟

وعدت احاول معه ، وأكلم فيه الطبيب ٠
— يادكتور ٠٠ معنى ذلك أن اعود الى الواحات ، ويضيع
بصرى ، فلننتظر الدكتور عصام ٠٠ يادكتور ٠

ولكن أمين زايد فر هاربا من الغرفة ومن العنبر كله دون
ان يكلف نفسه بالنظر وراءه وهو يعطى اوامره للمرضة بأن
تبلغ الادارة فورا بتأشيرته ، ووقفت فى الغرفة ومعى المرضة
منتكسة الرأس والشاويش عبد السلام وزميله وقد انعكس
الموقف على وجههما ٠
وقال الشاويش عبد السلام :

— داه دكتور بيطرى ده .. مش بنى ادم .
وتهت لفرة واجتاحنى شعور بالحيرة السديدة مع احساس
زاحف بالضيق ولكن سرعان ما استعدت نفسى وقررت أن
أقاتل دفاعا عن عيني .

عرفت من الممرضة ان الدكتور عصام توفيق كان موجودا
فى الصباح وأنه اعطى اوامره باعدادى للعملية غدا . وطلبت
الدكتور عصام فى البيت وفى العيادة بعد ان اعتطنى الممرضة
ارقام تليفوناته ولم اجده وجاء الدكتور أحمد النائب الشاب
وسمع الحكاية واعلن اعتراضه واحتججه على تصرف الدكتور
أمين واكد لى اننى تحت مسئولية الدكتور عصام وأن احدا
آخر لا يملك اخراجى كما اكد لى ان حالة عيني خطيرة فعلا .

وأحسست بالراحة وبشئ من التعويض وانا أرى أحمد
الطبيب الشاب يقف الى جانبي بحسبم فيتصل بمدير
المستشفى ثم حاول الاتصال بالدكتور عصام .

أحمد نموذج آخر لا أعرفه ولم اراه سوى مرتين حينما كان
يمر فى العنبر خلف الدكتور عصام ويستمع الى توجيهاته
وملاحظاته على الحالات كنت اراقبه وهو يضرب التليفون
بعصبية بعد ان ينهى حديثه مع احد المسئولين فى المستشفى
ثم يقول فى مرارة :

— مش ممكن .. دا كلام فاضى !!

واخيرا عثرنا على الدكتور عصام فى منزله ، وحكى أحمد
ماحدث بنفس الطريقة التى كان يمكن أن احكيها وناولنى
السماعة لاسمع صوت الدكتور عصام وهو يقول بعصبية :

— ازاي دا حصل .. مش ممكن .. دا كلام فاضى .

ووعد بأنه سيتدخل وطمأننى الرجل على قدر ما يستطيع
وان كنت قد احسست من صوته أنه فى وضع ليس أفضل
من وضعى كثيرا .

أما اختى فقد وقفت المسكينة ترقب الجهود التى ابذلها
ويبذلها معى الدكتور أحمد وهى الاخرى تكرر فى هلع ..

مش ممكن .. دا كلام فاضى .

ساعتين تزيدان قليلا ضاعا فى غمرة معركة الانقاذ التى
كننا نمارسها .

كان كل المسؤولين في المستشفى يبدون استنكارهم في البداية ولكن هذا الاستنكار كان يتحول الى صمت أو تعليقات مبهمة حينما يسمعون اسم أمين زايد ، ولكن الذي لم يكن ممكنا من وجهة نظر اختي والدكتور احمد والدكتور عصام اصبح ممكنا .

وحدث الكلام الفاضى ، وفي حوالى الرابعة وصلت فرقة الترحيلة « ضابط وثلاث عساكر » ومعهم الاوامر بترحيلى الى سجن الواحات ٠٠ ووقفت اختي والدكتور احمد والمرضة والشاويش عبد السلام وزميله يرقبون الموقف فى صمت مثير وأنا الملم حاجاتى وأعتصر كل طاقاتى حتى لا أضعف امامهم وحينما وضع الضابط القيد الحديدى فى يدي صرخت اختي ودخلت فى نفس الحالة التى مرت بها ليلة الاعتقال ٠٠ مسكينة لقد رأت المسيح يصلب مرتين ٠٠ أما الطبيب الشاب الذى وقف الى جانبي حتى آخر اللحظة كان هو الوحيد الذى لم يبلع استنكاره ولم يعضغ الكلمات البهمة حينما كان يسمي اسم أمين زايد ٠٠ والتفتت عيوننا ، كان وجهه يسوج بأنفعالات متداخلة بمزيج من السخط والضيق واليأس والتمرد ٠٠ كان فيما يبدو يمر بالصدمة الاولى ٠٠ وباحساس بأنه فى حاجة ربما أكثر منى لمن يسانده ، أمسكت بيده بقوة وقلت وأنا احاول الابتسام .

معلش بسيطة ٠٠ بكرة هرجع تانى .
ولم اكده انتهى من حكايتى التى سمعها أكثر من مائة زميل التفوا حولى حتى سمعنا صرخة ملتناعة :

— انهضوا ٠٠ داود عزيز ٠٠ مات ٠٠ يموت ٠٠ عنده ذبحة .

وهرول الكثيرون من الزملاء ، وقام الاطباء بمحاولتهم المستميتة لكى يظل النبض الخافت لواحد من اكبر الفنانين

التشكيلين فى بلدنا .
ولم اعد احتمل الموقف كله ، وتركت الزملاء وداود والاطباء يتشبثون بالحياة ويحاولون قهر الذبحة التى اسقطت الزميل وخرجت الى السور ٠٠ كنت فى امس الحاجة لكى اجلس مع

نفس .. وحيدا ، وحالة من حالات الضعف واليأس يحتاجني
وأخذت اردد اغنية احيانا ما كان يهمس بها محسن الخياط
وكثيرا ماكنت الومه لشرديدها .
مدى ايدك ليه .. فى المنفى البعيد
مدى ايدك ليه .. من بين الحديد
وافرديها
واحضنى بنورك جروحي
قبل ماتميل بروحي
للغروب
قبل ماتدوب الامانى
وتشوف فيها
لحن تايه
لحن الغامه اقوى دموعى
ووجدت صوتى يختنق والدموع تتساقط ويجد بعضها
طريقة الى شففتى ثم انفجرت فى بكاء عميق .

آه لو تنكشف الغمة عين
 عيني كي ابصر ابعاد الطريق •
 ما عسى ان تبصر العينان في
 ليل بهيم طمست فيه النجوم •
 ما عسى ان يبصر المحزون من
 خلف اللدموع •

عبد الرحمن الشرقاوى —
 الحسين نائرا

يونيو ١٩٦٢ :

مرة اخرى فى القصر اتعيني •
 البوكسى يعبرتنا البوابة ، وعند الاستقبال يتوقف • •
 ويبدأ الموكب التقليدى • • الضابط فى المقدمة وأنا خلفه احمل
 امتعتى وعلى اليمين واليسار حارسان يحملان التومى جن كنت قد
 وصلت الى القاهرة يوم الخميس يعد ثلاثة اسابيع قضيتها
 فى الواحات •
 وفيما عدا اليوم الاول لوصولى للواحات والذى كان يوما
 مريرا وحزينا حقا ، فاننى وبمساعدة الزملاء سرعان ما استعدت
 معنوياتى بل وعدت امارس مهمتى كرئيس تحرير لمجلة الطريق
 واستكمل مشروع مسرحية كنت قد خططتها •
 كنت قد ادركت ابعاد اللعبة التى مورست معى ، واشترك
 فيها الضابط المهذب والدكتور أمين زايد • • لقد كان المطلوب
 تاديبى وترويضى • • ولهذا اندفعت فى مقالاتى فى المجلة نحو
 مزيد من فضح وكشف اساليب التصفية ولكى ارد برسالة
 واضحة لمن رسموا اللعبة بانى لست ممن يروضون • • وفيما
 عدا بعض الام العين وحالات الصداغ الشديد احيانا فلقد
 حاولت ان انس الموضوع كله • • ولكن الزملاء لم يستطيعوا ان
 ينسوا ، فبعد ترحيل داود عزيز للعلاج بعد وقف تدهور حالته
 واصل المسئولون عن الاتصال بالادارة بالضغط من اجل سفرى

للعلاج وبانتهديد باتخاذ اجراءات تحمل الادارة المسئ
قام الاطباء المعتقلون بكتابة تقرير بحالتي وخطورته
الى كل الجهات المعنية بما فيها نقابة الأطباء وانضم
السجن الذي أراد ان يتخلى من مسؤوليته : وأثمرت
وبعد عشرين يوما جاء الأمر بالترحيل الى القاهرة . .
غريبا حدث لدى وصولنا الى محطة مصر فبدلا من
القصر العيني مباشرة ، ذهبوا بي الى مستشفى سـ
حيث قضيت الخميس والجمعة والسبت . . وفي صبي
كنت في الطريق الى استقبال العيون في القصر
جلست على الارصفة بين الحارسين بينما ذهب الضابط
فترة عاد ليصحبني الى الطبيب الذي سيكشف على
ودخلت الغرفة . . ورايتهم .

أمين زايد ، يرتدى الباطن الأبيض هذه الم
يتحرك .

لم يفاجأ ، كان يعرف فيما يبدو ، بل ولم ينظم
موجها حديثه للضابط :

- حالته ميئوس منها .
وسأل الضابط في سداجة الذي اشترك في لعبة
- سيادتكم مكشفتش عليه . . انت عارف الحالة
- عارف ياسيدي . . بسلامته كان هنا من ثلا
ومش عاجبه التشخيص .
وتدخلت بعد ان افقت من صدمة المفاجأة وسـ
اعصابي جيدا .

- يادكتور امين انا صحفي لا أفهم في الطب . .
بتقول دلوقتيم أن حالتي ميئوس منها ومن ثلاث امـ
أن عيني سليمة . . يعني إيه . . مش فاهم .
ورد في برود غريب :
- ولاعمرك حتفهم .

ويبدو أنهم قد حذروه هذه المرة من الانفعال بعد
نفسه في المرة الاولى . . وصحت بعد ان كدت أفقد
وفهمت السبب الذي ركنوني من اجله في مستشفى
مصر الايام الثلاثة الماضية .

— عاوزنى أفهم ايه ٠٠ انا لحد دلوقتى اعاملك كطيب
مش ضابط مباحث .

ويبدو اننى قد نلت منه فى مقتل فصرخ
— : ولد ٠٠ بلاش قلة أدب

وكنت على استعداد للذهاب الى آخر مدى فماذا بعد العين
ولوحت يدي فى وجهه

— : أنا مش ولد واحترم نفسك ومهنتك ٠٠ وانلى بتقوله
ده مش بس قلة أدب دا اجرام ٠٠ عملت فيه ايه !

ويبدو ان انفعالى كان يزداد ويضطرد وأنا أقترب منه
فالتفت بسرعة وجعل الضابط بيتى وبينه بينما أخذ الضابط
يهدئنى برقة وقد أدرك الموقف وقادنى الى كرسي وهو يربت
على كتفى

— : اهدأ يا استاذ ٠٠ هنشوف حل ، اهدأ ٠٠ امسك
أعصابك ٠٠ ثم التفت الى أمين زايد
— : والحل يادكتور ٠٠

— : عينه اليسرى وصلت الى حالة ميثوس منها ، لابد من
استئصالها .

— : استئصالها ٠٠ مش ممكن ٠٠ انت جزار .
هذا الوحش الكريه .

منذ ثلاث أسابيع كان يصرخ فى وجهى ليقول ان عيني
سليمة واليوم يريد استئصال عيني لانها وصلت الى حالة
ميثوس منها ٠٠ وقبل ان انفجر بشحنة أخرى من الغضب
أسرع الضابط يقول وهو يضغط على يدي

— : استئصال استئصال ٠٠ المهم اكتب له دخول دلوقتى .
وعاد الضابط يضغط على يدي وهو يهمس منتهازا فرصة ذهاب
أمين زايد الى المكتب ليؤشر على الأوراق .
— : اعقل المهم تدخل القصر ٠٠ وبعدين تتصرف .

بعد يومين فى عمر ١٣ فى القصر العيني اكتشف فيها أن
نصيحة الضابط كانت فى محلها ، فقد كنت محتاجا لاجراء
بعض الاتصالات ٠٠ فأرسلت مجموعة من الخطابات باسم

الدكتور عبد المنعم عبيد المدرس في القصر العيني والمعتقل في
الوحدات الى كثير من أساتذة كلية الطب . . كذلك كلفت أبي
بإرسال خطابات تحكي مايجرى معي على يد الدكتور أمين زايد
بإيعاز من الباحث الى كل المسؤولين .

وفي نفس الوقت الذي كنت أنشر فضيحة أمين زايد على
الملأ وأسجل سقطته ، كنت أرفض بالاتفاق مع المرضة على
استخدام القطرات والادوية التي قرررها الى بعد أن اكتشفت
انها «تقتل العين» . كنت في البداية أحسب أن اللعبة ستنتهي
عند هذا الحد ، وأن ماحدث في المرة الاولى وفي البداية هذه
المرة لم يكن سوى محاولة للانذار ، ولكن لم يدر بفكرى أن
أمين زايد سيمضي في اللعبة الى هذا الحد . . الاستئصال .

والغريب انه كان جادا متحمسا للغاية . . بل كان يأتي كل
يوم الى العنبر ليكشف وليطمئن ان أدويته القاتلة تقوم
بمفعولها وفي كل مرة ينظر الى المرضة ويسأل
- : متأكدة انه يأخذ القطرات والمراهم .

وتضطر المسكينة ان تكذب ، وشجعها على ذلك الدكتور
أحمد نائب عنبر ١٣ والذي كان يحظى باحترام كبير بين
المرضات رغم انه مازال نائبا شابا . . وقد حرصت بالطبع
أن أسألها عن سحر وكان مألديها من معلومات عنها انها نقلت
الى عنابر الجراحة وانها في أجازة للزواج من ضابط بوليس .
كان أول شيء فعلته هو الاتصال بالدكتور احمد الذي سهر
معي ليلة كاملة ، وقد سعدت بهذه السهرة «العنبرية» ليس
فقط لانى رأيت مرة أخرى صديقا شريفا كسبته من خلال
معركة قاسية ، ولكن الاعم ان أحمد الذي رأيت هذه المرة
يختلف عن احمد منذ ثلاثة اسابيع . . حقيقة ظل الانسان
الشريف النقي ولكنه تخلص من كثير من أحاسيس الضعف
والعجز والحيرة والشعور بالضدمة لقد كان ماجرى في المرة
الماضية مثلما فال صدمة هامة كان يحتاجها . . ولقد عرفت
أن الاحتجاج والسخط لا يكفي لاصلاح الامور .

واشترك أحمد معي من اليوم الاول في رسم الخطة وتتلخص
في اظهار الرضوخ لرغبة أمين زايد. وذلك فقط لكسب الوقت
الى ان ننجح في كشفه بعد الاتصالات المكثفة التي نقوم بها

يوماً مع أساتذة الكلية والنقابة والمسئولين .
وأحسست ان أحمد لا يتحرك وحده بل ومع مجموعة من
التواب والمدرسين بل والاساتذة ، ، ، ويبدو انهم قاسوا على
يد أمين زايد الكثير .

ولكن أمين زايد كان فيما يبدو مسنوداً الى أقصى حد . .
ففى اليوم الرابع ، وبعد أن كشف على عيني وتأكد بالطبع
اننى لم آخذ القطرات والمراهم التى قررها امر بتغيير الممرضة
فوراً وطلب ممرضة معينة بالاسم ثم قال لى فى حزم
- : أنا ألعب . . لقد دخلت هنا لكى نستأصل العين اليسرى ،
وسأجرى العملية غدا . .

ثم أخذ يلقى التعليمات المشددة للممرضة التى طلبها ، وقبل
أن يخرج قال للحكيمة
- : لازم يمشى على اقرار بموافقة على الاستئصال اليوم
ويرفق بأوراقه .

المسألة دخلت فى الجدل ولم يعد هناك فرصة للمناورة
وكسب الوقت .

وأسقط فى يدي وفى يد الدكتور أحمد فرغم الجهود المكثفة
التي بذلت فان رد الفعل لهذه الجهود تأخر وتمثر كثيراً .
الدكتور ابراهيم الشرييني ، وكان سكرتيراً للنقابة الاطباء
فى ذلك الوقت ، قال لأبى ان مثل هذه الامور حساسة ولا
يمكن للنقابة ان تتدخل بشكل رسمى . ووعد بمحاولة حل
المشكلة وديا .

حسين فهمى ، نقيب الصحفيين أبدى انزعاجه واهتمامه
الشديد بحالتي ولكن الظروف ، على حسب تعبيره لأخى حيث
قابله ، لا تترك مجالاً واسعاً للحركة .
الدكتور عصام توفيق أخذ أجازة لعله يحل صراعاً داخلياً
لا بد وأنه كان يعانيه بين الرغبة والاقتناع والعجز وعدم
القدرة .

وفى تلك الليلة وجدت نفسى وحيداً أمام قدر يبدو وأنه
لا مفر منه . . حتى الحرس هذه المرة قد اختيروا بعناية ،
حاولوا أن يلعبوا دوراً فى تضيق الحناق على ، قبلاًضافة الى
وجوههم المتجهمة ورفضهم أن يتركبوني للحظ فانهم لم يكفوا

بين الفترة والاخرى عن القاء بعض الكلمات والايحاءات بأنه ليس هناك من حل سوى «التفاهم وتليين الدماغ» .

كان المرضى في العنبر قد بدأوا ينامون ، بينما جلست مع سامى الطفل الصغير الذى لم يتجاوز السبع سنوات ، أحاول أن أنسى فى بعض الحكايات التى أرويها له .

كان سامى هو الآخر سيجرى عملية الاستئصال فى الغد وكنت أحس بتعاطف شديد من سامى ، ليس فقط لانه على وشك أن يفقد عينا فى الغد وهو فى مثل هذا السن ، بل لأن الطفل كان ذكيا لمحا ومن اليوم الاول لوجودى فى العنبر فرض نفسه على وأصبحنا أصدقاء ، لايترك غرفتي الا حينما يأتى والداه لزيارته ، بل كثيرا ماكان يصحبها ويأنى الى الغرفة ويحكى لهما بطريقته الخاصة عن حكايتى .

ونام سامى بعد أن نهزته الممرضة ، وأخذت أتجول فى العنبر بين صفيين من الاسرة يخرج من كل منها صوت خاص يتراوح بين شخير مزعج وبين أنفاس مسموعة ..

حتى النيل والقاهرة الساهرة واضوائها المنعكسة عجزت كلها من أن تشفى من ذلك الاضطراب الذى عشعش فى رأسى وجعلها تكاد تنفجر . . كنت وبحركة تلقائية أتحمس عيني لاتأكد من أن شيئا لم يحدث بعد ، وأحلم وأنا واقف فى الشرفة فأرى أمين زايد وقد استبدل البالطو الابيض بثوب أسطوري فضفاض بينما برزت قرونه وقدحت عيناه بالنار وكشر عن أنيابه وفى يده سيخ محمى يقترب منى ويغرسه فى عيني ، وأكتم صرخة كادت تخرج ويسرى الارهاق فى جسدى ولكنى لاأريد أن أنام ولاأستطيع . . وقد كنت لأطبق الغرفة حيث يجلس الحارسان يستمعن الى الراديو وبين حين وآخر يقذفونى بنظرات باهتة لاتختلف كثيرا عن تلك النظرات التى كنت راها فى شبح أمين زايد كان مايحيرنى ويشترحنى فى نفس الوقت هو ذلك الاصرار الغريب على الاستئصال . ولقد كنت مستعدا وأدرك مسبقا اننى وقد وقعت فى أيديهم وبعد اكثر من سنوات من الاعتزاز ورفع الرأس فلا بد وان يفعلوا شيئا لينفذوا داخلى

ولكنى لم أكن اتصور انهم سيصلوا بى الى طريق مسدود
وليس أمامى سوى أن أختار واحد من الطرق التى يفتحوها
أمامى فكل منها معتم مظلم .. أما الآن أكتب وأتفاهم . فيكون
العلاج ..

وأما ان ارفض السقوط .. فيكون السفر الى الواحات مع
مزيد من فقد الابصار وضياح فرصة العلاج .. وضياح العين
نفسها .

وأما ان أستأصل عيني اليسرى لأكون مثلاً وعبرة لمن يرفض
الركوع .

اختبارات صعبة وأصعب منها ان تكون وحدك وأنت تختار
وليس من رأى يساند فيما عدا الطبيب الشاب ومجاولاته
البائسة .

وتمثلت الكثير من الشخصيات التى واجهت مواقف الاختيار
الصعب .. عطيل وقد تمزق بين حب عميق ليدمونه وبين
غيرة عاتية أثارها باجو .. وهملت وقد شرد فى ردهات قصر
أبيه المقتول يكرر كلماته (أكون أو لاأكون) وهو يتشبث بين
أن يحبها ولكنها خائفة وبين أوقليبا المقدسة ولكنها ابنة
واحد ممن اشترك فى قتل أبيه .

وأوديب بعدان اكتشف المازق الخالد بزواجه بأمه .
ولكن كل هؤلاء الأبطال المسرحيون بكل ماكتب عنهم كانوا
أسعد حالا فقد قتل عطيل ويدمونه وقتل نفسه وأنهى بذلك
الصراع ، وقتل هاملت قاتل أبيه ومات بين أحضان أمه
المحتضرة ، وفقاً لأوديب عينييه وهام فى جبال اليونان . . .
كانت أزمت فردية خاصة ولكن القرار هنا لم يكن يتعلق بى
فقط بل بالملئات الذين تركتهم فى الواحات يعانون ويتألمون
ويشقون فى الغد والملايين من أبناء مصر الطيبين البسطاء الذين
تصورت اننى أدافع عنهم وعن حقهم فى أن يكون لهم ارادتهم
المستقلة .

وارتميت على السرير عند الفجر وفتح الشاويش عينييه
يراقبنى وأنا اتقلب فى قلق

- : هتعمل ايه بكره .
- : وصرخت
- : استئصال لآ . .
- عاد يقول فى برود مدرب عليه
- : اذن تكتب لى ورقة اذهب بها فى الصباح اليهم فى لاطو على فتحل كل الامور
- وعدت أصرخ بعصبية
- : لا . . لا . . لا . . مش أنا
- فأشعل الشاويش سيجارة وأخذ ينفث الدخان الى أعلا باستمتاع وهو يقول
- : اذن فقد اخترت سكة الندامة

قال المدرس : هأنت ترى أيها
الأب المبجل أننا لم نحدث
تغيرا .. فالمسيح أصبح
الشعب .

وقاطعه القسيس : الشعب
ليس الله يامصيبتنا اذا كان الامر
كذلك .

قال المدرس : الشعب هو الله
يامصيبتنا اذا كان الامر غير
ذلك .

كثارتاكس - الاخوة الاعضاء

أغسطس ١٩٦٢

كان الامر قد تحول الى مليو دراما سخيفة ..
وهذا ماقررت أن أضع له حدا أيا كان الثمن .
وعندما عدت الى الواحات هذه المرة بعد أن رفضت
«الاستئصال» كان لي رجاء واحد للزملاء .. هو أن ننسى
الموضوع كله .

فلقد كنت أخشى أن تتحول عيني الى قبر معتم يزوره الزملاء
تعطفا وشفقة . واحترم الزملاء رغبتى أو على الأقل تظاهروا بذلك،
كذلك فلقد حاولت أنا الآخر أن أبدو متمسكا .. على الأقل
من الظاهر .. حتى آلام العين والصداق المدمر الذى يلح بين
حين وآخر تحملته فى صمت .. وحينما كنت أحس ببوادره
أسارع الى «البرش» لأتظاهر بالنوم .. ولقد كان ذلك يعطينى
على الأقل احساسا بالرضا عن ذاتى وعن قدرتى فى تحمل
قدرى بوعى وتجلددون أن يكون له انعكاس على اقدار الآخرين،
وقد ساعدنى على الاستمرار فى عمليات الهروب التى كنت
أمارسها كل يوم أن المعتقل «غرق» مرة أخرى فى مناقشات

سياسية لاتخلو من سخونة أحيانا وخاصة بعد صدور العمل الوطني في يوليو والمناقشات التي سبقته ..
كان الميناقم بكل المعايير الموضوعية وثيقة هامة وخط
فلاول مرة يقدم تحليل تاريخي علمي لنضال الشعب
طوال انفرن الماضي منذ ثورة عرابي حتى ثورة ١٩٥٢ باء
حلقة متصلة من نضال الشعب من أجل الاستقلال والت

ولاول مرة يجري الحديث عن الصراع الطبقي وعن
أن يحل هذا الصراع لصالح الغالبية من الجماهير العاملة
رأسها العمال والفلاحون بل ويذكر الدور الطبيعي لل
العاملة في اجراء التغير الاجتماعي .

بل ان الميناق يتحدث عن الاشتراكية كطريق حتمي
بل ويذهب الى مدى ابعد وينص على الاشتراكية العلمية
أفكار وآراء ليست جديدة علينا بالطبع ولكن الجديدا
صدرت من القيادة التي كانت وما زالت تتحفظ على
المسجون والمعتقلات .

وكان السؤال الطبيعي الذي فرض نفسه .. اذا كان
صحيحا فلماذا ينبقى في المعتقلات فالميناق بالمبادئ التي
بها هو حتما أقرب الى تفكيرنا من أى انسان آخر من
الذين كانوا يصفقون له وهو يتلى في قاعة الاحتفالات
بجامعة القاهرة أو هؤلاء الكتاب الذين كانوا بعد مايكو
تلك المبادئ ثم يتولون مهمة شاقة بالنسبة لهم في مه
تفسيره والدفاع عنه .. ولقد كان من الضحك أحيانا أن
مقالا عن الاشتراكية لكاتب لم يقرأ في حياته كتابا واحدا
أو كان يعدها كبيرة الكبائر التي لا تغتفر وكان يشير الاشمة
بقدر ماثير السخرية حين ينبرى أحدهم في أحد الص
ليتكلم عن العمال والفلاحين وحتمية الحل الاشتراكي وهو
لم يكن يعرف أن يتكلم سوى عن القصور وخباياها ولم يش
نفسه يوما بمن كان يسميهم الغوغاء والدهماء ، ونكتشف
خواجة يتحدث عن أمور غريبة عنه فيخرج الكلمات م
كادت تخرج عن الخواجات الذين يحاولون التحدث بالعريب
(يحيا العمال والفلاحين)

وحدث ترحيب جماعي بالطبع بالميثاق ٠٠ وان كادت
النفسيرات قد اختلفت وتباينت .

وكان رأى مجلة الهواء ان الميثاق جاء تأكيدا لفكرة ان هناك
فى السلطة «مجموعة اشتراكيين» وأن هويتها بدأت تبين
بوضوح وأنه لابد من تلاحم صفوف جميع الاشتراكيين»
والاندماج فى بوتقة واحدة .

وكان رأى مجلة الطريق وكنت أحد رؤساء تحريرها ان
الميثاق يعتبر وثيقة وطنية ديمقراطية هامة وانه يصلح كأساس
لجهة وطنية ديمقراطية بين جميع القوى مع التأكيد بأن استمرار
اعتقال «الاشتراكيين» وعدم وجود حركة وتنظيمات سياسية
وجماهيرية قوية يمكن ان تفرغ الميثاق من كثير من مضمونه .
والتقيت بعاشور السجين الاخوانى زميل الدراسة وكان
عاشور فى السنتين الاخيرتين مع مجموعة من الاخوان قد بدأوا
يشكلون تيارا متميزا داخل المسجونين من الاخوان المسلمين
يمكن تسميته بالتيار الاشتراكي الاسلامى ٠٠ وكان هذا التيار
يتفق مع الماركسيين تقريبا فى معظم المنطلقات الوطنية
والطبقية مع محاولة لوضع كل ذلك على أرضية اسلامية ٠٠
وقد أطلق الاخوان على هذا التيار النامى وصفهم بأنهم «جماعة
المؤيدين» وحاولوا عزلهم واتهموهم بأنهم متأثرين بالفكر
الشيوعى ٠٠ أما بقية الاخوان فلقد ظلوا يعيشون على أمل
تحقيق شعار واحد ٠٠ الانتقام من عبد الناصر

كان عاشور متحمسا للغاية للميثاق بل ومنفعلا بدرجة
كبيرة ولكن السؤال الذى كان يحيره هو ٠٠ لماذا يبقى
الماركسيون والاشتراكيون فى السجون والمعتقلات .

وحاولت ان اشرح له وجهة نظرى من انه بالرغم من أن الميثاق
والاجراءات الاجتماعية والاقتصادية الواسعة التى سبقته تمثل
حقيقته «نقطة» فكرية تقدمية الا أن الامر يتم ببطء بل ويتهدده
الأخطار لانه ليس هناك حركة جماهيرية منظمة ولان نفس
الاجهزة هى التى تشرف «فى التطبيق» على هذا التحول .
ولكن عاشور الذى لم يكن قد تعود بعد على المنهج العلمى
كان يرى ان «الامر غير مفهوم» وكان يحتد فى مناقشة أحيانا

وهو يقرأ نصوصا من الميثاق ويقول في حيرة تامة
 - : قل لي .. كيف يتسنى ان يكون ذلك هو السياسة
 الرسمية ثم تبكون في السجون .. لقد سمعت منك منذ الجامعة
 نفس التعبيرات والشعارات والاهداف فلماذا تبقى انت على
 الأقل داخل الاسوار لكي يمرح أمثال المصيلحي وغيره أو
 يتحولون بقدرة قادر الى اشتراكيين ١٠

وكان أمرا محيرا حقا (تلخبط اللخبطان) على حدة تعبير عدلى
 عزيز وهو زميل مدرس عرف بخفة الدم خرج بنظرية تقول
 أننا سنقدم في القريب العاجل الى المحاكمة باعتبارنا من القوى
 الرجعية المعادية للتقدم والاشتراكية والديمقراطية .

كنت طوال النهار أغرق مع الآخرين في هذه المناقشات
 واللامعقوليات التي تحيط بها .. أما في الليل وحينما تهدأ
 الحركة في المعتقل فقد كنت ألجأ الى بعض الكتب وخاصة تلك
 التي تقدم نماذج للمقاومة أستمد منها عونا كنت أحتاجه
 لراحة أزمته الخاصة التي لم أستطع بالطبع أن أنساها . ومن
 بينا الكثير من الكتب من هذا النوع التي تتحدث عن استشهاد
 بول ايلوار الشاعر الفرنسي العظيم على أيدي القتل الفاشيستي ،
 وآلام فرتر «ولمن تدق الاجراس» وأشعار ناظم حكمت
 وبابلو ناردا ولويس اراجوفن ، كان كتاب تقرير من المقصلة
 ليوليوس فوتشيك هو اقرب كتاب الى قلبي .

بل استطعت أن أقول انه تقمصتني لفترة روح فوتشيك
 وحفظت الكثير من كلماته الانسانية القوية التي كانت حقا
 تلعب دور الاكسير القوي لمعنوياتي ولقدرتي على هضم وتحمل
 أزمة عيني .

بل وتعمدت قبل أن أنام أن ألقي وصايا العشر كما لو
 كنت أتلو كلمات من كتاب مقدس .

(اننا أناس من معدن خاص صنعنا من مادة خاصة .. اننا
 نحب الحياة ولذلك فاننا لانتردد في المخاطر ، بحياتنا لكي
 نعمل ونمهد الطريق نحو حياة حقيقية حرة كاملة مرحة ،
 اننا لانتردد مطلقا في التضحية بمصالحنا الشخصية لكي

نفوز بـمكان لائق تحت الشمس من أجل انسان حر سليم مرح
لايتعرض لارهاب او استغلال .
اننا نحب الحرية ولذلك فأننا لانتدرد لحظة واحدة في اخضاع
حريتنا من أجل حرية البشرية كلها .
اننا نحب العمل الخلاق نحب النمو البناء ولذلك فلن نضن
بجهدا او تضحية في النضال من أجل تحقيق نظام نجد فيه
كافة القوى الخلاقه في البشرية وكل فرد فيها مجالا وتطويرا
كاملا . . . اننا نحب السلام ولذلك فنحن نكافح .
كنت في حاجة ماسة ليوليوس فوتشيك ذلك الشاب
الصحفي التشيكي الذي ارتبط بالام واحلام شعبه وحينما قاده
الجلادون النازيون الى غرفة الاعدام كان اخر كلماته « ايها
الشعب . . اني احبك » .

وسأظل مدينا لروح فوتشيك قبل اي انسان اخر في تلك
الطاقة التي كان يشعها داخلي لاتحمل مصيرا كان يتراقص
امامي كالشيخ الاسود لينذر بالظلام وانطفاء النور والى الابد .
بل لقد كان فوتشيك هو الذي يجعلني اقول وانا اتقلب
على البرش وسط الزملاء الذين استغرقوا في النوم (فلتذهب
العين اذا كانوا يريدون ذلك ولكن سأظل احبك . . ايها
الشعب) .

كان قد مضى حوالى الشهرين منذ عودتي الاخيرة من القصر
العينى وكان الزملاء الاطباء قادمين الى القصر
فى عينى اليسرى التى بدت
اما العين اليمنى فلقد كان الخطر .
طوال الشهرين على ان اتعاطى بعض
تقلل من الاخطار بقدر الامكان .

وذات مساء جاء الى غرفتي الزميل ابو سيف يوسف والدكتور
اسماعيل صبرى عبد الله وفوجئت بهم يعرضون على بعض
الصحف والمجلات العربية والاجنبية وفيها موضوعات تحت
عنوان « انقذوا عين الصحفى الشاب . . » وقد كانت لحظة
تعويض لا تقدر . . اذن فلم يكن هناك سكون وصمت طوال
الشهرين الماضيين كما كنت اتصور بل كان هناك عمل عظيمهم

جانب الزملاء ٠٠ وفي صمت وانعكس في كل تلك النداءات التي امتلأت بها الصحف العربية والاجنبية .

وقال ابو سيف

— كنا نقدر الظروف ، ولم نريد ان نعمق الاحساس بخطورة حالتك ، ولكي الوقت الآن يختلف ٠٠ ان هناك حملة واسعة من اجل انقاذ عينيك ، ولقد جان الوقت لتتخذ موقفا حاسما .

كم هو جميل ان تضحك روح الجماعة وتثير في قلبك مشاعر سامية تهبك قدرة شمشون وحاولت ان اقول شيئا فلم استطيع كانت المفاجأة اقوى واعظم من اى كلمة يمكن ان يقال ذلك واجتاحني احساس باننا اقوياء فعلا قادرون على الحب والدفاع عن الحياة .

وتذكرت الحملة التي نظمناها في جريدة المساء منذ سنوات من اجل انقاذ جيله بوحريد وكيف نجحنا في هذه الحملة بان يذهب اكثر من مليون خطاب الى الحكومة الفرنسية الى همرشلد سكرتير الامم المتحدة في ذلك الوقت من اجل انقاذ المناضلة الجزائرية من حكم الاعداء الذي صدر ضدها ودركت ساعتها وبشكل علمي احد معاني النظرية التي كنت اؤمن بها وهي ان اى دفاع عن حق الانسان في الوجود والتحرر في اى مكان في العالم هو دفاع ذاتي ايضا .

وحينما كنت اقرا برقية لاتحاد الصحفيين العالمى في براغ واخرى لاتحاد الشباب العالمى وثالثة من لجنة الكنائس و ٠٠ وكلها تطالب بانقاذ عيني غمرني احساس بانى جزء من جسد كبير يسعى كله الى لفظ الافات والجرائم من داخله . واحسنت ان كل شئ يمكن ان يهون مقابل لحظة مثل هذه تتجسد فيها كل تلك المعاني الانسانية معنى تتجسد فيها وتتوحد قوى الخير الكامنة في البشرية كلها . وفي صباح اليوم التالى كانت هناك مفاجأة ثانية .

لقد اضرب اربعة من الزملاء عن الطعام حتى يتم نقلى وعلاجى فى القاهرة ٠٠ وقد اختير الاربعة من ذوى الاسماء المعروفة على

النطاق المحلى والعربى والعالمى وهم الدكتور اسماعيل صبرى
عبد الله ونبيل الهلالى وعبد المنعم شتلة وحلمى يس .
وحاولت ان اعترض وان اؤكد اننى فى حالة جيدة ولست
اريد لاحد ان يضار من اجلى وخاصة ان اماننا مهام ونضائنا اكثر
الحاحا من قضية خاصة مثل عينى .
وصرخ فى وجهى الزميل ابو يوسف ربما لأول مرة فى
حياته

— ياأخى هذا ليس دفاعا عنك وانما دفاعا عن كل
الزملاء . . انك لم تتخلص بعد من الحساسيات البرجوازية
الزائفة .

وبقدر ماآلمتنى كلمات أو سيف بقدر ما أحسست بصدقها
وحقيقتها . الحساسيات البرجوازية الزائفة ربما قتلها قبل
ذلك عشرات المرات ولكنى لم أكان أدرك معناها الحقيقى
تكون فى وضوح تام مع النفس ومع الآخرين وحتى لو كنا
اننا ابناء مجتمع منافق كذاب مخادع . . ولا تعرف كيف
نزعم لانفسنا اننا نحمل افكارا وقيما جديدة .
لقد كنت بالفعل وكنت اخسر كل يوم جزءا من قدرنى على
المقاومة ولقد كنت فى حاجة ماسة احيانا لان اصرخ :
— عينى تذهب . . عينى تذهب .

ولكن التفاف البرجوازي الزائف كان يجعل الامور نمضى
من السطح كما لو كان كل شئ على مايرام كم كان صادقا
ورائعا هذا الرفيق ابو سيف الذى فجر فى داخلى دملا آخر
من دماء التفاف كان يخبىء فى أعماقى .
وفى اليوم الرابع من الاضراب جاءت الاوامر من القاهرة
بترحيلى الى القاهرة .

وطوال الطريق كانت معى اشعار ناظم حكمت وهذا الدفء
الغريب الذى يعكسه وهو يعانى السنوات الطوال داخل
السجن . . كنت اقف بجوار نافذة القطار اردد بصوت مسموع
على حقول القطن الفارقه فى ضوء القمر
ايها الاخوة
فى اوربا وآسيا وأمريكا

لست في السجن ..
بل أنا مستلق على مرج اخضر ..
وفي مساء يوم من الايام
ارى عيونكم فوق رأسي
تلمع مثل النجوم
تلمع مثل عيني امي
ويدجيبيني
ايها الاخوة
انكم لم تهجروني ..
وكم انا سعيد ..
وقد كنت حقا سعيدا في تلك الليلة

وعندما تغلق الزنازين في
سكون الليل ويقلب النعاس
جفون المساجين يتجه قلبي الى
منزل صغير .

ناظم حكمت

اكتوبر ١٩٦٢

واحد ياورد . . اثنين ياغل . . ثلاثة يا ياسمين .
ويصرخ شاويش العنبر
— انت ياواد يابتاع زنازه ١٥ . . انخد ناه الساعه بقت
١٢ . . ويواصل الصوت بعد مساء الليل على غفر الليل . .
شنجى وكنجى وبرنجى .

ويعود شاويش العنبر ليحتج بلهجة اكثر عنفا :
— قلت اخمد احسن ما يحصلكش طيب .
ولكن الصوت يستمر
واحد ياورد . . اثنين ياغل . . ثلاثة يا ياسمين اربعة
يا اجدع ناس مقلمين .
— طيب والله يابن الرضى لاوريك بكره . . الصباح رباح .
ويعلو الصوت
خمسة ياكركية . . وبقيت الدور لومانجيه
سته يازهرة الشباب والحركة الوطنية
سبعة ياقرانات ولومانجية
ثمانية يارجالة حى البطلية .
نشيد غريب كل ليلة تقريبا من احد الزنازين المغلقه كمقدمة
للاعلان عن الافراج عن احدهم وينتهى عادة

نمر فكم ياخوانى ان « فلان » من اعيان روض الفرج خارج
افراج بكرة . . وعقبال عندنا وعندكوم يا حبايب .
وغالبا ما يكون هذا الفلان الذى هو احد اعيان روض الفرج
نشالا محترما او هجاما او لص خزان او تاجر حشيش .

ولقد كنت كثيرا احاول ان اهدى من نائرة الشاويش
السهران في العنبر حين نقلته هذه الاصوات وتوقظه من
نومه فيحاول ان يتوعد صاحبها بالويل والثبور والتأديب .
وغالبا ما كان الشاويش بعد ان يكون النوم قد طار من عينيه
يأتى الى زنزانتى لنتحدث سنويا . ولقد كانت المصالح
المشتركة . . فانا ازوده بالسجائر وبعض ماصرفته من الكنتين
بينما يزودنى بالشاي وبعض الخطابات والحواديت من سجن
مصر . . وارا ميدان . . او القصر العالى كما وصفته بهية وهى
تنعى ياسنين .

كانت هذه اول مرة ابقى فيها لفترة طويلة فى سجن مصر
لاستكشف عالما غريبا ومثرا يختلف تماما عن العالم الذى
يحيط به ولايفصلها سوى اسوار السجن .
حقيقة اننى تنقلت فى معتقلات كثيرة كما زرت سجن اسيوط
ولكن اراميدان الذى يقبع على بضع خطوات من حى القلعة
اقدام احياء القاهرة، كان استكشافا بالنسبة لى على طول الخط .
ان اشهر سجن فى مصر والنذى كان من اول ثمار « التعمير
البريطانى » لا يختلف كثيرا فى مبناء عن بقية السجون المصرية
التي بنيت هى اخرى على النظام البريطانى . . عنبر او ثلاثة
يحتوى كل عنبر على اربعة ادوار ويحتوى كل دور على
خمس زنازة تطل ابوابها على ممر دائرى . . نفس نظام
سجن اسيوط .

ولكن المحتوى هنا يختلف .
فاذا كنت فى اسيوط قد رأيت فلاحى مصر الطيبين الذين
دخلوا السجن فيما يمكن ان يسمى بجرائم القيم القديمة مثل
الثار والعار والشرف او نتيجة للصراعات الطبقيه والاجتماعية
بين فقراء الفلاحين وكبار الملاك .
فان سجن مصر مليء بما يمكن ان يطلق عليهم « حرافيش
النشاون والهجامون بمختلف تخصصاتهم المهنية .
القاهر » .

والسماسرة والقوادون وتجار المخدرات
ثم المختلسون والنصابون والمزيفون .
اى انها تلك الفئات التى تخرج عن اطار اى تصنيف
طبقي والتي تحولت ، رغم انها فى النهاية ضحية ظروف وعلاقات

كان من الطبيعي ان تتوطد العلاقة بينى وبين النورس
ولقد كانت المصلحة مشتركة ايضا .

فالنورس هو قائد العنبر الذى يضم نوعيات ليس هناك
من طريق لاقامة علاقات معها من نشالين وقوادين وبورمجية .

ومن ناحية اخرى كان يهم « النورس » ان يتعرف على
الاستاذ الغريب فى هذا العنبر والذى يحترمه الشاويش
ويسكن فى زنزانة منفردة وتمتلئ زنزانيته ببعض منتجات
الكائنات من سجاير وخلافه .

كان النورس حالما يفرغ من مهام القيادة فى العنبر يأتى
الى زنزانيته فانفخه سيجارة وينجز يدخنها بشبق وهو جالس
على باب الزنزانة ثم يبدأ حواراته .

— ولماذا سموك النورس ؟

— النورس ده يا بيه طائر بحر . . . ذكى سريع . . . زبى
بالضبط هو يطير فوق البحر ويلمح سـمكة وبسرعة ينزل
ينقرها ويطلع . . . وأنا أبقي ماشى فى الشارع المح « الزبونة »
وبسرعة أخذ الشنطة واختفى . . . كان النورس متخصصا فى
خطف شنط السيدات ، والسيدات الجميلات بشكل خاص .
— ليه بقى ؟

— شوف يا بيه . . . لازم « زبونتى » تبقى حلوه ومدندشه
وبابن عليها العز . . . لسبيين ، من ناحية تبقى الخطيفة تستاهل
ومن ناحية اخرى انتقم لنفسى
— : تنتقم من مين ؟

— : مرات أبويا . . . كانت حلوة ودلوعة وحطت أبى فى
جيبها . . . أنا كنت بتعلم ووصلت لغاية ثانوى وكان فى دماغى
حاجات كثيرة وكبيرة زى حضرتك كده . . . انما مرات أبويا . . .
والدلع والحرمان والفلوس وخيانتها لأبى مع كل واحد فى
العمارة . . . وأبويا يفرها ويضربنى انا ويحرمنى أنا .

ويسرح « النورس » أحيانا وتكتسى بوجهه سحببات كثيفة
منذرة سرعان ما يعود الى ضحكته وسخريته .

— : ماأنا برضه تائر . . . بس على قدى . . . مش كده واللا
ايه . . . كان من الممكن أن يكون فيلسوفا أو كاتباً أو حتى موظفاً

كبيرا لاأقل من رئيس مجلس ادارة ١٠٠ !
 - : ألم تفكر فى التوبة والاستقامة .
 - : التوبة ٠٠ انت تقول هذا ٠٠ أتوب من ماذا ؟ ٠٠ من
 ظلمهم من جبروتهم ، من تعسفهم ، من تملكهم لكل شئ . .
 الفرق بينى وبينك انك حالم تعيش فى الخيال ٠٠ شاعر ٠٠
 تبني قصورا فى الهواء ، انما أنا واقعى ٠٠ أنتقسم لنفسى
 وبطريقتى .

- : ولكن السرقة لاتحل المشكلة حتى بالنسبة لك .
 - : ومن قال لك اننى أريد ان أحل مشكلة ٠٠ اننى العيب
 معهم لعبة القط والفار ٠٠ هم بالطبع القطة يحصلون على كل
 شئ ٠٠ ولكنى أشعر بسعادة بالفة حينما أتمكن من حرمانهم
 من قطعة جبن صغيرة .
 - : ولكنك فى النهاية فار ٠٠ تقع دائما فى المصيدة ٠٠
 - : ولو ٠٠ ولكنى أحرهم أحيانا من قطعة جبن ٠٠ هذا
 يكفى فلست على استعداد لتكوين اتحاد عام للفئران .

ونتهى بالطبع مناقشتنا الى لاشئ ٠٠ فهو مقتنع بأنه يعيش
 فى غابة من الوحوش والحشرات ، وهو مقتنع بأنه حشرة
 وليس وحشا وبالتالى فهو قانع بالفتات الذى يسرقه .
 ومع ذلك فلم يكف النورس عن ممارسة عادة سيئة على حد
 تعبيره وهى قراءة الكتب ولقد اكتشفت انه قرأ لكتاب مصريين
 وأجانب كثيرين وأنه أتى على كل كتاب فى مكتبة السجن .

وحينما سألته اذا كان قد قرأ كتاب ارسين لوبين وشرلوك
 هولمز نظر الى فى عتاب

- : لقد قرأت اهتمجواى وطه حسين وشكسبير وتشيكوف .
 حقيقة انا فار ٠٠ ولكن فار مثقف ٠٠ أكل الجبن والكتب
 الدسمة ٠٠ وذات يوم كنت قد ذهبت الى الحمام وتركت
 الزنانة مفتوحة ، وحينما عدت اكتشفت اختفاء بعض علب
 السجائر والسلمون وكوزين حلاوة كنت قد اشتريتهما من
 كانتين السجين .
 وأبلغت النورس بالمحادثة وأبدى استغرابا وانزعاجا شديدين

وخاصة وقد لمح في نبرات صوتي رنة اتهام له ولم يعلق ولم ينطق بكلمة واحدة وانسحب في هدوء مثير .
وقبل التمام ولدى عودتي من دورة المياه ، اكتشفت ان المسروقات قد عادت وليس هذا ففط بل وكميات أكثر من تلك التي اختفت .

وعبثا حاولت ان اعثر على النورس في ذلك اليوم بل وأختفى تماما لعدة أيام عرفت انه طلب خلالها ان يذهب للعمل في المكتبة . . . وحينما التقيت به بعد اسبوع وبعد الحاج من جانبي على الشاويش عبد الستار لمحت على وجهه انفعالات غريبة ومحاولة من جانبه بالا التقي بعينه اللتين امتلأتا بالدموع .

— لماذا قاطعتني كل تلك الفترة ؟ . .
— لم اقاطعك ، ولكن كنت حزينا للغاية حينما احسست بأنك تتهمني . . حتى انت تعاملني كفار . . وطيببت خاطره وأقسمت له انني لم اكن اعنيه هو . .
وحكى لي كيف انه بعد ان تركني مر على كل زنزانة وأخذ يلعن الزلاء لهذه الجريمة الشنعاء . .
— من الذي سرق الاستاذيا اولاد الـ . . الا تعرفون انه في السجن هنا من أجل الغلاية . . لازم قبل التمام تروح له كل الحاجات . . ولازم اعرف من الذي عمل العملة السوداء . . دى . .

والذي حدث انهم جمعوا فيما بينهم تلك الحاجيات وأرسلوها الى الزنزانة في محاولة لاسترضائي .

— ألم تعرف من الذي فعلها ؟
— عرفته . . وقد ندم بشدة وهو يريد أن يأتى ويعتذر لك . .

كانت الامور تجري من السطح وطوال ذلك الشهر الذى قضيته في سجن مصر في علاقات وحكايات مع النورس . والشاويش عبد الستار ولكن ذلك لم يكن سوى الصورة من السطح . .

فمنذ رحلت الى القاهرة بعد اضراب الزملاء الاربعة فى

الواحات جاءوا بى الى سجن مصر وبعد أربعة أيام وبالتحديد فى يوم الاحد ، ذهبوا بى الى القصر العينى لاعرض مرة اخرى على ٠٠ امين زايد ٠٠ ورفضت بالطبع ان اعرض عليه فلم اكن فى حاجة الى معرفة رأيه ٠٠ وطالبت بأن اعرض على الدكتور عصام توفيق أو أى طبيب آخر ٠٠٠

والحقيقة اننى فقدت اعصابى تماما فى ذلك اليوم فلم اكن اتصور بعد كل ما حدث بينى وبين امين زايد وبعد كل تلك الضجة التى اثيرت وشهرين قضيتهما فى الواحات افقد كل يوم جزء من بصرى نتيجة موقف هذا الطبيب ان اركن فى السجن لكى اعرض فى نفس اليوم الذى يكون فيه منسولا عن استقبال العيون .

وأخذت وأنا فى حالة هياج شديدا أوزع الانفصالات والشتايم دون معايير أو ضبط ٠٠ وعدت الى سجن مصر بعد ان اشر الضابط المرافق والذى كان مختارا بعناية ، بأننى رفضت العلاج !! اكثر من شهر ونصف مضيا على فى تلك الزنزانة فى دور سته فى سجن مصر احتج وأكتب المذكرات وأقابل المسئولين فى السجن ابتداء من مدير السجن حتى الضابط وطبيب مستشفى السجن ولا أجد ردا محددا سوى تعاطف مع حالتى مع عجز عن أى تصرف وحينما التقيت بمدير السجن وقد كان حقيقة انسان طيب ، وهددت بأنه يتحمل مسؤولية تدهور حالتى وبقائى فى السجن دون علاج قال الرجل فى لحظة صدق هادئة .

— اسمع يا بنى ٠٠ انا عندي ولد ذك ، طالب فى الجامعة ومريض ٠٠ ومقدر حالتك تماما وأود ان افعل شيئا ولكنك تعرف انك « وديعة » عندنا فقط ٠٠ المسئول عنك هى المباحث العامة .ولست انا ٠٠ وعلى أى حال فلقد تحدثت معهم فمرارا بشأنك وسيأتى أحدهم لمقابلتك غذا ولم يأت المسئول المباحث فى الغد ولكنه جاء بعد يومين ٠٠ كان نفس الضابط المهذب الذى التقيت به فى القصر العينى وفى غرفة وكيل السجن كان الصراع ٠٠٠٠

جاء مهاجما هذه المرة ومتخليا عن كل الشكليات التى كان
يحرص عليها .
— ماذا تريدنا ان نفعل .. جئنا بك للعلاج ثلاث مرات
وأنت الذى ترفض العلاج ؟ ..
— اننى لم أرفض العلاج وأنت تعرف هذا جيدا ..
ولكننى أرفض أمين زايد ..
وما دخلنا نحن .. انه مدرس فى القصر ويمارس عمله
كطبيب ؟

— هناك عشرات غيره .. هناك عصام توفيق واساتذة
آخرون لماذا رفضتم تشخيص عصام توفيق ولماذا تصرون على
عرض كل مرة على أمين زايد .. له .. له .. ؟
ودار الحوار هكذا فى طريق مسدود وهو يحتد احيانا ولكن
بحساب وأنا أحتد دائما وبدون حساب ، ووكيل السجن
يتدخل بين الحين والاخر لتلطيف الجو ..
منطقه أن مسؤوليتهم تتحدد فقط فى عرضى على الاخصائى
وانهم قد اخلوا مسؤوليتهم بترحيل ثلاث مرات الى القصر
العينى ..

قلت : اذن فهناك اصرار من جانبكم على ان أفقد بصرى ،
ليكن .. فلماذا تضعونى هنا فى سجن مصر ..
— هنا أفضل بعيدا عن الصحراء والشمس والرمال ..
— هذا ليس مكان للمعتقلين فاما ان اعالج فى احد
المستشفيات أو ارحل الى الواحات ..
— ترحل للواحات لتثير زملاءك مرة اخرى .. بصراحة
نحن لا نريد صداعا ؟

— ولكن سجن مصر ليس مكانا للعلاج ..
— على أى حال فهذا أفضل بالنسبة لنا من أى مكان اخر
حتى نصل الى قرار فى أمرنا ..
— حضرة الضابط ، الامر لا يحتاج الى قرار ودراسة
ومماثلة .. كل شيء واضح ، اما ان أرسل للعلاج فى أحد
مستشفيات الجامعة أو أعود الى الواحات .
— يا أخى .. لماذا تمعدها هكذا .. يمكن قمعك هنا
خير .. الطريق لبيتك أقصر ..

قال هذه الكلمات وهو يعود الى طريقته المهذبة القديمة .
ورفضت ان التقط الطعم الذى رماه وعدت اطالب
أما بالعلاج أو بالعودة الى الواحات ؟
ولكنه عاد يتحدث عن الافراج وعن دراسة حالتى والمشاكل
التي اسببها لهم وبأنهم يريدون ان يرتاحوا منها ..
ثم قال وهو يغادر الغرفة :
— مالك كده مش زى عوايدك ، خلى نفسك طويل البال
دانت راجل رئيس تحرير .. يمكن يا سيدى تطلع من هنا على
بيتكم .. المسألة سهلة زى ما أنت عارف ..
وترك الغرفة بسرعة حتى قبل ان افكر فى الرد عليه ..
وتأكد لى ، ولاول مرة ، اننى وقعت فى فخ حقيقى .. بعيدا
عن العلاج ، بعيدا عن الزملاء وروح الجماعة .. فى زنازة
مظلمة معتمة وسط أناس لا يمكن أن تعايشهم .. والعين
تضييع فى كل لحظة .. والطريق الى بيتك قصير ..
كان فخا محكما ..

دع المصباح يشتعل لأرى
وجهك والزهور تنتظم لتتوج
جبهتك قبل ان اذهب ، دعني
أردد نغمتي الاخيرة لانم
موسيقاه *

« طاغور »

نوفمبر ١٩٦٢ *

ليست المشكلة في أن تعاني طالما تعرف لماذا ، وتظل في
النهاية قادرا على ان تحسم المعاناة والالم بقرار داخلي حاسم
يفمرك بسلام نفسى عميق *

ولكنها تصبح مشكلة حقا حين تعجز عن تحقيق هذا
السلام الداخلى ، فتهتز الصورة أمامك ويتوه خيط التفكير في
الرأس وتحاصرك ازمة المعاناة في حلبة ضيقة فلا تعرف اين
تنجى خطواتك وهل هي فى الطريق الصحيح لم لا ؟ .. وهنا
يمكن ان يحدث اى شئ *

ولقد كنت طوال الاشهر الماضية ، اى منذ بدأت معركة
عينى ، قادرا على ان اتخذ القرار الداخلى الحاسم *

ولكن الامر فى زنزانة ٣٠ فى دور ستة سجن مصر لم
يكن يشجع على الاطلاق للاستمرار فى هذه القدرة ..
والغريب انى كنت أعن ذلك تماما *

ستون يوما مضت منذ جئت الى هذا السجن قابعا فى تلك
الزنزانة التى لا تزيد عن ثلاثة امتار طولاً وعرضاً وفتحتها
المقبضة الى أعلا .. بعيدا عن العلاج بعيدا عن الزملاء بعيدا
عن أى رقعه من اى نوع سوى نماذج مستهلكة مخربة فقدت
أحاسيسها بأدميتها وتعودت ان تعيش مثلما تعيش الجرزان

تقاتل من اجل قطعة جبن وتلوذ الى ججورها هاربة مذعورة
لدى صفارة الشاويش .

حتى « النورس » بما فيه من بعض بقايا انسانية رحل من
سجن مصر الى طرة بعد ان صدر ضده حكم بالاشغال الشاقة
المؤقتة .

واخذت امضغ الوحدة والوكها بمرارة ، وكل يوم يمر
أحس بأن بعض قطارات الامل والثقة تتبخر من داخلي ويزداد
احساسى بالكآبة .

وبدأت أعزف عن التسلية الوحيدة التي كنت اهرب فيها
بعض الساعات وهى القراءة بعد ان استنزفت تقريبا كل ما
يمكن أن يقرأه فى مكتبة السجن وبدأت ايام تمر دون ان
اتبادل كلمة مع انسان حتى شاويش العنبر الجديد كان مملا
الى الدرجة التي لا تغرى بضياح دقيقة واحدة معه . بل
وبدأت افقد الاحساس بالفرق بين الليل والنهار او بين
الاستيقاظ والنوم ، وكثيرا ما كنت أسستلقى على السرير
الحديدي وعيني مفتوحة وهمهمات السجن فى اذنى ، ورأسى
تدور فى أماكن اخرى تماما ، أحيانا فى الواحات بين الزملاء
وأحيانا فى القصر العيني وكثيرا ما أنسى الحاضر كله واستسلم
لشريط باهت من ذكريات ما قبل الاعتقال . وفى بعد
الاحيان أقف وسط الزنزانة والقي خطبة طويلة بصوت
مسموع أو اقوم بتمثيل بعض المشاهد المسرحية أو أولف
لنفسى دورا خاصا امثل به على نفسى .

وتحولت الدقائق الى ساعات والساعات الى ايام حتى القلم
لم يعد يجدى وفقد سحره وعجزت لأول مرة على ان اكتب
جملة مفيدة . حاولت ولليلة طويلة ان اكتب شيئا ولكن
القلم لا يكتب والعقل شارد غير قادر حتى أن يحلق فى اجواء
الزنزانة وكانت حصيلة ليلة كاملة عدة سطور لا يمكن أن
تكون فيما بينها جملة مفيدة .

أما لعبة السيجة التي استطاعت ان تشغلنى ليلة أو
ليلتين وأنا اقوم بدور اللاعب والطرف الآخر معا فسرعان
ماسستها وألقيت بالكرات التي شكلتها من لبابة العيش فى

جردل البول ٠٠٠ وبدأت اخاف على نفسى ٠٠ نعم بدأت
أخاف .

وأخذت ا تذكر هؤلاء الزملاء الذين كنت اشفق بهم واحرص
على مساندتهم ، حينما كانوا يترددون الى جانب السور
يعيشون مع أزمااتهم الخاصة فى وحدة وصمت ٠٠ وتذكرت
ذلك الزميل الذى كنت اواسيه واشجعه على تحمل مأساته
وهو يقول لى بصوت مختلج .
- : يدك فى الماء البارد ٠٠٠ فانت لا تعرف .

ولكن يدى يا زميلى هى الآن فى الزيت المغلى وبدأت اعرف
الخوف والقلق المدمر ٠٠ وحينما كنت اقضى الليل كله اقطع
الامتار الثلاثة ذهابا وإيابا ويدى خلف ظهرى كانت رأسى
تموج بتيارات شتى .
رزق مكارى وهو يجوب عنبر الواحات يتساءل .. أخرج
اولا أخرج :

والضابط الشاب وهو يقول فى اخر لقاء ٠٠ انت قربت
الآن من منزلك والمسألة بسيطة كما تعرف .
وأبى يقول لى فى اخر مرة فى القصر العينى .
- : يا بنى ٠٠ انقذ عينيك وشبابك وما فى القلب فى
القلب ٠٠ وأفعل ما أمر به رسول الله بلال الحبشى حينما
كانوا يعذبوه فى بطاح مكة .. والدكتور عبد المنعم عبيد هو
يقول لى فى الواحات قبل السفر الاخير .
- لابد من اجراء العملية وبسرعة ، لا ترجع هذه المرة دون
علاج ٠٠ وأبو سيف يوسف يقول فى صوته الهامس .
قلوبنا معك ٠٠ انها ليست قضية عينيك وحدك ، انها
قضيتنا جميعا . ومحسن الحياط يغنى على البرش بجوارى .

عشان انسان
أحب واثور وأتالم
وأغنيله ..
وفجرى لو يطول ليله
انا ديله
وأولغ له قناديله

ما دام عندي امل بكرة ٠٠ اشوف الفجر

بكره الفجر هينور ٠

ولكن اكثر من فجر يمر يا محسن وقلبي حزين
ودائرة الكتابة تضيق الخناق على القلب ٠٠ متى ياتي هذا
الفجر بدون أسوار وحراس، متى ياتي هذا الفجر الحر، متى
٠٠٠ متى كنت قد كفت عن الاحتجاج بعد أن أدركت متأخرا
انه كلما كان يبلقهم ضيقى بسجن مصر واضطراب اعصابى
كلما كان كان ذلك يفتح شهيتهم للاستمرار فى اللعبة ٠

ولكنى وبالرغم من كل مظاهر التمسك الخارجى النى
كنت احرص عليها وخاصة امام المسئولين فى السجن الا ان
اعصابى بدأت تخوننى ويوضح فى مرات كثيرة ٠٠ ففى
أحد الليالى اخذت ادق بعنف متواصل على باب الزنزانة ٠٠
وفى يوم اخر القيت بالأكل فى وجه الحارس المساعد للعنبر ،
وفى يوم آخر رفضت بأصرار اغلاق الزنزانة عند التمام
واضطر الشاويش ان يستنجد بوكيل السجن ٠

كانت كلها انفعالات تلقائية وغير مجدية ولكنها تعبر فى
النهاية عن العجز والاحباط وعدم القدرة على التصرف
والتحكم ٠

ولقد كان يعقب كل هذا استدعاء من جانب وكيل السجن
الذى كان فيما يبدو موسى على لكى يعيد على مسامعى استعداده
لبذل مساعيه الحميدة لدى المباحث بشرط ٠٠ ان اكون
مستعدا للتفاهم ٠٠ أى تفاهم يا حضرة الضابط !! ٠٠ ان
أعيش خرقه بالية ! ان اشرح كيانى كله لازل بعد ذلك فاقد
الثقة بالنفس وبالحياة وبكل شئ ٠٠ ان اتحول الى د اغاء
جديد فاقد الطعم واللون والرائحة ، والعمى ٠٠ اليس هو
الاخر بديل مزعج ٠٠ ان تحتفظ بلونك الداخلى وتفقد القدره
على تمييز الالوان الخارجية ٠٠ ان تعيش فى ليلى دائم فى
سجن ابدى من الظلمة والظلام ٠٠ واصبحت الواحات أملاى
فى صحراء سجن مصر ٠٠ ابتسامه الرفاق ودفع الامال فى
الصدور رئة المستقبل التى ما زالت تتردد فى كلماتهم ٠٠٠

الانسانية المتفجرة في القلوب ، كم انا محتاج لكم ، كم أنا في
اشد الاحتياج لكم .. لماذا لا نمسك ايديكم الطويلة
لتخطفوني .. انى اختنق ، اتعذب ، كأنه حائر .. اننى
أضعف واصبحت اخاف على نفسى .. عينى نذهب ، صبرى
ينفذ ، والامل كريحه لاول مرة يتراقص على وجه ضابط المباحث
وايحاءاته .

لو كانت القضية مجرد ايمان بفكرة لهان الامر فلن نخسر
الفكرة كثيرا اذا فقدت واحدا ولكن القضية أنا ...
انسانيتى ، احساسى بذاتى .. كيف اشرح نفسى بنفسى ..
كيف يمكن أن أعيش محنى الرأس يلزمنى احساسى بالعجز
والضعف امضى على رصيف الشارع واخاف الظل .. لا
أستطيع .

بالله عليكم يا بنات اورشليم هل رأيتن فتى كان جبينه
الاسمر ينضج بالحب والحياة .. لا تتركوه يتوه منكن في
شعاب الحيرة والتردد والياس .. وماذا يفيد الانسان اذا
كسب العالم وخسر نفسه ، وماذا يفيد الانسان اذا كسب
نفسه وخسر العالم ، وماذا يفيد الانسان اذا كسب عينيه
وخسر حريته ، وماذا يفيد الانسان اذا كسب حريته وخسر
عينيه .. ماذا يفيد وماذا لا يفيد .. ؟

لا أحد يجيب .. ولكن اشارات كثيرة .
الضابط المهذب يشر بأصبعه ليعطينى قلما وورقة ،
والزملاء من بعيد يفتحون اذرعهم ، وابى الصامت وعينى
تذهب والسجن كئيب كئيب .. والجو ثقيل كالرصااص وأنا
أصرخ .. اصرخ تعالوا معى .. وقابلت وكيل السجن ،
وقلت له اننى اريد ان التقى بمسئول من المباحث العامة ،
ولم يخف الرجل فرحته فلقد احس انه نجح فى مهمته ..
وبعد ساعة واحدة كان الضابط المهذب فى غرفة وكيل
السجن وعلى وجهه ابتسامة الانتصار واسعة .

- : بيدوا لك قد عقلت أخيرا ..

-

- انت تعرف الصيغة .. اعطه ورقة وقلم .

-

— لماذا لا تكتب .. المسألة لا تحتاج الى تفكير .. بعد اقل من اسبوع ستنتقل الى القصر العيني لتعالج .. وغالبا سيتم الافراج هناك .

— حضرة الضابط .. انا لم اطلبك الى هنا لكي اكتب شيئا .. ولكنني اريد ان ابلغك انني اطالب بترحيلي فورا الى معتقل الواحات واحملك مسئولية اى تاخير .

قلت هذه الكلمات وسكت فلقد اخذت الليل كله اختارها كلمة كلمة لكي لا ابدو منهارا ولكي لا تشير كلماتي بالاحساس الكامل بالضيق .. ولن انسى نظرة الضابط الملتهبة الغامضة وهو يخرج في عصبية والدهشة التي ارتسمت على وجه وكيل السجن الذي كان يمني نفسه بترقبه والذي استدرك نفسه وخرج مهرولا وراء ضابط المباحث .

وظلمت وحدى في غرفة وكيل السجن استعيد المنظر واستعيد من خلاله جزءا من الثقة التي افتقدتها ، ولكن ذلك لم يدم طويلا فلقد عاد الوكيل بوجهه مفكرا وهو يصرخ حسرة على الترقية .

— ايه الى انت عملته ده .. هو شغل عيال .. اتفضل على الزنزانة ويكون في علمك انك لن ترحل من هنا الى اى مكان اخر .. وهناك تعليمات جديدة بشأنك .. الكتب ممنوعة الجرائد ممنوعة .. الفسحة ساعة واحدة والزنزانة مقفولة طول الوقت .. اتفضل .. اتفضل .. اسحبه يا عسكري .

وعادت الى الزنزانة التي اصبحت مغلقة طوال الوقت ، ولكن ذلك ليس هو المهم .. فلم اكن لاحفل بقائمة التهديدات والممنوعات التي حفل بها حديث وكيل السجن فلقد كفت هذه الاشياء الصغيرة من ان تصبح شيئا مغريا الى منذ فترة . للكتب والجرائد والكائنات والفسحة ، كلها تخولت الى اشياء بلا معنى في ظل احساس متزايد يستبد بكياني من انه لا بد وان يحدث شيء ، شيء حقيقي يغير الصورة كلها .. حقيقة لم اعد احتمل وجودي يوما واحدا في سجن مصر .. ولكن كل الطرق الاخرى مغلقة .

وتذكرت الحسين بن علي بعد ان فقد كل انصاره واهله ولم

يبقى معه سوى حفنة من الأهل غالبتهم من النساء والأطفال .
سندوا عليه كل الطرق ، حالوا بينه وبين المياه يروى عطشه ،
وحالوا بينه وبين العودة الى مدينة جدة وحالوا بينه وبين
المضى الى الكوفة . . وحتى مقابلة الحاكم رفضوه اياها .

وكان الرد قاسي : والله لا نتركك حتى تباع ليزيد أو نجتز
رأسك . . لقد كان الحسين أكثر حظا ، كان معه سيف على
الأقل . . ولكن أين سيفي . . ان جسدي كله ينهد واتكور
كجرز كبير في ركن من الزنزانة . . ليس من حل ! . .
أدرك ، أدرك تماما انني أصبحت ضعيفا وانني يمكن ان
انهار . . اباع بطريقتهم الخاصة . . ولكن كيف يمكن أن
يحدث هذا ، كيف امسك الورقة والقلم . . ماذا اكتب . .
مستحيل اريد ان اظل لآخر لحظة انسانا حقيقيا وليس دمية
مستهلكة . . لقد آمنت بعظمة الانسان بحريته بقدراته
وطاقاته . . يا الهى . . يا كل الالهة ، يا كل رموز الخير . .
ليس من حل .

يا حسين بن علي ، يافوتشيك يا ناظم يا كل من دافع عن
الانسان والحياة يا كل من دافع عن قيم الحرية والعدالة .
انني في حاجة اليكم . . ماذا افعل . . ؟

ودوامات عاصفة وتمزق كامل وعجز حتى عن الحركة . .
ماذا جرى أين اشراقة الأمل التي كنت دائما أتعلق بها
أين البحار التي لم أعبرها بعد ، أين تلك الايام الجميلة التي
لم أعشها بعد أين تلك الأحلام التي لم أحققها بعد . . أين
يا ناظم ؟ . . كم انا في حاجة اليك . .

موجات سوداء قاتلة والخوف . . الخوف ان تتحول الى
لا انسان كل شيء ممكن الا ان تتحول الى لا انسان .
واذا كان ولا مفر .

وتناولت حبة نوافلجين ، واسترعى انتباهي وجود كميات
كبيرة من النوافلجين واللدومينال فلقد كنت احرص على أن
تتوفر لي اكبر كمية من المسكنات والمنومات في الفترة
الماضية .

ولمعت الفكرة في العقل المكدود . . يمكن ان يكون هذا .
ولم لا . . ليس هنالك من سيف تدافع به عين انسانيته

سوى ٠٠ ولكنه هروب من الحياة ، ولم لا يكون دفاعا عن الحياة ٠٠٠ ولكنه احساس بالعجز والضعف ٠٠ نعم ولكنه ايضا انهاء للعجز والضعف قبل ان يصل بك الى حظيرة الحيوانات ٠

ماذا يقول الزملاء خاف وانهار ٠٠ بل سيقولون خاف أن ينهار ٠

لقد استشهد الحسين ، بل انه قد انتحر في واقع الامر حين جرد سيفه وحيدا في مواجهة جيش بالالاف وقد رفض ان يبايع ٠

وأعدم فوتشيك وقد رفض ان يبيع انسانينه ٠٠ الامر لا يختلف ٠٠ بل الامر يختلف ٠٠ الموت يمكن ان يكون دفاعا عن الحياة ٠

ولكن الانتحار هروب ٠٠ في بعض الاحيان يمكن ان يكون شجاعة ٠٠ هروب ، شجاعة ، خوف ، ثقة ٠٠ كل هذه الكلمات المتناقضة تتداخل ٠٠ ولكن لابد من قرار في النهاية قبل ان افقد القدرة تماما على اتخاذ القرار ٠٠ ان يوما آخر قد يعقد المشكلة فقد يصل الخوف الى القلب ولحظتها لا يمكن التحكم ٠

لابد من قرار ٠

أكثر من أربع وعشرين ساعة وسط تلك الدوامة الكاسحة وفي الساعة العاشرة من مساء ٢٩ نوفمبر اى نفس الليلة والساعة التي ولدت فيها منذ ٢٦ عاما ٠٠ استطعت ان اتخذ القرار ٠٠

وأحسست بارتياح من نوع غريب ٠٠ ارتياح من استطاع ان يقول كلمة مفيدة في النهاية حتى ولو كانت تعنى الموت ٠ وجلست في هدوء وصفاء ذهني نادرين اكتب ثلاث خطابات ٠٠ كتبت الاول الى ابي العزيز ٠٠ وكتبت الثاني الى رفاقي العظام ٠٠ وكتبت الثالث الى حسن المصيلحي ٠ استعدت مع ابي في الخطاب ذكريات حلوة معه وقلت له في النهاية ٠٠ لقد كنت دائما تقول : ان الرجل هو الذكرى ، واعتقد انك لن تفقد ابنا اخر فلقد تركت شيئا اعتقد انك يمكن ان تفخر به ٠

وكتبت الى الرفاق اشرح الموقف باختصار وابرر موقفى
موقفى وقرارى . بأنه ليس هروبا من الحياة بل دفاعا عنها .
ان المصيلحى فقد كتبت له عدة أسطر لازلت اذكرها
بالحرف الواحد .

«خابت امانيك ومخططاتك اللانسانية .. ولعلك تدرك
الان من منا يستطيع أن ينتصر .. الانسان بعقله وقلبه أم
الوحش بمخالبه .. فبلقد انتصرت عليك حتى بالموت ..
وجلسنت على السرير ، ادخن آخر سيجارة .. وأتأمل جدار
الزنزانة الداكن وارى ابى يخلع نظارته بهدوء ويمسح دمه
ونبيل ذكى بملابس الواحات يمد يده والمصيلحى يصرخ
وأمين زايد يمسك بسيخ محمى بالنار وأختى تضع يدها
على خدها فى استسلام .. وتتراقص وتندخل صورهم بل
وأحيانا أصواتهم وكاننى أشاهد احد افلام الموضة الجديدة .
فأفقت على الترانيم التى تسبق اذان الفجر من المسجد
المجاور ، وتناولت انبوبة النوفالجن واخذت عشرة حبات
اذبتها فى قدر قليل من الماء وشربتها .. وأحسست بحسه
فى الحلق فتناولت قدرا اخر من المياه ثم جلست على السرير
مرة اخرى ارقب فى انتباه غريب أى تأثيرات سريعة يمكن ان
أحس بها ومضت عدة دقائق لم أحس فيها بشئ وبدأت
المرحلة الثانية اخذت عشر حبات لومينال تناولتها خمسة
خمس مع كوب من الماء .. ثم القيت الكوب فى جردل
البول .

اذن فقد انتهى كل شئ ولم يعد هناك فرصة للتراجع ..
ومن قال انى فكرت فى التراجع .. وحاولت ان امشى قليلا
فى الزنزانة ولكنى بدأت أحس بدوار يلف رأسى تماما مثلما
كنت أحس وانا صغير بعد لعبة « دوخينى يا ليمونه » وزاد
الدوار وبدأ السقف يميل ويهتز وكذلك الجدران واسرعت
ارقد على السرير واغمض عيني .. ولكن الدوار يزداد وعرق
بارد غزير ينساب فى وقت خرج حبات منه الى شفتى واحس
بطعم غريب .. كانت لدى رغبة جارفة فى ان أظل واعيا
مدركا حتى اخر لحظة .. كنت اريد ان اسجل اللحظة
الاخيرة .

ولكن رأسي تدور وجسدي يطير في الهواء ، ما زلت ادرك
 انني في الزنزانة .. اين .. لا أعرف .. هذا سرير ..
 وهذا جردل البول .. كل شيء واضح رغم حالة الغيم ..
 وماذا .. كل وماذا .. هذه يدي .. وتلك اصابعي ..
 خمسة .. للاتكلم .. ما هذا .. ستائر كثيفة الغيم تلف
 كل شيء .. بحر عميق .. خيالات .. شيء ينقص بقسوه ..
 امعائي .. اين رأسي .. تلك الموجه العاليه .. انها تقترب
 تغمرني .. عبثا احاول .. اين .. من .. لا ..
 وضاع الزمان والمكان .

انا متهم وقضائي ذئبان
الليل أنا لا أملك حتى صمتي
فيعض الصمت يدوي في أرجاء
الأرض ويعلن موقف صاحبه
برضاه المذعن أو بالرفض .

عبد الرحمن الشرقاوي -
الحسين نائرا .

٢٢ نوفمبر ١٩٦٢ .

لحظات غريبة نادرة هي تلك التي تفتح فيها عينيك
ولا تعرف اذا كان ما تراه حقيقة او خيال .. انها لحظات
بلا منطق بلا توازن بلا مقياس ، لحظة تبدأ فيها طفلا رضيعا
يرى ولا يعرف يسمع ولا يدرك ، وتنمو اللحظة في دقائق
يصل فيها الطفل الى سن التمييز والنضج والادراك .
وماد الزمان والمكان .. وبدأت اعى ما حولي .
وظللت اتفرس بنظرات طويلة في الوجوه المطلة حولي ،
اتنقل من وجه لآخر وكأنني امر على صفحات بيضاء ليس فيها
كلمة واحدة ، ثم أتذكر فجأة فأعود الى الوجه الذي تركته ..
هذا طبيب السجن وهذا مدير السجن وهذا ، آه انه ضابط
المباحث .. ولكن هذا الوجه جديد تماما . فلأتذكر لا ..
بالتأكيد انه جديد .

واترك الوجوه التي تطل علي وتنظر فيما بينها واجول في
المكان حولي .. صفتين من الأسرة ، بعضها مشغول والبعض
الاخر خال .. والسقف عال على غير العادة .. ثم ان هناك
شبابيك .. نعم شبابيك وليس فتحات .. بالتأكيد انني
لست في الزنزانة .. أين أكون .. وماذا حدث .. صمت
غريب .. لا أسمع .. ووقر شديد في الاذن وسمعت صوتا

خافتنا قادما .. من بعيد .

— لقد انتظم النبض وبدأ يفيق .

والوجوه الملتفة حول السرير تقتارب .. يبدو أن بينهم حديث .. ولكنى لا أسمع شيئا .. ماذا جرى .. وحاولت ان اقوم واجلس على السرير ولكنى احسست برأسى ثقيلة كما لو كانت كتله من الحديد .. حتى يدى التى رفعتها سرعان ما هوت الى جانبى فى وهن شديد : .. واسرعت اكثر من يد تسندنى واقترب طبيب السجن من اذنى وقال شيئا .. ولم أسمع سوى موجات خافتة كانما تاتى من بئر عميق . قلت : لا أسمع شيئا .

سمعت صوتى جيدا ، ولكن بطريقة غريبة ، لقد احسست ان الكلام يخرج من بطنى وليس من فمى .. وقام الطبيب ببعض الحركات والاشـارات وعرفت انه يطلب منى ان استريح تماما ثم ناوئنى كوبا من اللبن الساخن . احضرة التمورجى .. ومتنعت البدايه ثم بدأت ارتشف بعض القطرات على مضض واحسست بأن حلقى ملتهب ومشروخ ، واخذ الطبيب يحثنى على استكمال الشرب ويشجعنى بحركات يده .. ورغم مرارة الحلق والشعور بالتقزز الشديد من طعم اللبن الا اننى واصلت الشرب فلقد كنت أحس بجفاف شديد فى عروقتى .

وبدأت أدرك اكثر .

كان الانعكاس الاصفر الباهت على الشباك المجاور يوحى بأن الشمس على وشك المغيب ، وحامل الجلو كوز والخرطوم الصغير الممتد يؤكد اننى كنت وطوال فترة تحت العلاج المستمر .

واقترب الطبيب مرة اخرى وسمعت صوته هذه المرة ولكن بصعوبة شديدة .

— انت احسن دلوقتى .. انقذناك بأعجوبة .

وحاولت ان أنظف أذنى .

— لا معلنش .. ستظل أذنك ثقيلة لفترة .
واقترب مدير السجن وقال شيئا .. كما قال ضابط

المباحث شيئا آخر ولكنى اشحت بوجهى عنه ، وهذا الوجه الآخر الجديد قال بعض الكلمات .. لم استطع ان اسمعها جيدا ولكن فهمت من طبيب السجن انهم سيتركوننى لفترة . وبدأت أستعيد حواسى شيئا فشيئا ، كانت رائحة الادوية اول ممارسة لحاسة الشم .. بل وسمت ضربات حذاء التمورجى وهو يتحرك وانتقلت من مرحلة التعرف الى مرحلة الادراك . وبدأت اعنى الموقف .. وأتذكر تفاصيل ما حدث فى الزنزانة ، النوفالين ، واللومينال والمحطات الثلاثة .. وبدأ التمورجى يكمل لى الحلقة المفقودة منذ فجر اليوم حتى مسائه ..

لقد اكتشف شاويش العنبر وهو يفتح زنزانتى فى الصباح اننى لا أتحرك من السرير وحينما اقترب منى ليهزنى فوجئ بأن جسدى بارد ويدي تقع الى جانبى فصرخ الرجل .. واتقلب السجن كله .

وجاء الى زنزانتى مأمور السجن والوكيل وكل الضباط وكل المظاهر حولهم تؤكد اننى فارقت الحياة ، ولكن الطبيب اكتشف انه مازال هناك نبضا خافتا للغاية ففقلنى فورا الى مستشفى السجن وجرى غسيل معذة مرتين مع ملاحقتى بالجلوكوز وادوية اخرى طلبها من خارج السجن . وعرفت من التمورجى ايضا ان الدكتور كمال طبيب السجن كان متوترا للغاية وكاد يفقد اعصابه اكثر من مرة مع ادارة السجن ومع ضابط المباحث الذى حضر بعد الحادث بقليل وانه كان يحملهم المسئولية طوال الوقت .

وعرفت ايضا انه منذ السابعة صباحا لم يتركنى طبيب السجن لحظة وانه اصر على ان يشرف بنفسه على عملية الانعاش التى اعقبت عملية الفسيل والانقاذ وكذلك مدير السجن .

كما ابدى التمورجى دهشة البالغة ليس فقط لاهتمام طبيب السجن والمدير بل وايضا بالتليفونات الكثيرة التى تتوالى كل خمس دقائق تقريبا من جهات رسمية كثيرة تستفسر عن حالتى وقال الرجل الطيب وهو يناولنى كوبا دافئا من عصير الليمون .

— انت حاجة من اثنين .. يامهم قوى .. يا خطر قوى .

ولم اكن فى حالة تسمح بالرد على التمورجى فقد كان ذهنى يشتغل مرة اخرى بالاحداث والصور .. كان يعمرنى احساس مبهم بالسعادة لاننى عدت للحياة مرة اخرى بل واحسست للحظات بمعنى ان يولد الانسان من جديد ، ولكن موجة عاتية ومكثفة تحمل كل معاناة الشهور الماضية تحتاج هذا الاحساس فتكاد تقتله وكان السؤال يعمرنى بالكآبة والضيق .. وتسرى موجة باردة فى الجسد كله .

وجاء الدكتور كمال وحده هذه المرة ، وقاس النبض والضغط ، وأبتسم مطمئنا ولكنه اكد ضرورة الحرص على الراحة وعدم مغادرة السرير اطلاقا واخذ يعقب على قيما فعلة مبتسما .

— لقد كنت ذكيا للغاية .. اخترت توقيتا جيدا .

ولم انهم ماذا يعنى الدكتور كمال وحاولت أن استفسر منه ولكنه قال ضاحكا .

— عبقك الباطن كان يعرف ماذا يفعل .. لقد اخذت الجرعة القاتلة قبل فتح الزقانة بساعة : فقط ونصف ساعة اخرى قبل ذلك كانت كفيلة بالقضاء عليك .
وحاولت ان ارد قوضع يده غلى فمى .

— المهم ترتاح .. حققت غرضك وقلبت الدنيا كلها .
سأتركك الآن لارتاح انا الآخر .. وهناك اخرون يريدونك .. وكن هادئا ولا تنفعل .. وحيا الدكتور كمال ومضى .. وودعته بنظرة حب وتقدير حقيقى .. لقد اسأت فهمه طو الالشهرين الماضيين حينما كنت أشكو له حالى واطلب منه التدخل فيمد شففته السفلى ويشير بيده عجزا عن عمل اى شىء ، وفى فتره كنت أجسب انه يكمل دور ضابط المباحث ووكيل السجن .. كم هو رائع ان تكتشف انسانا وسط غابه كهذه .

وجاء ضابط المباحث وجاء معه الوجه الجديد .. ووراءه اخر يحمل شنته ومعهم مأمور السجن . وحاول ضابط المباحث ان يقول كلاما ودودا ومره اخرى اشحت بوجهى عنه

ونظرت الى الناحية الاخرى فلم اكن على استعداد لان اسمع منه شيئا اخر .. وتقدم الوجه الجديد ..

- وكيل نيابة الخليفة .

وفتح الكاتب المحضر .

وبدأت الاسئلة .. اسمك .. سنك .. عملك ..
تهمتك ..

- اى تهمة .

- الجريمة التى دخلت من اجلها السجن ومدة الحكم .

- لا أعرف !

- لا تعرف .. ارجوك هذا محضر رسمى .

- حقيقة لا أعرف .. لست مسجوناً ، ولم توجه لى اى

تهمة ولم يصدر ضدى اى حكم .

- استاذ .. لا تضيع وقت النيابة .. ما هى مدة الحكم عليك .

- قلت لك أنه لم توجه لى اى تهمة حتى الآن انا معتقل منذ اربع سنوات ولم يجرى معى تحقيق .. وسيادتك اول مسئول قانونى التقى به طوال تلك الفترة .

- مش ممكن .. اربع سنوات بدون تحقيق .. لماذا لم يقولوا هذا .. واخذت انامل وجه الشاب وكيل النيابة .

كان فيما يبدو خريجا حديثا لم يمض عليه فى العمل وقت طويل ليكتسب خبرة ودراية ببواطن الامور .

كانت ملامح وجهه البسيطة والمعبرة وانفعالاته البكر تشي

بطالب مثالى ظل يجد طوال اربع سنوات ليحصل على درجة

تؤهله لتحقيق طموحه فى ان يصبح وكيل النيابة .. وفى

غمرة الدراسة والتفانى من أجل تحقيق الهدف لم يكن لديه

الموقت لينظر حوله ، وليدرك ان القانون الذى تفوق فى

دراسته يوضع على الرف ببساطه فى كثير من الاحوال .

والتفت وكيل النيابة الى مأمور السجن يسأله الحقيقة .

واكد المأمور : هو معتقل وليس مسجون ..

وصرخ الشاب البكر وقد احس بان مقدساته تنتهك .

- كيف يا حضرة المأمور .. كيف يوجد فى سجنك انسان

لم يحقق معه ولم يصدر ضده اى حكم وليس على ذمة اية قضية ٠٠٠ كيف ٠٠٠ افتح محضر حالا مع السيد مأمور سجن مصر .

يا ابن البساطة والحقيقة لا تكن ساذجا الى هذا الحد ٠٠٠ وتدخل ضابط المباحث ليحاول أن يشرح لوكيل النيابة الشاب الموقف .

— الاستاذ معتقل بقرار جمهوري وفقا لقوانين الطوارئ .
أما مهمة سيادتكم فى التحقيق فى حادث الانتحار فقط :
ضربة اخرى اصابت مثاليات الشاب المنفل والذى لم يكن قد جرب بعد فيما يبدو سلطة ضابط المباحث ٠٠ لقد تعلم فى الكلية انه السلطة الوحيدة القادرة على تكليف التهمة وتوجيهها وان اجراءات وتحقيقات ضابط البوليس لا تتعدى كونها مجرد محضر اثبات قد لا يكون بعيدا عن الشبهات ٠٠ فكيف بهذا الضابط يكلمة بصيغة الامر وفى لهجة من يملك ويعحكم .

وثار وكيل النيابة الشاب . واصر على ان يفتح محضرا مع مأمور السجن لوجود انسان غير متهم فى جريمة ولم يصدر ضده حكم فى سجنه ٠٠ وعيضا حاول المأمور ان يشرح له الموقف ، وصمت ضابط المباحث بعد ان ادرك مدى الجدية والاصرار لدى وكيل النيابة .

وكان كل ما يهمنى فى تلك المعركة الساخرة هى الانفعالات الجديدة والحية التى تموج على وجه الوكيل الشاب ٠٠ انه نموذج اخر للدكتور احمد نائب القصر العينى والآلاف من الشبان الذين ابتعدوا عن العمل فى السياسة واغرقوا أنفسهم فى دراستهم وتفوقوا فيها ، ثم يواجهون الحياة والتجربة ليدركوا ان هناك هوة واسعة بين ما درسوه وبين ما هو واقع بالفعل ٠٠ بل هى فى واقع الامر مأساة لجيل كامل من الشبان توهبوا واوهبوا بان الطالب للدراسة فقط وان السياسة شئ آخر ، وحينما تخرج طلاب الامس اكتشفوا ان دراسة الطب والهندسة والقانون والكيمياء لا يمكن أن تكون بمعزل عن واقع بلدهم وان عليهم مع الصدمات الاولى التى يواجهونها

ان يختاروا بين طريقتين .. اما التكيف مع هذا الواقع الذى يلقى تخصصاتهم واحيانا انسانياتهم ويصبحون ادوات طيبة فى يد النظام الاشتراكى او الاصطدام معه والبحث عن طريق ليكون العلم فى خدمة الانسان .

قلت رافعا صوتى وفى محاولة لوقف المهزلة اللامعقولة التى تجرى .

— يا حاضرة وكيل النيابة ، بدلا من اضاءة الوقت فى قضايا لا تملك ان تحسمها ولا السيد المأمور فاني ارجو من سيادتكم اذا كنت متحمسا حقاً لقضيتى ان تأمر اما بعلاجى فى احد المستشفيات الخاصة او بنقل الى سجن الواحات .
— لا .. بل سأصدر امرى بالانجراج عنك فوراً .
— يا حاضرة !

ولكن صوتى تاه مرة اخرى فى موجة من الانفعال والحماس اجتاحت وكيل النيابة الشاب وهو يتكلم عن القانون وضرورة سيادة القانون و

وخرج ضابط المباحث .. وتبعه مأمور السجن ..
واندفع خلفهم وكيل النيابة الشاب وهو يصيح .
— مش ممكن أسكت على الانتهاك ده .. مسجون بدون تحقيق أو اقرار اتهام او حكم محكمة مش ممكن ..
وعاد الهدوء مرة أخرى بعد ان خرج الفرسان الثلاثة ليواصلوا معركتهم فى حجرة المأمور .. معركة غريبة حقاً تشترك فيها اجهزة السلطة .. اى اجهزة ؟

واذا قلنا ان وكيل النيابة الشاب يمثل السلطة التشريعية ومأمور السجن يمثل السلطة التنفيذية .. فإى سلطة يمثلها ضابط المباحث .. انه كل شيء .. انه الخصم والحكم والقانون والتنفيذ .. انه فرعون مصر — وامبراطور روما وقائد التتار وهتلر المانيا وسالازار البرتغال .

كنت اعرف بالطبع من سينتصر فى تلك المعركة واشفق فى نفس الوقت على الشاب الذى قدس القانون .
واحسست برأس ثقيلة وبجفون منهكة ..
وغبت فى نوم عميق .

- ٢٧ -

أتري أمنحه بيعه ذل ؟
بعدها آمن في بيتي وأهلى ...
مثل شاة في قطيع !!
عبد الرحمن الشربلوي - الحسين ثائر

ديسمبر ١٩٦٢ .

مربوط العينين ارتقد على السرير والموسيقى تنبعث من
الراديو المجاور وصمت مطبق في الساعة الأولى للعام الجديد .

أكثر من عشرين يوما منذ أن أجريت العملية في مستشفى
الدمرداش ومطلوب مني أن اظل راقدا على ظهري بلا أي
حركة قدر الامكان .

لنقط منذ أيام سمح لي الدكتور فاروق حسنى الاستاذ بطب
الدمرداش بالحركة وبالذهاب إلى دورة المياه .
ولكنها لم تكن أياما قاسية .

لقد أجريت العملية أخيرا بعد أكثر من ستة شهور من
المعاناة والمعارك المتصلة . بالرغم من المصيلحي وبالرغم من
أمن زائد وبالرغم من كل الخطط القاسية التي وضعت بأحكام
وكأنت كلها تهدف إلى أن تكون عيني ثمنا لعقيدتي .

كان الاحساس بالانتصار يلون كل شيء ويلوئي
بالاحساس بالثقة والقدرة . واكتشف من خلال تجربتي
الآخرة ان الذى يملك القدرة على التضحية بحياته ويتخذ
القرار وينفذه ، يملك وينفس الدرجة القدرة على أن يحب
الحياة ويلونها بطاقة أمل لا تنفذ .

- ٢٣٣ -

كان القرار بترحيلي الى مستشفى الدمرداش بعد اسبوع واحد من حادث الزلزلة هو بكل المعايير هزيمة لكل اعداء الحياة الانسانية والانسان ولكل اساليبهم التي مارسوها معي ..

وكان قرار الدكتور فاروق حسنى الاستاذ بطب عين شمس وزميلته المدرسة فى نفس الكلية فضحا وكشفا لما سبق أن رددته أمين زايد بأن حالتى ميثوس منها وبأنه لا مناص من الاستئصال ..

حقيقة نجحوا فى تعطيل ستة أشهر كان المرض خلالها قد

استبد بالعين وأجرى فيها وفى أبصارها أكبر قدر من التخريب .. وحقيقة أيضا فرضوا على معركة قاسية مريعة خضتها أعزل من أى سلاح سوى الايمان بالانسان .. وحقيقة أيضا مرت على فترات احسست فيها بالضعف والخوف والقلق ولكن لم استسلم ، وكان أقصى ما وصلت اليه هو ان تنتهى حياتى قبل ان تنتهى قدرتى على التمسك بانسانيتى .

وعدت اسرح مع لحن جميل جاء معبرا تماما عن اللحظة التى أعيشها فى تلك الساعات الاولى من العام الجديد . كان اهتمام الدكتور فاروق حسنى بل وهيئة التدريس فى طب عين شمس بحالتى تعويضاً انسانياً عن المآسى التى عانيت بها على يد أمين زايد الذى كاد يفقدنى الثقة فى الاطباء .

وبالرغم من ان الدكتور فاروق حسنى لم يعلق على ما سمعته منى عن الظروف التى مرت بى خلال الاشهر الماضية الا انه كان يؤكد دائما ان العملية لو اجريت قبل ذلك بعدة شهور لامكن انقاذ عيني تماما ... ولقد عرفت أن العملية التى أجريتها هى فقط لوقف المرض وتدهور الحالة أما ما فقدته من ابصار العين اليسرى فلم يعد من الممكن علاجه .

ولكن ذلك كله لم يكن ليقلل من قيمة احساسى بالانتصار ، ولقد كان ذلك واضحا فى تصرفات الطرف الاخر ..

فمنذ ذلك اليوم الذى نقلت فيه الى مستشفى سسجن مصر بين الحياة والموت لم أر ضابط المباحث ولا أى مبعوث

آخر منهم .. لقد عرفت بعد ذلك أن الخبر قد انتشر وذاع بين كل الاوساط المحلية والعربية والعالمية وخاصة بعد ان نشرت جريدة الاخبار بناء على مبادرة من أحد الصحفيين الشرفاء - الخبر في اليوم التالي للحادث .

بل واستطيع ان اقول ان تلك الحادثة نبهت المسؤولين الى ما يجري داخل المعتقلات في الوقت الذي كان هناك تفكير جدي في الافراج .

وقد تأكد لي أن الاوامر الخاصة بنقل الى مستشفى الدمرداش جاءت من الرئاسة .. وبعد اجراء العملية بيومين جاءني أبي بخطاب رسمي وصله من الرئاسة فيه :
« نجلكم قد نقل الى مستشفى الدمرداش واجريت له عملية في عينه كما انه يحظى بالرعاية الطبية الكاملة .. مع تمنياتنا بالشفاء .. »

وكان الخطاب مهورا بامضاء على صبرى رئيس المجلس التنفيذي في ج . ع . م .
والحقيقة ان الفترة التي قضيتها في مستشفى الدمرداش كانت فترة سلام نفسي رائع .. ورغم أنني قضيت غالبية الفترة معصوب العينين الا أن قلبي كان ينبض بالحُب والثقة والامل .

وجاء لزيارتي هذه المرة وفود من اهل القرية بل وبعض الاصدقاء الصحفيين والمثقفين .. وكانت احاديثهم الدافئة تنبض باحاسيس جديدة .. لم يكن هناك ذلك الخوف الكامل الذي كنت المسه حتى في احاديث الاهل في الزيارات السابقة .

واذكر ان شابا من قريتي من طلبة الجامعة جاء لزيارتي ومعه عدد اخر من زملائه الطلبة ، وطوال الحديث كنت احس بلهجة التقدير العالية التي يحدثوني بها وفي المرة الوحيدة التي حاولت ان اتدخل كان ذلك لحرصي عليهم ولخوفي من ان يمسهم اى ضرر .. ولكنهم مضوا في حديثهم غير آبهين بالمخاطر التي ذكرتها .
انتم الرواد .. لقد تحملتم عنا الكثير .

— لابد أن تخرجوا فوراً من المعتقلات .. لانقبل أن تبني الاشتراكية بدون الاشتراكيين الحقيقيين .
وحينما كنت أختلى الى نفسى ولم يكن ذلك متاحا الا بعد منتصف الليل ، حين يتركنى الزوار .. كنت استعيد تلك الصور الجديدة لاتأكد أن هناك شيئا جديدا بالفعل يجرى فى المجتمع .

فى الزيارات السابقة كان الخوف والقلق يسيطر .. حتى كلمات أبى كان يختارها بعناية .. كان اقضى ماكنت اسمعه ويمزقنى كلمة كان يقولها ضابط المباحث ويكررها الحرس وأحيانا يقولها أبى :

— لماذا لاتخرج .. ان احدا لا يحس بك .
لقد كانت كل المظاهر السابقة توحى بأن هذا صحيح ، ولقد كان احساسا قاتلا ينفذ كالسكين الحاد يعيث بكل المقدسات التى تحرص عليها وتضحى من أجلها .. لاحد يحس بك وانت الذى تتحمل كل هذه المعاناة من اجل هؤلاء الذين لا يحسون بك .. ولكن هذه المرة اعادت كثيرا من الثقة بمغزى التضحية .. فقد يفرض الخوف ستارا من الصمت لفترة ، ولكن اى بذرة خيرة لابد ان تنبت فى النهاية بل ويمكن ان تزهر وتثمر .

لقد كان ما سمعته من الامل والاصدقاء والمعارف والزوار وأطباء المستشفى كفيلا بتجديد الثقة بالنفس وبأهمية اعطاء المثل والقُدوة .

وعادت الموسيقى تسحبني بانغامها الهادئة .
لعلها اول بداية لعام جديد منذ أربع سنوات تفتح امام القلب صفحات جديدة ناصعة بالحب .

واصوات العربات فى شارع رمسيس تمرح بعد منتصف الليل والاغانى المتقطعة التى تشدوا بها المجموعات السهرانة .
كنت اسمعها واعيشها باحساس من يشاهد ويسمع قليلا سينمائيا جيدا يستغرق فى احداثه لحظات او ساعات ولكنه سرعان ما يفيق ليدرك ان هذا العالم الملون المتحرك حوله ما زال بعيدا عنه تفصله اسوار عالية وصحراء ممتدة .

ولكنها كانت ليلة عيد ميلاد سعيد حقا .
ففى صباح ذلك اليوم أملاً العنبر الصغير بمجموعة من
اهل القرية جاءوا ومعهم سلال البرتقال والفطير المشلتت وعسل
النحل واخذوا يوزعون على الممرضات والمرضى ويملاؤن العنبر
بمرحهم واصواتهم العالية .
قال عم عبده ابو حجاج وقد جرب السجن في المظاهرات
التي اجتاحت مصر في الثلاثينات في عصر الطاغية صدقي
باشا .

— ولا يهكم يا استاذ .. السجن للرجال ..
اما أنور شرف ابن خالي والفلاح الشاب فقد شغل نفسه
بالحراس وراح يتقرب اليهم وينفحهم السجائر ومن حين لآخر
يؤكد لهم ان من يحرسونه هو ابن عمته وكان ذلك مصدر
فخر له .

بيتما راح عمي ، وكان يعمل تاجرا للقطن ، يذكر اسماء
عدد من زملائي في الواحات من ابناء قرى المركز ويعطيني بعض
رسائل من ذويهم ثم يقول ضاحكا :
— ياه .. في كل بلد رحتها فيها واحد والا اثنين ..
انتو لكو شجره في كل بلد .

واختي وقد صحبت معها ابنة الجيران الطالبة في الجامعة
وزوجتي بعد ذلك ، والتي لم اكن اعرفها حتى ذلك اليوم ثم
وهي تهمس لاختي :
— عامل زى فيلم في بيتنا رجل ..

ثم اصرار الجميع على ان احكى كل شيء طوال السنوات
الاربع الماضية وتعليقاتهم الساخرة احيانا وصمتهم الحزين
احيانا اخرى .. وقد سمعوا من الشاعر الحديث معصوب
العينين قصصا لم يقلها لهم شاعر القرية بريابته وبفرسانه
العديدين .

كان يوما من ايام التعويض .. سيظل يذكره العاملون في
مستشفى الدمرداش .
اما بالنسبة لى فلقد كانت بداية مشرفة لعام جديد .

وسمعت صوت المروضة

— استأذني .. انت لسة صاحي .. تعبان واللاحاجة
وقلت واذا اسحب القطاء وفي صوت بين النوم واليقظة
— لا ابدا .. بس بفكر امتي هقدر اشوفك .. صوتك بيقول
انك حلوة قوى . قالت بمزج من المفاجأة والسخرية .
— بكره تشوفه لما الدكتور يشيل الرباط .. بس اوعى
تتصدم ..

ولم يكن هناك شيء يمكن ان يصدمني بعد ذلك .
عدت الى سجن مصر بعد شهر قضيتته في الدمرداش في
اعقاب العملية ؛ وكان تقدير الدكتور فاروق حسنى ان العملية
نجحت تماما في وقف المرض وان كنت مساحتاج الى الاشراف
والرعاية لمدة شهور وكان ذلك يعنى ان اظل في المستشفى تحت
المراقبة والعلاج .

ولكن الذين اجبروا على ارسالي لمستشفى الدمرداش بعد
كل ما حدث لم يكن ليوافقوا على ان ابقى شهر في المستشفى
وسلط الاهل والاصدقاء .. فبعد اسبوع من فك رباط العين
نقلت الى مستشفى سجن مصر وفي طريق العودة حدث شيء لا
اعرف اذا ما كان مخططا ام لا .

فعندما انطلق بنا البوكس من مستشفى الدمرداش فوجئت
بأنه يسير وفق العباسية في اتجاه مصر الجديدة بدلا من الاتجاه
جنوباً وقبل ان اسأل وجدت البوكس امام مبنى السجن الحربي
وتوجست اول الامر وخاصة بعد السمعة السيئة للغاية التي
اكتسبها هذا السجن واخذت امهد نفسي لمرحلة جديدة من
التعذيب البدني .

ودخلنا البوابة وفوجئت بمنظر اخر .

عشرات من الزملاء الذين غادروا الواحات منذ عدة اشهر بعد
ان « كتبوا المطلوب منهم » يمرحون داخل فناء السجن .. وكانت
المفاجأة لوجودى بينهم لا تقل عن مفاجأتى بهذا الامر وقال
احد الزملاء :

— انت .. كنت آخر واحد نتوقع حضوره هنا .. واين

مقالاتك الملتهبة في مجلة الطريق .

قلت في حسم :

— انا لم أكتب شيئا ولكن اكتب شيئا

ولكن غالبيتهم هزوا رؤوسهم غير مصدقين .

لقد كانت آخر المعلومات التي وصلتنا عن هؤلاء الزملاء
« المستنكرين » منذ شهور انهم في القلعة تمهيدا للانفراج
عنهم ، وعرفت منهم انهم كانوا فعلا على وشك الخروج ، ولكن
اساتذة « غسيل المخ » الذين كانوا يعطوهم المحاضرات اليومية
رأوا بعد امتحانهم انهم لم يتكيفوا بعد وانهم يحتاجوا الى
« كورس جديد » لكي يكونوا أكثر استعدادا وتأهيلا لمساعدة
الأجهزة بعد ذلك فجاءوا بهم الى الحربى .

واخذت اقلب وجوه الامر ومجيئى الى الحربى .. هل تصور
الاغنياء اننى قد أصبحت على استعداد المجتارب ؟ أم انهم
لعبة لتشوييه مرقفى لدى الزملاء فى الواحات ..

لم تدم الحيرة طويلا .. فبعد اقل من ساعة جاء قائد الحربى
ونادانى فى حوش السجن ثم قال :

— آسفين ، لقد جاءوا بك الى هنا عن طريق الخطأ .

وجاء البوكس .. واتجهنا الى سجن مصر .

وادرك الزميل الذى قال ملاحظته حقيقة الموقف ، فحرص
على ان يصحبنى حتى البوابة الخارجية وشد على يدي قائلا :

— احنا فى داهيه .. معلهش ، قدراتنا كده .. البركة
فيكوا انتوا .. خليكوا جدعان .

انتوا الامل .

- ٢٨ -

أنتم نور العالم ، ولا حفاء
المدينة قائمة على رأس جبل
وما من سراج ليوضع تحت
الكيال لكنه يرفع على المنار
ليرى به جميع من في الدار .
الدار .

- المسيح -

مارس - يوليو ١٩٦٣

كالطفل التائه العائد لاحتضان امه ، كعامل الترحيلة المغترب
وقد لاحت قريته من بعيد ، كالحمل الوحيد الذى انفردت به
الذئاب فى اعلى التل ثم فجأة ارعدت السماء وامطرت ووجد
نفسه سالماً فى النهاية فى الوادي . . كالحبيب الغائب الذى
امضه الشوق والمث به النوائب فى العربة ثم اقترب من ارض
الحبيبة وشم رائحتها . . مثل او ليس وهو على اعتاب طيبة
بعد حروب طروادة ومثاق العودة ينادى على بنيلوب . .

هكذا كانت مشاعري وانا أقف على بوابة سجن الواحات .
أخذ الرفاق بالاحضان واجول بعيني فى المكان وكل مترفيه
ينبض بذكريات حية ولأتأكد اننى مرة أخرى مع رفاق الامل
فى واحة الحب .

غريب هذا الشعور الذى اجتاحتني منذ غادرت القاهرة فى
طريق العودة الى الواحات بعد حوالى خمسة شهور من الممارك
الفردية المتصلة . . فاعطى ظهري للقاهرة باضوائها وبكل ما فيها
من مظاهر الحياة ووجدانى كله معلق بحياة اخرى تفيض بالصدق
وتحلم بالغد رغم الاسوار ورغم الصحراء المترامية الممتدة . .

وايقنت لحظتها اننى طوال تلك الشهور الخمسة ووسط
دوامة المعاناة القاسية قد استطعت ان اتخلص من ادران النفاق

والمظاهر السطحية واننى باليقين سأظل أبحث عن الامثل الحقيقي حتى ولو كان وسط صحراء قاحلة .

كان الرفاق يسألوننى عن الاخبار وعن القاهرة التى خلفتها ورائى وكنت انا مشوقا لان اتلمسهم واسمع اخبارهم واحاديثهم . . . اى نشاط قاموا به فى تلك الفترة ، وما هى اخبار المجلة والمسرح والمزرعة والاشياء الصغيرة التى خلفتها قبل أن أسافر ، والقصة التى لم تكتمل ومشروع دراسة القرية الذى خططت له .

كانوا قد عرفوا كل شىء بالتفصيل ولم اعد بحاجة لان احكى . . . بل سمعت منهم تفصيلات لم اكن اعرفها .

عرفت انه فى الوقت الذى كنت ادخل المعركة وحيدا فى سجن مصر كانوا هم فى الواحات لا يكفون عن تقديم مذكرات الاحتجاج والتهديد باتخاذ اجراءات عنيفة من اجل انقاذ عينى . . . وعرفت انهم اقاموا احتفالا كبيرا ليلة ٢١ نوفمبر اى ليلة عيد ميلادى ورسم الفنان سعيد عارف صورة كبيرة لى علقت فى طرقة العنبر وانهم قصدوا بتلك الحفلة مظاهرة أمام الادارة .

أكد الزملاء ايضا ان موقفى فى سجن مصر والضجة التى اثيرت حوله فى الداخل والخارج قد اوقفت نهائيا حملة التصفية وان الاوامر قد صدرت من القيادة السياسية العليا للمباحث العامة بوقف اى عمليات من هذا النوع .

كان كل هذا يعطينى المبررات الكافية لانسى لحظة الضعف القاسية التى قررت فيها التخلص من الحياة ، ان تلك اللحظة لم تأت بكل هذه النتائج فحسب سواء انقاذ ما امكن انقاذه من عينى او انقاذ زملاء آخرين من التعرض لنفس الاسلوب - بل لعل أهم نتيجة استخلصها لنفسى هى اننى لن استطيع ان اكون كاذبا مع ذاتى حتى ولو كان الثمن هو الموت . . . ولعل الآخرين قد استخلصوا نفس النتيجة .

وبعد حوالى اسبوع من المشاعر المتدفقة ببنى وبين الزملاء كنت امر فيها كل ليلة على غرفة من الغرف احكى التجربة ونخرج بالاستخلاصات بدأت امارس حياتى من جديد مثلما كنت امارسها طوال السنوات الاربع الماضية، اعدادا لمجلة الطريق

الاستماع الى عدد من الاذاعات العربية والاجنبية وتقدير التحليلات السياسية الخاصة بالوضع الداخلى والعالمى ثم الفرق فى القراءة ليلا ومحاولة استكمال بعض المشروعات والخطط الخاصة بالقصص او بالدراسات .

اما الموقف السياسى فقد كان محيرا حقا .
فمنذ ميثاق العمل الوطنى وقبله الاجراءات الاجتماعية الواسعة التى اتخذت وتم خلالها تأميم أكثر من ٨٠٪ من المرافق الصناعية والتجارية ، ثم ما يعلن كل يوم من اجراءات أخرى مع اللهجة الشديدة المعادية للامبريالية التى اتسمت بها الصحف واجهزة الاعلام ، كل ذلك كان يعنى من احساننا بالحيرة حقا .

اننا نوافق على كل هذه الخطوات ، ولسنا فى حاجة حتى لأن نعلن ذلك . فلماذا نظل فى المعتقل ؟ .
عامان مضيا منذ تلك الانعطافة الهامة فى السياسة الداخلية والخارجية ونحن مازلنا فى المعتقلات وكأن شيئا لم يحدث .
هل حقيقة لأن هناك صراع داخل السلطة بين عبد الناصر وعدد من قادة الثورة من ناحية وعدم آخر من ناحية أخرى؟
ام ان الاجهزة ، وبالتحديد المباحث العامة ، طلبت تأخير الافراج عنا حتى لانخرج بشعور الابطال ؟ .

ام ان كل ما يتم ويعلن من اجراءات لا يعدوان يكون تغييرا على السطح دون اجراء تغيير فى جوهر السلطة ؟
ان الصحف المصرية مليئة بالحديث عن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية والتحالف بين قوى الشعب العاملة وبالذات بين العمال والفلاحين بل وبالدور القيادى للطبقة العاملة .

وهى مليئة ايضا بالهجوم على القوى الاستعمارية والرجعية ليس فى المنطقة العربية وحدها بل وفى العالم كله .
ان ما كنا نكتبه فى جريدة المساء واعتبر فى ذلك الوقت انحرافا اقل بكثير مما يكتب اليوم فهل هى قضية شخصية اذن ؟ .

هل يمكن ان يكون مصطفى امين وعلى امين وصالح جودت

وغيرهم ممن كانوا يأخذون صف الملكية وصدقى ومحمد محمود من أعداء الحرية والديموقراطية قبل يوليو ١٩٥٢ هم أنفسهم الذين يدافعون عن الاشتراكية وتحالف قوى الشعب العامل وينضحون الاساليب الاستعمارية .. بينما نبقى نحن فى المعتقلات وشعاراتنا تتردد فى كل مكان .

وعرفنا ان الكتاب الشرفاء فى الخارج كانوا يطرحون نفس القضية ويطالبون بسرعة الافراج عنا .. عبدالرحمن الشرقاوى نجيب محفوظ والدكتور محمد انيس ولطفى الخولى الذى كان قد أفرج عنه منذ سنوات .

كانت تصلنا من بعضهم رسائل شخصية توحى بقرب الافراج .. ولكن احدا لم يستطع ان يفسر لنا تماما الحقيقة وراء كل هذا التأخير ، انه ليس فى صالح احد ، فلا يمكن أن تكون فى معركة شرسة مع الاستعمار والرجعية وأعدى اعداء الاستعمار والرجعية ما زالوا فى السجون والمعتقلات .

وجاء الصيف بجدثين هامين .
اولهما : محادثات الوحدة التى جرت بين قيادة حزب البعث التى وصلت الى السلطة فى كل من سوريا والعراق وبين القيادة المصرية .

جرت المحادثات لعدة شهور ثم اعلن انجاء عن توقفها وفشلها .. وبعد ذلك بقليل بدأت الاذاعة المصرية تذيع محاضر المحادثات .. ولقد كشفت المحادثات عن بعض الجوانب الخفية التى كنا نجهلها .. كان من المعروف أن هناك التقاء جذرى فى منطلقات البعث والفكر الناصرى الجديد كما عبر عنه الميثاق .. فكلاهما يعبر عن اتجاه وطنى تقدمى فى حركة التحرر العربى ، وكلاهما يعبر عن امانى البورجوازية الصغيرة فى بناء مجتمع مستقل تتوفر فيه بعض ملامح العدالة الاجتماعية .

والغريب أن كلا من عبد الناصر وميشسيل علق كانا يستخدمان فى تلك المحادثات التعبيرات الماركسية بل ويرجعون الى نصوص من لينين وستالين وماوتسى تونج .
ولكنهم اختلفوا رغم كل هذه الالتقاءات الموضوعية ، بل

وبدأت اجهزة الاعلام فى البلدين تتبادل الشتائم والهجوم مرة أخرى .

لقد كشفت لى تلك المحادثات عن حقيقة هامة ولعلها فسرت الكثير من الموقف المحير الذى كنا نتساءل حوله .
أن افتقاد الحركة الجماهيرية الواسعة فى العالم العربى جعل القيادات الوطنية حتى وهى تتطور وتنضج ، يتم ذلك بطرق علوية وذاتية دون وجود روابط وثيقة ودون اشراك جماهيرى واسع . . . والنتيجة أن نظل هناك هوة واسعة بين الاقوال والافعال من ناحية ، وايضا أن يظل الخلاف والانفاق مرتبطا الى حد كبير بالزعامات الفردية وليس بالالتقاء الموضوعى .

ولقد كان ذلك قيما اعتقد هو السبب الرئيسى فى تأجيل الافراج عنا وفى الخلافات التى نشبت بين البعث والقيادة الناصرية .

أن كل المعايير الموضوعية كانت تؤكد أن البعثيين والناصرين والماركسيين يقفون فى ذلك الوقت على ارضية مشتركة بغض النظر عن بعض الخلافات الفكرية والتفصيلية .

ولكن الصورة الواقعية كانت عكس ذلك تماما .
الناصريون يهاجمون البعثيين بشراسة والبعثيون يردون الاتهامات بنفس العنف . . . والماركسيون غائبون فى اعماق سجون الواحات والمزة وبغداد .

فى الوقت الذى كان فيه الاستعمار الأمريكى متعاونا مع الرجعية العربية يعمل بكل طاقة وجهد على استنزاف طاقات الجمهورية العربية المتحدة فى اليمن .

والحلف المركزى يواصل مؤامراته على سوريا والعراق بتفجير مشكلة الاكراد والمساندة الايرانية لهم وايضا بمحاولة انشاء دولة عميلة للبريطانيين فى عدن والقضاء على الشخصية العربية لامارات الخليج .

أما الحدث الثانى فقد تمثل فى الافراج عن الزميلات المعتقلات فى سجن القناطر وكانوا حوالى ٣٥ زميلة .

ولقد كان للمخير دوى واسع بيننا ٠٠ فهذه أول مرة منذ أربع سنوات يتم فيها الافراج عن مجموعة كاملة وبذلك الشكل الواسع ودون أى شروط أو قيود ٠٠ وقد استخلصنا جميعا من ذلك أن الباب قد افتتح أخيرا وهو وإن كان للسيدات فقط إلا أنه لا يمكن أن يكون مجرد إجراء «شرقى» ، بالرغم أن مجموعة من الزملاء وعلى رأسها الزميل نور غنيم أو نور اعدام كما كنا نسميه قد سخرُوا من استخلصنا وراحويبرون الافراج عن المعتقلات بأنه شيء خاص بمجتمع الحريم ٠٠ وحيث أن هذه أول مرة تعتقل فيها سيدات فإنه لامر طبيعى أن يفرج عنهن بعد أربع سنوات .

وكانت هذه المجموعة الصغيرة لا ترى أى أمل فى الافراج فى القريب .. كذلك فلقد كان للافراج عن الزميلات مفرى خاص لدى الكثيرين من الأزواج والأخوة .

فمن بين حوالى ٤٠ معتقلة كان هناك حوالى العشرين منهن زوجات أو شقيقات أو قريات للزملاء المعتقلين .

فهناك أسماء حلیم زوجة اسعد حلیم ، وثريا حبشى زوجة فوزى حبشى ، وثريا ادهم زوجة حلمى ياسين ، وثريا ابراهيم زوجة الدكتور مختار السيد، وفاطمة زكى زوجة نبيل الهلالى، وسعاد بطرس زوجة شكرى عازر وشقيقة سعد بطرس ، وسميرة الصاوى زوجة أحمد طه ، وانتصار خطاب زوجة صلاح خطاب وزينات الضباغ زوجة اسماعيل المهداوى وليلى شعيب خطيبة رجاء طنطاوى وانجى افلاطون خطيبة الدكتور افوزى منصور ٠٠ ونوال الحملاوى زوجة عبد السلام مبارك ٠٠ وليلى عبد الحكيم شقيقة طاهر عبد الحكيم وعائدة بدر شقيقة أحمد بدر .

وكم كان أحمد طه سعيدا للافراج عن زوجته بعد أن اطمأن الى أن ابنه عبد القادر الذى تركوه ولديه من العمر بضع سنوات لدى الجيران ، كذلك فوزى حبشى واسعد حلیم الذى ولد ابنه فى السجن وقضى عاما مع أمه فى زنازين انقناطر ٠٠

وليلتها سهرت مع أحمد طه وقد كان سعيدا حقا وهو يحكي
عن عبد القادر الصغير الذي حرم من الوالد والام في ليلة
سوداء ٠٠ ثم يسرح بفكره الى شبرا ويتصور لقاء عبد القادر
مع امه بعد غيبه طويلة وبعد ان اصبح شابا في الثالثة عشر
من عمره ٠٠ ثم بين الحين والاخر يؤكد :

- لقد انكسرت الحلقة ٠٠ ~~سنخرج~~ كلنا بالتأكيد ٠٠
قريبا .

وكان بحرا يندفع ، فوق
الزمان وترتفع ..
أيديهم العليا في سباحة
الدنيا ، ويكذبون الموت .
بابلونيرونا

يناير ١٩٦٤ :

ايام خطرة بل ربما كانت اخطر ايام الاعتقال على الإطلاق ..
تلتف حوله في صالة القسم الخارجى في المساء وهو يحكى لنا
عن تجربة اعتقال سابقة له في أوائل الخمسينات .
واتذكر هذه الكلمات للزميل الذى فقد حياته هذه المرة دون
أن يجرب وللمرة الثانية تلك الايام الخطرة .. ايام يكون فيها
الافراج على كل لسان وتشير كل الدلائل اليه بالمنطق البسيط
ولكنك مازلت في المعتقل .. وأعود الى وصف جميل .. انها
ايام تفقد فيها التوازن ، فالشعور بالاستقرار الذى اكتسبته
طوال ٥ سنوات فى المعتقل يتحطم ويحل محله شعور جديد
يتعلق بالامل الذى لاح فوق الشجرة .

ومن هنا تأتي خطورة تلك الايام حين تظل عينيك معلقة على
المصفور فوق الشجرة وتحول مشاعرك الى حرص وخوف
وقلق على مصير ذلك المصفور ، فقد يطير وقد تقتله رصاصة
رش من يد صبي .. وقد تنقض عليه حداة كاسرة تسسكت
اغانيه الصغيرة قبل أن يتحول الى واقع حى ..
وتتعمد المشكلة وتدخل فى دائرة اكثر تعقيدا حينما تتحول
هذه الايام الى شهور بل وإلى حوالى العام ..
هكذا قضينا الصيف والخريف من ذلك العام ، صوته
المصفور على الشجرة يبنى بالافراج .. ويزداد سماعنا لتلك

الاغاني يوما بعد آخر ٠٠ ولكن عواصف الحريف بكل ما تخلطه من أوراق وتثيره من رمال تنقضي ويدخل الشتاء وتضطرب المساء لان نتدثر بأكبر قدر من البطاطين ، فشتاء الصحراء قاس بقدر قسوة صيفه ٠

اصبح الافراج على كل لسان بعد ان اصبحت كل المعايير والمقاييس الموضوعية للسياسة الخارجية والداخلية المعلنة تؤكد ان الشاذ الغريب هو بقاؤنا في المعتقلات ٠

وأيريك رولو الصحفي الفرنسي المشهور والمسئول عن قضايا الشرق الاوسط في جريدة ليوموند الفرنسية ، وهو بالمناسبة مصري بالمولد والنشأة ، يأتي الى مصر ويلتقي بالرئيس عبد الناصر ويجري حديثا هاما وخطيرا حول الاوضاع الداخلية والخارجية وتصورات عبد الناصر عن المعركة مع الاستعمار والصهيونية والرجعية ٠

ويسأل رولو في آخر الحديث عن « المعتقلين الشيوعيين » في الواحات :

ويجيب عبد الناصر بوضوح هذه المرة ٠٠ أننا بصدد تصفية المعتقلات وفي القريب ٠٠

وربما كان ذلك أول اعتراف رسمي منذ سنوات بوجود معتقلين ٠٠ قبل ذلك بعدة شهور وفي مؤتمر صحفي عالمي قال الرئيس عبد الناصر انه ليس هناك في مصر معتقلات ٠٠ !! وفسرنا هذا الحديث يومها بأنه دليل جديد على قرب الافراج رغم تجاهل وجود اكثر من ٦٠٠ معتقل في ذلك الوقت غير حوالى مائتي مسجون سياسي ٠

ولكن القيادات السياسية في المعتقل كانت تعرف ومنذ فترة ان هذا التأخير ليس مجرد تناقضات داخل اجهزة الحكم ٠٠ ولكن وراءها سبب آخر ٠

وقد ظلت القيادات متكئة على هذا السبب في اضيق الحدود ٠٠

بل لقد كانت هناك مراسلات طيلة الوقت بين القيادات السياسية داخل المعتقل وبين عبد الناصر والقيادات السياسية

فى الخارج ، وكان يقوم بدور الوسطة عناصر يسارية محترمة تؤمن بضرورة التلاحم بين الماركسيين والسياسة الناصرية الجديدة . . . وكانت غالبية هذه العناصر اليسارية ممن لم يعتقلوا معنا اما نتيجة ارتباطات سابقة بتنظيم الضباط الاحرار أو لانهم ابتعدوا فى الخمسينات عن وجود أى علاقات تنظيمية مع الماركسيين .

ولم يكن احد يشك فى اخلاص هذه العناصر وهويتها التقدمية والوطنية .
 باختصار كان المطلوب حل التنظيمات الماركسية قبل الخروج من المعتقل .

ولقد ظلت تلك المراسلات تدور فى تكتم شديد طوال أكثر من عام .
 كانت الاتصالات تدور احيانا بصفة فردية و احيانا بصفة تنظيمية مع كل قيادات التنظيمات الموجودة أو بمعنى اصح التنظيمين الموجودين .

احدهما يقوده فؤاد مرسى وأبو سيف يوسف واسماعيل حبرى عبد الله ، والثانى يقوده ابراهيم عبد الحليم وزكى مراد ومحمد شطا .

كان موقف التنظيمين قد اقترب كثيرا من الناحية السياسية خلال عامى ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ .
 فكلاهما اعلن مساندته للميثاق وللجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذت فى الخارج .

وكلاهما فى عدة بيانات صددت اكد مساندته للتحويلات الاقتصادية والتقدمية التى تجرى .
 بل أن كلاهما اتفق على أن هناك ضربا لقطاعات من الرأسمالية ولكن الخلاف فى هذه القضية انحصر فى موقفين اساسيين .

موقف تنظيم الاغلبية وكان يرى ان التحويلات الاقتصادية والاجتماعية التى تجرى ضربت فى الاساس الرأسمالية الكبيرة

في الزراعة والصناعة والتجارة كما ضربت قطاعات من المتوسطة ذاتها وبذلك تفتح الطريق أمام بناء غير رأسمالي . وموقف تنظيم الاقلية وقد كان يرى أن على رأس السلطة في مصر (وبالتحديد قيادة عبد الناصر) مجموعة اشتراكية وان الاجراءات التي اتخذت هي ضرب لكل قطاعات الرأسمالية وتحول نحو البناء الاشتراكي .

على أن هناك مجموعة ثالثة كانت تشكل داخل التنظيم في شكل معارضة سياسية ، وكانت افكار هذه المجموعة الثالثة التي لم يكن يربطها تنظيم واحد تتلخص في ثلاث نقاط رئيسية :

* ان الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التي تمت ورغم طابعها الوطني والتقدمي الا انها لا تلغي قوانين المجتمع الرأسمالي ، وضرب الرأسمالية الكبيرة في الصناعة والزراعة وخاصة تلك التي كانت تتخذ مواقف معادية من قيادة الثورة لاي معنى ان هناك نمو غير رأسمالي وأن قوانين الاستغلال قد الغيت .

* ان التأميم في حد ذاته ليس اجراء اشتراكي أو غير رأسمالي ولكن العبرة بعلاقات الانتاج القائمة . فالتأميم تلجأ اليه دول رأسمالية ودول اشتراكية ويظل الفرق بين الاثنين هو من المستفيد في الواقع من التأميم . فإذا كانت علاقات الانتاج القائمة مازالت علاقات رأسمالية وإذا لم يكن هناك ذلك القدر من الديمقراطية التي تتيح للطبقة العاملة قيادة وتوجيه الاستثمارات المؤممة ، وإذا ظلت القيادات البيروقراطية القديمة هي التي تقود هذه المؤسسات فإن الامر لايعني ان يكون تنظيمًا رأسماليًا لدفع الانتاج والتصنيع ولواجهة متطلبات العصر . وبالتالي فإن حركة التأميمات الواسعة التي تمت لا تعدو كونها رأسمالية دولة .

ويؤكدون آراءهم هذه بكثير من الامثلة في تاريخ الحركة الثورية وخاصة بعد ثورة فبراير سنة ١٩١٧ واقدام حكومة كيرنسكي في روسيا في ذلك الوقت على تأميم عدد من

المؤسسات الاقتصادية وتعليق لينين على ذلك بأنها « رأسمالية دولة وان العامل الروسي لن يستفيد كويكا واحداً » .
ويسوقون امثلة اخرى كثيرة من تأميمات تحدث وتتم في مجتمعات رأسمالية بل واحتكارية .

★ النقطة الثالثة هي فيما يتعلق بالديمقراطية باعتبارها من وجهة نظرهم هي حجر الاساس في الحكم على كل ماحدث من تطورات . فوجود ديموقراطية واسعة واعطاء الحق للطبقات الوطنية في تشكيل تنظيماتها الجماهيرية والسياسية مع الغاء القوانين الاستثنائية والمحددة للحريات هي فقط الضمانة لدفع التطور الاجتماعي ولاعطاء الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التي تمت فاعلية حقيقة وعمقا يمكن بواسطتها اجراء تحولات جذرية في علاقات الانتاج والتطور نحو مجتمع لا رأسمالي .

وفي اواخر عام ١٩٦٣ وفي مؤتمر علني ، اعلن قادة تنظيم الاقلية حل نفسه تمشياً مع افكاره بضرورة الاندماج ووحدة العمل التنظيمي مع « القيادة الاشتراكية على رأس السلطة » واعطى توجيهات لاجتماعاته في الداخل والخارج بالانضمام الى الاتحاد الاشتراكي باعتبارها الوعاء السياسي الذي يمكن ان يتحول الى تنظيم ثوري قائد بزعامة عبد الناصر .

واثار هذا القرار ردود فعل واسعة داخل المعتقل .

فقد اعلن بعض الافراد من داخل هذا التنظيم ، وبينهم عناصر قيادية رفضهم لقرار الحل وان كانوا لم يقدموا بديلاً تنظيمياً .

ولكن رد فعل القرار كان اكثر دويماً بالنسبة للتنظيم الاخر (الاغلبية) . فبالرغم من الاتصالات السرية التي كانت تجري بين قيادة تنظيم (الاغلبية) وبين ممثل السلطة في الخارج ، وبالرغم من ان هذه القيادة في غالبيتها لم تكن ترفض بشكل حاسم فكرة الحل طالما تتوفر هناك ظروف موضوعية لذلك الا انها تمسكت على الاقل بفكرة ان قرار الحل لايمكن ان يتخذ داخل المعتقل تحت تأثير العزلة والتهديد .

كان أقص ماوصلت اليه القيادة هو « الوعد » بعقد مؤتمر موسع بعد الافراج يناقش القضية .

وهكذا كانت الصورة فى الايام الاخيرة من عام ١٩٦٣ .
فريق اعلن بوضوح حل التنظيم والعمل تحت قيادة عبد الناصر . .

وفريق لم يرفض تماما فكرة الحل ولكنه رفض أن يكون ذلك ثمن الخروج وبالتالى أجل المناقشة التنظيمية .

ومجموعات كانت اصلا تنتمى الى الفريقين ، رفضت الحل وتمسكت بضرورة أن يظل هناك منبر مستقل للماركسيين وأن هذا لا يمنع الدخول قلى تحالف أو جبهة مع الاتحاد الاشتراكي باعتباره تنظيم السلطة الوطنية وأى تنظيمات أخرى ترفع شعارات وطنية ديمقراطية .

ولكن الجميع وقفوا فى ذلك اليوم من أيام ديسمبر فى صفوف مهيبة فى حوش المعتقل ونحن نودع جثمان رفيق عزيز لفظ انفاسه الاخيرة بعد كفاح استمر أكثر من ٧٥ عاما ظل فيها يحلم بمصر الاشتراكية ومصر الديمقراطية .
وراء جثمان عم شعبان حافظ الذى لف فى علم مصر مشينا فى جنازة مشحونة تلف به حول عنابر السجن ويمشى معنا الحرس والضباط وبعض المسجونين من الاخوان المسلمين . .
وقبل أن يضعوا الجثمان فى البوكس تمهيدا لترحيله الى اهله فى الاسكندرية اخذنا ننشد - بصوت حزين نشيد الوداع لذلك الرفيق البطل .

كان عم شعبان يمثل بالنسبة لنا جميعا تاريخا ثوريا ونضاليا .

فمنذ العشرينات وحياة شعبان حافظ سلسلة من النضال والتضحيات من أجل مصر ، من أجل المطحونين والمسحوقين ، من أجل العمال والفلاحين . . فقد شارك مع حسنى العرابى وسلامة موسى وعبدالله عنان والشيخ صفوان أبو الفتوح والشيخ عبد اللطيف نجيب - من مدرسة القضاء الشرعى - وأنطون

مارون وغيرهم من أبناء مصر المخلصين أول تنظيم سياسي يتبنى الاشتراكية العلمية ويدعو الى الغاء الفوارق بين الطبقات والى مضادة الملكيات الكبيرة وتوزيع الارض على الفلاحين وخلق مجتمع يعطى لكل حسب عمله ويأخذ من كل على حسب طاقته .

وظل ذلك الحلم يراود شعبان حافظ طوال اربعين عاما لم يكف فيها لحظة واحدة عن العمل من اجل تحقيقه .

ومنذ اصدرت محكمة جنايات الاسكندرية فى اكتوبر ١٩٢٤ حكمها على شعبان حافظ وزملائه بالسجن ، وهو يخرج ليناضل من اجل افكاره ويعود الى السجن مرة أخرى .

ولكن عم شعبان ، الوحيد الذى كان رمز الاتصال نضال الاجيال ، شاء هذه المرة ان يموت فى السجن مخلقا وراءه ٧٥ عاما من المعارك المتصلة من اجل عمال وفلاحى ومثقفى مصر . ومنذ اسبوع واحد فقط وكنت اجلس اليه كعادتى مثلما يجلس التلميذ الصغير اسمع من فمه الخالى من الاسنان صورا من تاريخ نضال شعبنا الى . . وقد قال يوما فى ضحكة الشيخوخة البريئة :

— كل امنيتى فى الحياة ان اموت فى المعركة . . اما انتم مستشهدون انتصار الحلم . . وستعيشون الاشتراكية .

نفس الامنية التى جالت فى ذهن القائد الكبير خالد بن الوليد . . لقد كافح خالد وناضل بسيفه المسلول من اجل القيم الجديدة والانسانية التى بشر بها الدين الجديد . . وكما كان حزيناً أن يموت على فراشه .

ولكن شعبان حافظ مات فى المعركة . . وبين أيدي ابنائه واحفاده .

وفى مساء نفس الليلة ، والمعتقل يخيم عليه رنة حزن عظيم ، فوجئت بهم يطلبونى فى الادارة لاجهز نفسى للسفر الى القاهرة وكنت قد نسيت تماما ان الدكتور فاروق حسنى فى مستشفى الدمرداش قد اصر على أن يتابع الكشف على عيني كل شهر ، ولما كان ذلك يعنى أن ابقى فى سجن مصر فلقد

طلبت منه أن يزودني بكل التعليمات والعلاج اللازم على أن
اعرض عليه كل ستة شهور .

وكانت أكثر من ستة شهور قد انقضت منذ أن أجريت
العملية .

وسافرت ليلتها الى القاهرة . . ومعى الحرس .

ومعى أيضا جثمان الاب العظيم شعبان حافظ .

- ٣٠ -

فلتذكروني بالنضال ..
فلتذكروني عندما تغلبوا
الحقيقة وحنها حبرى حزينة .

فلتذكروا ثأرى العظيم
لتأخذه من الطفلة ، وبذلك
تنتصر الحياة .

عبد الرحمن الشرقاوي
الحسين شهيد

٤ ابريل ١٩٦٤ :

أصبح الافراج أمرا مؤكدا .. ولكن متى ؟
أكثر من ثلاثة شهور وأنا اعيش في مستشفى سجن مصر
.. وكل يوم اسمع انباء عن قرب الافراج .

فبعد أن انتهيت من الكشف مرة أخرى في مستشفى
الدمرداش والاطمئنان على حالة العين لم أرحل ثانية الى
الواحاح .

وحرصت المباحث العامة على أن ترسل هذه المرة احد
ضباطها ليفسر لي الموقف خوفا من أى مضاعفات أخرى .
قال أن ابقائي في سجن مصر هو فقط لان كشف الافراج
تعد ولم يعد هناك حاجة لترحيلي الى الواحاح .

أبى واخوتى يحرصون على أن يرسلوا لى خطابات تؤكد أن
الافراج وشيك ، بل وحضر أبى أكثر من مرة ووقف عند احدى
التلال البعيدة التى تطل على مستشفى السجن واستجمع
الرجل كل مالمديه من صوت ، مثلما كان يفعل اهالى وزوجات

- ٢٥٥ -

المسجونين ، ليلبغنى أن صلاح نصر نفسه قد اكّد الافراج عنا جميعاً .

والصحف هي الاخرى توحى من خلال عرض الاحداث والاخبار بأن الافراج سيكون وشيكاً .
فالانتخابات الجديدة لمجلس الامة قد تمت ، وهناك تصريحات عن الغاء الاحكام العرفية وكل الاجراءات الاستثنائية المترتبة عليها .

والكل في انتظار خطاب عبد الناصر في ٢٥ مارس في افتتاح مجلس الامة .

كل المؤشرات تنبئ بأن الابواب المغلقة على وشك أن تفتح .
حتى الدكتور كمال وضباط السجن بل والمسجونين انفسهم يعاملونني كضيف على وشك الرحيل . . . وعم محمد المرض المعجز يحجز معي موعداً للورود على في المنزل لكي اكتب عن مشكلة ابنه في الجرائد !! . .

وتمر الايام ، واحاول جاهداً أن اخلق احساساً بالهدوء والاستقرار الداخلي وسط كل تلك الدوامة التي توشك أن تغدقني مرة أخرى الى عالم آخر . . عالم يعيش بعيداً عن الاسواق والحرس والاورام والقيود الحديدية . .

وكانت الظروف هي الاخرى قد تغيرت في مستشفى السجن منذ تركتها في العام الماضي . . معظم نزلاء المستشفى من طراز جديد . . غالبيتهم يشغلون مناصب كبيرة في الخارج ودخلوا على ذمة قضايا جديدة بدأ معدلها يزداد فيما يبدو في الايام الاخيرة . . قضايا تتعلق بالاختلاس أو سوء استخدام السلطة والتهرب . .

كان هناك الدكتور السمني وكيل وزارة الاصلاح الزراعي ومعه عدد من كبار موظفي الوزارة . .

وكان هناك رؤساء مجالس ادارات وباشوات سابقين وبعض الاجانب المتهمين بالتهريب . . ويحكم الزمالة في المستشفى التي كانت عنبراً ممتداً يحتوي حوالى ثلاثين سريراً متجاورة وايضاً لانني لم أفقد طوال تلك السنوات حاسة الصحفي الباحث عن الحقيقة فكانت علاقات بيني وبين غالبيتهم .

كان فيهم « البيك » المتحفظ الذى يصر على ان يعامل كل من
فى المستشفى بما فيهم أنا ، بل وعلى رأسهم أنا ، كما لو كانوا
من العاملين فى عزبته أو قصره .
وكان فيهم الموظف الكبير الذى اتهم بالاختلاس واستغلال
مركزه وهو بالطبع لا يكف عن اتهام النظام كله بأنه أصبح
« شيوعيا » ولم يعد فيه مجال للكفاءات الخاصة من أمثاله
ولذلك اتهموه بالاختلاس !! .

على أن اطرفهم واخفهم دما هو المليونير بسيونى جمعة .
لم يفقد حيويته ولم يكتف بانزال اللعنات على المجتمع « الذى
لا يفتنر كفاءته » أو النظام الذى يفلق أبواب الرزق امام
« الكفائيات » . بل كان فى حالة مرح متصل . . . يلتقى بالنكت
والقفشات ويكون مجموعة السهرانيين بالليل ليحكى عن
مغامراته التجارية والانسائية بلهجة بسيطة وبلا تعقيد أو
محاولة لاختفاء الحقائق .
كان يقول وهو يضحك من اعماقه :

— اعمل أيه . . أنا راجل شاطر . . امسك التراب يبقى
ذهب زى الملك الرومانى القديم . . اظن كان اسمه ميداس . .
وبسيونى جمعة شاطر حقا . . فى اعقاب الانفصال السورى
صودرت ثروته وكانت أكثر من مليون . . وبدأ من الصغر
وبعد سنتين صودرت ثروته مرة أخرى . . وكانت أكثر من
مليونين هذه المرة . . ولكنه على يقين من أنه سيخرج يوم ما
وسيتحول التراب مرة أخرى فى يده الى ذهب .

كيف . . . ويضحك المليونير المصادر .

— ماهى دى بقى الشطارة . .

— لكن كل شىء تقريبا أصبح مؤما .

— ربنا يخلي الموظفين الكبار . . شوف فى بلدنا ابعد عن
السياسة تكسب على طول الخط .
نصيحة يؤكدها دائما المليونير المصادر ثم يقول فى مزيج
من السخرية والمرح :
— خمس سنين يا راجل علشان رأى . . اسمح لى دا غباء .

دا أنت لو خبط لك خبطة بمائة الف جنيه وانكشفت ديته
سنة واللا اثنين ٠٠ شوف بقى ضاع منك كام نظى الخمس
سنين .
منطق !!

يشبه من الناحية الاخرى منطق الشاويش متى فى الواحات
حيث لم يكن عقله يستطيع ان يهضم ان هؤلاء الذين يضربون
كل يوم ويحملون الحجارة ويقضون زهرة شبابهم فى المعتقلات
منهم الطبيب والمهندس والكاتب والضابط والطالب والعامل
وان كل جريمتهم هى فكرة يحملونها فى رؤسهم .
كان الشاويش متى يصيح ٠٠ عمرى ما شفت أغبى منكم !
وحدث ٠٠

فى الساعة العاشرة من صباح يوم الاربعاء ٤ ابريل ٠٠
جاءنى عم محمد المرض لاهنا وهو يحتضنى .
- استاذ ٠٠ ألف مبروك ٠٠ افراج .

كنت اعرف كل شيء ٠٠ بل وعرفت من أخوتى بالامس ان
بعض الزملاء الذين افرج عنهم من الواحات زارونى فى البيت
على ظن منهم انه قد افرج عنى ٠٠ واكدوا انهم افرجوا عن
دفعات كثيرة من الواحات .
ورغم هذا فلقد كان لكلمات عم محمد وقع المفاجأة ٠٠

وتلفت وسط عنبر المستشفى فى حالة تامة من انعدام الوزن
٠٠ وعقلى تائه تماما لايعرف فيم يفكر ٠٠ والمرض
واخرون يرددون كلمات التهاني ، وعم محمد يلم حاجاتى
بجوار السرير ويشدنى من يدي لانزل ٠٠ وعند البوابة تسلمت
« الامانات » الحقيبة المهلهلة تضم ملابس وجنيهاً ونصف
متبقية من حساب كاتنين السجن .

وحرص مأمور السجن والضباط على توديعى وكان الوكيل
اكثرهم اطراء لى واصراراً على أن نلتقى فى الخارج .
وخرجت من البوابة ومعى حارس واحد وبدون قيود .
والقيت نظرة طويلة على السجن من الخارج .
كثيراً ما خرجت من هذه البوابة فى الطريق الى القصر العيني

أو سمى باسم داش أو الراحات .. وكنت دائما أعود
 ولكن هذه المرة .. خروج بلا عودة .
 وانطلق بنا « الجيب » .. شارع محمد علي ثم شارع ..
 بور سعيد فميدان السيدة .. وأخيرا لاطو على .
 ونزلنا امام مبنى المباحث العامة .
 كنت هنا منذ خمس سنوات وسبع أيام .

المبنى لم يتغير .. والسلالم العريضة .. على تلك الدرجة
 انكفأ الدكتور لويس عوض .. منذ خمس سنوات وسبع أيام .
 وسلمنى الحارس الى اجدهم الذى قادنى الى إحدى الغرف .
 ورأيت ضابط المباحث الذى كان يزورنى فى القصر العيني
 وفى سجن مصر :

— الف مبروك .
 — شكرا ..
 — .. أخبار عينك ايه ؟ ..
 — أحسن ..

وقدم ورقا وقلمما وهو يبتسم .
 — تحب تكتب لنا بعض البيانات .
 وهزئت رأسى وأنا ايضا ابتسم .
 واستوفى بياناته .. السن .. العمل .. العنوان .
 ثم قام من مكتبه وصافحنى وهو يقول :
 — آسف لكل ما حدث .. كنت أقوم بواجبى الوظيفى .

قلت له :
 — وأنا كنت أقوم بواجبى الوطنى .
 وخرج معى الى باب الغرفة وأشار بيده .
 — مع السلامة .

وتحرك قدمى بضع خطوات فى الردهة .. ثم وقفت اتلفت
 حولى .. لا أحد ورائى وتحركت خطوات أخرى .. لا أحد
 يرقبى .. الكل مشغول بأعمال أخرى .. واجتازت الردهة
 وبدأت انزل السلم العريض .. وخيل لى أن احدا ينادينى
 والتفت .. لا احد ..

ونزلت الى الغناء ثم الى الباب الرئيسى .. وترام يمرق فى
سرعة وضجة .. والشارع ملىء بالعربات والناس .. ونظرت
الى الحارسين اللذين يقفان عند البوابة كأنهما استاذنهما ..
ولم يلتفتا الى .. وخطوت على رصيف الشارع .. خطوة ،
اثنتين .. اربعة .. خمسة .

وتحولت الى قطرة تائهة فى بحر الحياة التى يمتلىء بها
الشارع .. واسرعت اخترق الشارع الى الجهة الاخرى ..
وكدت اصطدم بتاكسى .. وصاح السائق : .

— يطلوا الهباب اللى يتخدوه .. فوقوا بقى !!
وابتسمت لوقاحة السائق ولما كان يمكن أن يحدث لوان
الرجل لم يستطع أن يتفادانى .. واخذت جانباً على الرصيف
ووضعت الشنطة على الارض .

كنت فى حاجة لان اتأكد انه قد أفرج عني حقاً .. مبنى
المباحث قد ابتعد .. ولا أحد خلفى . بل ولا أحد يهتم بى ..
الشارع مزدحم على غير العادة بالناس والعربات .. واخرجت
منيديلا امسح بعض العرق .. وابتسمت طالبة صغيرة وهى
تنظر الى وتشير لزميلتها .. واخذت افتش فى نفسى ..
بالتأكيد هناك شيء ما اثار تلك الابتسامة ، ملابسى ، الجاكته
طويلة اكثر من الجاكتات التى اراها ، ولكن هكذا كانت الامور
منذ خمس سنوات .. والبدلة مكسرة .. كان لابد ان اكويها
.. ولو .. ماذا قالت عني الفتاة .. ربما قالت فلاح يأتى مصر
لاول مرة .

وحملت الشنطة مرة أخرى وسرت فى اتجاه باب اللوق .
فكرت فى أن انادى تاكسى أو اركب اتوبيس أو ترام ..
ولكنى لم استقر على شيء كانت قدمائى تمضيان بلا تفكير وعينائى
تجولان فى الشارع بلا هدف محدد .. واصطدمت بالمارة اكثر
من مرة واعتذرت .. ولكن لم انادى تاكسى .. كنت اريد ان
امشى .

وتوقفت مرة أخرى امام محل لعصير القصب وطلبت
« شوب » ثم وقفت أتأمل نفسى وملابسى فى مرآة المحل ..

واعدت تصفيف شعري وانفض الكثير من التراب وانبع في
الجاكنه .

— استاذ .. العصير .

واخذت « الشوب » .

قال الرجل .

— حضرتك كنت معتقل .

وامتقع وجهي لذكر الكلمة وقبل أن أقول شيئا قال الرجل .

— اصل كل زمايلك فاتوا من هنا .. كلهم شربوا عصير .

وابتسمت في بلاهة وخرجت مسرعا وناديت تاكسي .

— شارع ٢٦ يوليو يا اسطى .

واخذت نفسا عميقا بعد أن تركنا الشارع واختفى مبنى

المباحث العامة .. ودخل التاكسي في شارع هدى شعراوي

ثم ميدان التحرير فالكورنيش .. واخذت احمق في مبنى

التليفزيون العملاق .. تركته مجرد ارض واسعة وابورات

تدك الاساس .. وقال السائق اشياء لم اسمعها كانت كل

حواسي تتركز في عيني .. وكانت عيني تعيد اكتشاف

المرئيات .. الناس اكثر والشوارع ارحم والبناات احلى وخاصة

في « المينى جيب » .

ونزلت من التاكسي .. ووقفت امام العمارة .. لم ينقص

حجرا واحدا حتى الشرخ في زجاج البوابة لم يزداد .. ظل

كما هو .. واسرعت الى الداخل وبدأت ارتقى الدرجات الاولى .

وشهدني عم مدبولي من الخلف .

— نورت يا استاذ .. ألف حمد الله على السلامة .

وخرج البواب من غرفته واحتضنني بعنف وهو ينادى على

أختي .

وفتحت ابواب الشقق .. وانطلقت الزغاريد .. ووجدت

نفسى في الدرجات الاولى وحولى جبهة من الجيران ، وشقت

أختي الجموع واخذتني بين يديها .. ونزل ابى السلالم مهرولا

وانكسرت نظارته .

وتحركنا درجة درجة حتى وصلنا الى الدور الثالث .

منذ خمس سنين وعدة ايام نزلت هذه الدرجات قفزا وهروبا
من نشنجات اختى وبكاء سامع الصغير .

ودخلت الشقة . . كانت مزدحمة واندفعت بغريزة مفاجأة
الى غرفتى واسرعت اختى تفتحها .

ووقفت على اعتاب الغرفة أتأملها واعد اكتشافها .

كل شيء فى مكانه . . والسرير والمراتب المقلوبة . . والكتب
الملقاة فى كل مكان . . وبقايا السجائر . . وكتاب كنت اقرؤه

فى نفس الليلة . . فى مكانه ورائحة غريبة تملأ الغرفة . .
وكدت أشم أنفاس الضابط ورجاله . . فى تلك الليلة الكثيبة
منذ خمس سنوات .

قالت اختى :

— منذ تلك الليلة لم نفتحها . . لم اكن استطيع .

ثم اسرعت الى النافذة تفتحها ، وانهمكت فجأة فى ترتيب
كل شيء بينما كانت الغرفة تموج بهواء جديد . .

فذلكة ختامية

من الناحية الفنية يعتبر الفصل السابق هو ختام تلك المرحلة أو تلك الملحمة ، أو تلك التراجيديا أو سُمها كما شئت .

فبكل المعايير انتهى الحدث بالاسس المعترف بها في البناء الدرامي . . بداية المشكلة ثم تعقدها ثم الوصول الى حل . ولكن هذه المعايير تسقط تماما اذا كان العمل المقدم ليس بناء دراميا أو قصصيا ورغم ما حفل به من وقائع ترقى الى هذا المستوى — ولكنه أولا وأخيرا مرحلة تاريخية كالملة ، ولما كانت الوقائع التاريخية وخاصة اذا كان هناك التزام بسردها . . اكبر بكثير من مجرد اعتقال فرد أو مجموعة من الأفراد والجماعات ثم الانزاج عنها — فلقد وجدت القلم يلعب في يدي بعد أن وضعت البطر الاخير بل وأخسست بقلبي داخلي غير مريح .
وكان هذا يعني أن هناك اشياء اخرى يجب أن نقال وإن هذه الاشياء تفرض نفسها من واقع الالتزام والالتزام .

الالتزام طالما زعمت لنفسى فى المقدمة أن هذه المرحلة من أخطر المراحل التي مرت بها مصر والعالم العربى فهنا يكون لزاما على أن أحاول أن أصل الى نتائج وضعت مقدمات بعضها، ولم يكن من الممكن أن تبقى الحقيقة ناقصة مبتورة تحت دعوى أن الافراج قد تم فى أبريل سنة ١٩٦٤ . . أنه تاريخ هام ولاشك — ولكن الوقوف عنده يوحى كما لو أن فترة الاعتقال قد تحولت الى جملة اعتراضية بين قوسين دون أن يكون لها اثر أو تأثير فى مسار الاحداث .

بالتأكيد أن الامر لم يجر على هذه الصورة .
والالتزام بالاحساس بالمسئولية ازاء العمل المقدم فالتقصية فى النهاية ليست رواية مثيرة ، رغم ما قد يكون فيها من اثار

.. وليست عرضا لمعاناة ذاتية لفسرد أو مجموعة افراد ..
ولانريد أن تكون مجرد صرخة من صرخات الاحتجاج على ماقد
حدث .. ولكنها فى الواقع قصة شعب بأسره أو هكذا كانت
ومازالت قناعتى .. قضية تعلق فوق كل الخلافات الفكرية
والايدىولوجية فى الماضى والحاضر .. أنها قضية حضارية ..
قضية تتعلق بالانسان المصرى .. بإمكانيات تنظيم صراعاته
وخلافاته على اسس حضارية بعيدا عن كل اساليب التعذيب
والقهر البدنى والنفسى الذى مارسه أو تمارسه أو قد تمارسه
أى سلطة فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل .

ولقد قيل ، وهو قول صحيح اعتقد انه من ماثورات جواهر
لال نهرو ، أن السلطة مفسدة وان السلطة المطلقة مفسدة
مطلقة ، ولعل هذا هو الدافع لان تلجا غالبية النظم الحضارية
سواء أكانت رأسمالية أم اشتراكية الى محاولات التقليل من
هذه المفسدة ومطلقاتها .

الدول الاشتراكية تحاول أن تواجه هذه المفسدة بأكبر قدر
ممكن من المشاركة الجماعية والجماعية ، وبأكبر قدر ممكن
من الاجراءات الاقتصادية واجتماعية التى تقلل أو تعدد أو حتى
تلقى الفوارق والامتيازات الطبقية .

والدول الرأسمالية المتحضرة لديها هى الاخرى ماكينتها
الخاصة متمثلا فى نظام الاحزاب والبرلمانات والتقنيات
والاتحادات التى تخرج من خلالها دخان العادم القادر على
موازنة حركة الموتور أو بمعنى آخر حركة الذهب والاستغلال
الرسمالى .

ولست بالطبع ممن يبنون الاوهام أو على استعداد لان
تخدعهم الواجهات الديمقراطية التى تستخدمها الدول
الرأسمالية المتحضرة .

فحين يتكلم الانسان عن النظم الحضارية فان الامر هنا نسبي
اذ لابد وأن نتفق على ان هناك خطافاصلا ، وأن لم يكن حاسما ،
بين مجتمعات تسود فيها القيم الحضارية العامة متمثلة فى
الديمقراطية الاشتراكية أو حتى الديمقراطيات الرأسمالية

القائمة على نظرية « دخان العادم » وبين مجتمعات تنطلق فيها السلطة بلا حدود أو حواجز ، حتى ولو كانت حواجز شكلية . . . ولا يشك القارئ للحظة واحدة أن الديمقراطية الصحيحة فى مفهومى هى تلك التى تستمد معناها من ابعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، أى باختصار - الديمقراطية الاشتراكية .

ولكن أيضا لا اريد للقارئ أن يشك فى اننى خيّن أواجه واقعا معينا ومرحلة معينة يكون من الصعب فيهما تحقيق الديمقراطية الاشتراكية فاننى أصوت على الفور للنظام الرأسمالى الذى يضع فى اعتباره نظرية الشكليات الديمقراطية .

أن ذلك أفضل بالتأكيد من نظام رأسمالى يعطى لنفسه تفويضا مطلقا تحت أى دعوى ، فهناك فرصة فى الاختيار الاول لحركة الجماهير ولسيطرتها على صمام « دخان العادم » ولحظتها تستطيع الجماهير أن تحطم الموتور الرأسمالى ذاته وتستبدله بطاقة اشتراكية جماهيرية .

حقيقة ان الثورة الاشتراكية لم تتحقق حتى الآن من خلال البرلمانات والانتخابات الرأسمالية ، هذا لو أسقطنا من اعتبارنا تجربة تشيلى المجهضة ، ولكنها أيضا مسألة واردة ليس من الناحية النظرية فحسب بل وأيضا من خلال دراسة صبوره لمجريات الامور فى بعض البلدان الرأسمالية وعلى وجه التحديد ايطاليا وفرنسا وبشكل أحدث البرتغال واليونان .

وحين أمنت ومن خلال دراسة وعى بواقع مصر وظروفها بالاشتراكية ، وبالاشتراكية العلمية كحل قومى وطبقى وإنسانى لهذا الواقع وتلك الظروف فلقد أمنت وفى نفس اللحظة انه الحل الديمقراطي الاوحد .

ولم يحدث لمرة واحدة ان وجدت تناقضا فى فهمى للضرورة الاشتراكية وللمتطلبات الديمقراطية .
ولعل لا أتجاوز الحقيقة اذا قلت أن الذين تصوروا انهم يبنون الاشتراكية قفزا على حرية الانسان وحركة الجماهير واعتمادا

على أجهزة الدولة او مندوبة البعثات مع وافتها هم في النهاية
أولئك الذين هم اللا اشتراكية أو بأقل المبادئ وأكثرها تساهلا
مشوبين لها .

فلا اشتراكي الحقيقي بقدر ما هو وطني حقيقي بقدر ما هو
ديمقراطي حقيقي ان هذه الحقائق الثلاث المتكاملة هي التي
تعطى للاشتراكي أيضا عواطفه الأمية الحقيقية .

والذين يبحثون عن تناقضات بين أن تكون اشتراكية
وديمقراطية أو أن تكون وطنيا وأميا هم العاجزون عن استيعاب
وفهم الاسس الحقيقية للاشتراكية العلمية .
ولكل هذا ولبعض منه ، فليس في نيتي أن أتخذ مسوح
القاضي القادر على إصدار حكم في هذا الكتاب ، ان هذا لم يطرأ
على الذهن ولم أسمح لنفسى بأن تفرق في مناهات لست قادرًا
عليها كما انى لست مؤهلا لها .

كذلك فلست ممن يريدون لأنفسهم موقف الشهادة سواء
بالسلب أو الايجاب لتأكيد التهمة أو نفيها .
ان كل ما أحلم به من خلال ما قدمته هو أن أكون مجرد واحد
من المحلفين الذين لعبوا دورا في القضية . . والقضية التي
أسميها ليست قضية الامس بل قضية اليوم والغد .
قضية اطمح أن يكون كل أبناء وبنات مصر مشاركين فيها
شهودا ومحلفين وقضاة . . وأن يكون حكمهم « حتى لا يتعرف
أي مصري أو مصرية لاي نوع من أنواع القهر البدني والنفسي
لأنهم يحملون راية يختلف مع الآخرين » تلك هي قضيتي واعتقد
انها قضية الجميع .

واضعا في الاعتبار كل تلك الظروف . فلقد وجدت انه من
الأمثل لو أجملت بعض الملاحظات السريعة التي واكبت هذه
المرحلة وكانت بمثابة علامات طريق .

أولا : انه بعد تصفية معتقل الواحات ثم بعد ذلك الافراج
عن المسجونين الشيوعيين الذين كانت قد صدرت بحقهم أحكام .
كان هناك قدر كبير من التفاؤل في أن مصر بازاء مرحلة انطلاق
وطني ديمقراطي عارم وقد كان هناك مبررات قوية لهذا
التفاؤل فصدر الدستور الذي يضع في صلبه عددا من الاسس

التي تدشن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي تمت ،
لذلك تلاحت الاجراءات الخاصة بالمزيد من التاميمات
والتشريعات التي كان من الممكن ان تضع حدا للنمو الرأسمالي
ولكن الانعكاسات الحقيقية لتلك الاجراءات والتشريعات في
واقع الناس وحياتهم ظلت اقل بكثير ، اذ ان الذي أشرف على
التنفيذ ظل في الاساس هي نفس الاجهزة والقوى السابقة
دون أن يطرأ على جهاز الدولة أو نظامه أى تغيير جذرى .

ثانيا : قامت التنظيمات الشيوعية او بمعنى أدق التنظيمان
الشيوعيان بعد حوالى عام من الافراج أى فى سنة ١٩٦٥ بمقعد
مؤتمر موسع وقررا حل نفسيهما على أساس أن الاتحاد
الاشتراكي العربى هو التنظيم الثورى المؤهل لكى يقوم بدور
قيادى وطنى وباعتباره تنظيم السلطة الثورية . ولقد كانت
هناك اقلية فى التنظيمين تعارض الحل على أساس أن يبقى
التنظيم الشيوعى مع الدخول فى جبهة متحدة مع الاتحاد
الاشتراكي كمرحلة أولى ، ومن الممكن من خلال الجبهة وضع
أسس التنظيم الثورى الواحد .

وبالرغم من أن هذه الاقلية سجلت رأيها الا انها لم تتخذ
أى خطوة بعد قرار الحل فى اتجاه إعادة التنظيم .

ثالثا : بينما عاد الصحفيون الذين كانوا فى المعتقلات الى
عملهم بعد أقل من شهر من الافراج عنهم وكذلك معظم المثقفين
الا أن العمال فى غالبيتهم العظمى لم يمودوا الى أعمالهم السابقة،
وظل الكنيرون من المعتقلين من العمال بلا عمل لسنوات بعد
ذلك والتحق غالبيتهم بأعمال فى القطاع الخاص .

كذلك فإن المدرسين وأساتذة الجامعات لم يسمح لهم بالعودة
الى عملهم السابق فالحقوا بوظائف ادارية .

ومن الملاحظ أيضا انه بينما أعطيت عضوية الاتحاد
الاشتراكي لعدد من المثقفين من المعتقلين والمسجونين السابقين
الا انها حُجبت بشكل شبه مطلق عن العمال .
كما عرف بعد ذلك ان كل من عاد الى عمله كان يشفع بقرار

المودة قرار سرى آخر يحذر من تولى الشخص أى مسؤولية
فيادية ! رغم ان وثيقة الحل كانت قد أعلنت ورغم الحماس
المطلق للمعتقلين السابقين للتجربة .

رابعا : فيما عدا عدة شهور في أواخر سنة ١٩٦٤ فان معتقل
القلعة وسجن طرة عادا من جديد يستقبلان نماذج من المعتقلين
الشيوعيين تحت دعاوى كثيرة بلغت الى حد أن أحد الزملاء -
مرانيس لببيب - اعتقل بتهمة أنه «يلسن» على النظام، واعتقل
لفترة أيضا الزملاء الذين سجلوا رأيهم في المؤتمر الموسع
للتنظيم الشيوعي وكانوا ضد قرار الحل .

بل ان عددا من قيادات منظمة الشباب الاشتراكي وأساتذة
المعهد العالي للدراسات الاشتراكية قد اعتقلوا سنة ١٩٦٦
تحت دعوى الترويج للمذهب الماركسي .

خامسا : حقيقة ضم الى التنظيم الطليعي والذي كان يضم
كل المحافظين ورؤساء مجالس الادارات وقيادات الاجهزة عدد
من الماركسيين ، ولكن هذا العدد الذي لم يتجاوز العشرين بأى
حال من الاحوال كانت غالبيتهم من المثقفين ومن العاملين في
اجهزة الاعلام بوجه خاص .

ولقد كانت قيادة التنظيم السرى - ويعلم الله لماذا كان سرىا
رغم انه تنظيم السلطة - تختار نوعيات خاصة تثق في ولائها
• ولست أدري أيضا لماذا يحلو للبعض دائما أن يقرن
الماركسيون بالتنظيم السرى رغم أنهم كانوا في غالبيتهم
العظمى بعمدين عنه .

سادسا: ان ثورة ٢٣ يوليو هي في النهايه ثوره وطنية
تقدمية عملت بقدر طاقة وامكانيات قيادتها على أن تخطو في
طريق التطور الوطنى الديموقراطى وبالذات في الستينات ،
والأجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذت في تلك
الفترة غيرت الكثير من أوراق الماضى ومؤلفاته .

ولكن ظل الاعتماد في الاساس على الاجهزة الرسمية وكذلك

عدم الثقة في ايجاد تنظيمات سياسية وجماهيرية ناضجة بما
في ذلك الاتحاد الاشتراكي نفسه هو الذي أعطى لكثير من قوى
التخلف الفرصة الواسعة للهجوم على الثورة ومنجزاتها ، وهو
نفس العامل الذي حال دون أن تلعب القوى الوطنية
والديمقراطية دورها الجماهيري الحقيقي لتأصيل وتطوير تلك
الافكار والمنجزات •

وأظن انه لا طريق أمامنا الان سوى أن نعرف كيف نختلف
وكيف نتفق ولماذا نختلف ولماذا نتفق ؟ مع الغاء كافة القيود
التي تمنع الانسان المصري من أن يعبر عن رأيه صراحة دون
أن يتعرض لاي شكل من اشكال القهر المادى والمعنوى •

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٣٦ / ١٩٧٥

طبع بمطابع مؤسسة روز اليوسف

كتب تحت الطبع

- المارقون بالزيت
مسرحية سياسية
- الناصرية وتجربة الثورة من اعلا
رسالة الدكتوراه
- الخروج
شهادة سياسية قصصية

مختارات من كتاب « الخرج » للمؤلف تحت الطبع

- وكتب الى صديق عزيز كان يعمل في عاصمة عربية يستحثني للمحاق به ويبضى استغرابه لاصرارى على البقاء في مصر رغم انى مفصول ومهدود من دخول الجريدة او الكتابة وقال في نهاية رسالته « بالله عليك ماذا تنتظر وهل تنتظر حتى يقبضون عليك ويرسلونك مرة اخرى الى معتقل الواحات في اعماق الصحراء ، ربما تكون قد اشمنت اليه ... » .
- والثقيت به بعد عامين في حديقة المنزل الفخم الذى يقيم في العاصمة العربية وقتلت له مداعبا ..

او ليست الواحات افضل !!

- وقال في كلمات قاطعة فاجأتني .. الف الف مرة ..
- وطرت من برلين الى بغداد حتى لا يفوتني واحد من اخطر مؤتمرات القوة العربية ... وتحولت ردهات وصالات القصر الذى اجتمع فيه الملوك والرؤساء العرب الى خلية نحل حقيقية وخاصة وقد حضر المؤتمر اكثر من ٧٠٠ صحفى من جميع انحاء العالم ، مناقشات ومراهقات ، وحياض زائد ، وروايات تحكى لها طعم الروايات البوليسية ..
- واجتاحنى حزن عميق فلقد احسست ان دور مصر التقليدى ، دورها الذى ومبته لها عوامل جغرافية وتاريخية وبشرية وحضارية ، وجعلتها وعلى امتداد التاريخ البشرى هى مفتاح المنطقة الاستراتيجية ..
- ذلك الدور الذى اكده مينا ورمسيس ودافعت عنه كليوباترا وفهمه واستوعبه صلاح الدين والظاهر بيبرس وشجرة الدر ومحمد على وابرزهم مصطفى النحاس بفرجه جمال عبد الناصر ..

هذا الدور بدأ وكأنه يباع في المزاد ...

- وانتهيت على ضجة هائلة تغرق صالة الترانزيت فجأة وتفسح حداً لتلك الخواطر التى توافدت في ذهني المكثود .. وتاملت الصالة التى تشكو الفراغ والسكون في تلك الساعة من الليل وقد امتلأت بعدد كبير من الفلاحين وعمال الزراعة وبعضهم يحمل حتى الفاس والغلق التقليدى على كتفه ، واقترش غالبيتهم ارض الصالة في حلقات دائرية ، وراحوا يتبادلون النداءات والحوار العالى الصوت ، ويحولون برد الصالة الموحش الى ساهر او مولد او مقهى .

وجرى عمرو الصغير نحوى ليقول في براءة طفولية :

بابا ٢٠ بابا .. الفلاحين بتوع بلحنا هم هنا علشان يودعوك وكتمت

ابتسامه من بابا ٢٠ بابا .. الفلاحين بتوع بلحنا هم هنا علشان يودعوك وكتمت

لا يا .. الفلاحين بتوع بلحنا هم هنا علشان يودعوك وكتمت

0132010

الكتاب

٨٩٠٠